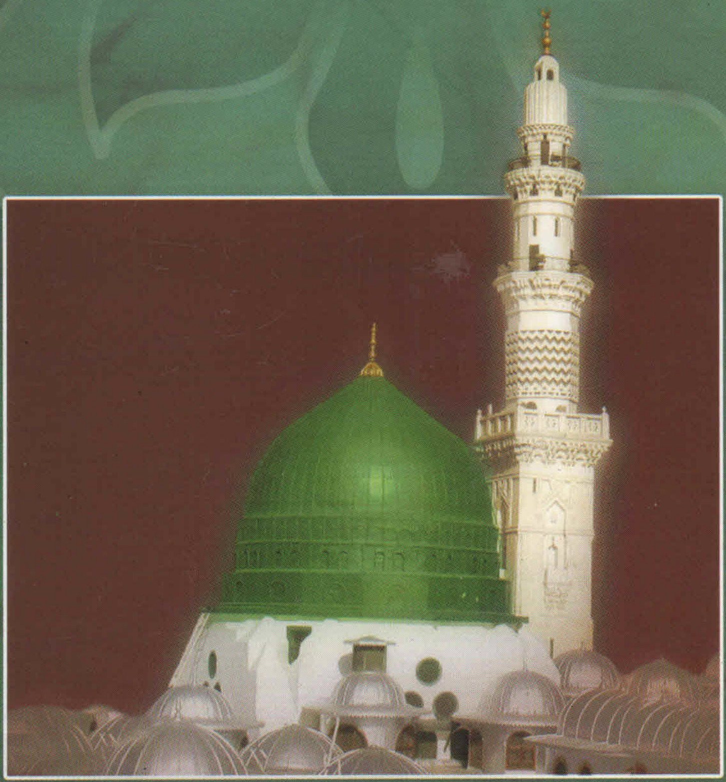
روائع القصص الإسلامي



الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع

روائع

القصص الإسلامي

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨م

الطبعة الأولى

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي/ مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ ٦ ٠٠٩٦٢
فاكس: ٥٦٩٣٩٤١ ٦ ٠٠٩٦٢
Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM
www.al-nafaes.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطاً مستقيماً، وما كنّا لنتهدي لولا أن هدانا الله، وأصلي وأسلم على المصطفى المختار خاتم أنبياء الله ورسله، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، وبعد:

فقد حبب إليّ منذ سنوات كثيرة أن أدوّن ما يمرّ بي من قصص وحكايات في أثناء قراءتي ومدارستي في كتب أهل العلم، فكنت أدون عنوان القصة، وأدون اسم الكتاب الذي وردت فيه، ورقم الصفحة من ذلك الكتاب.

وجاء وقت أصبح لدي المئات من القصص معزوة إلى الكتب التي وردت فيها، فرجعت إلى هذه القصص واخترت منها ما حواه هذا الكتاب، وهو أفضلها وأحسنها فيما أظنّه وأقدّره.

وقصص الصالحين الأخيار كنز لا ينفد من العلم والمعرفة، فإنه وإن لم يوجد كتاب رباني ولا أحاديث نبوية تحكي هذه القصص عن هذه الأمة، فإن العلماء الأعلام ذكروها في مدوناتهم التي سطروها، فلا يكاد كتاب في التفسير وشروح الحديث أو الفقه أو التاريخ أو تقويم البلدان إلا ويذكر صاحبها هنا أو هناك شيئاً من هذه القصص، وتوجد هذه القصص بكثرة في كتب تراجم الرجال وسِيَرهم. وهذه القصص كثيرة متنوعة، بعضها يتحدث عن العلماء الأعلام، وبعضها عن الخلفاء والملوك وأصحاب السلطان، وبعضها يروي أخبار القضاة العادلين.

ومن هذه القصص قصص العشق، وقصص الفراسة، ومنها في التفاؤل والتشاؤم، ومنها في الفرج بعد الضيق، وغير ذلك.

والقصص مطلوبة لدى الأغنياء والفقراء، والحكام والمحكومين، والقادة والجند، وهؤلاء جميعاً يروِّحون على نفوسهم بمطالعة هذه القصص، ويأخذون منها العظة والعبرة، وكثير من القصص موضع أسوة وقدوة، لذا فإنها تهذب الأخلاق، وتلين الطباع، وتهدي للتي هي أقوم، وما ورد في هذه القصص من قصص الأشرار، فهو ليتعظ به الصالحون، ويحذر منه الطالحون.

وهذا النمط من القصص المنثور في كتب أهل العلم يخالف ما يدعى بالأسطورة، فهو قصص واقع حادث، بينما الأسطورة قصة متخيلة، بعيدة عن الواقع المعاش، وأصحاب العقول يفرقون بين هذين النمطين من القصص، وهما وإن كانا فيهما حلاوة، وعليهما طلاوة، إلا أن الذي تكثر فيه الفائدة والعبرة هو الذي حدثت وقائعه، ووجد أشخاصه في مكان ما وفي زمان ما على اختلاف المكان والزمان، وهذا النمط هو الذي تحدث عنه القرآن، وتحدثت عنه الأحاديث النبوية، ورصدنا طائفة منه في قصص الرسول ﷺ وأصحابه في بعض ما ألفنا.

وقد جعلت كل زمرة من القصص في موضوع واحد أو في باقة على حدة، فباقة للعلماء الأعلام، وباقة للخلفاء والحكام، وباقة للقضاة العادلين، وهكذا، وختمت هذه الزمر بباقة لا تدخل تحت زمرة من الزمر السابقة، ولا يجمعها فيما بينها جامع أو رابط.

وبعض هذه القصص يجمعها فيما بينها أنها قصص رجل واحد، كقصص الحجاج، أو قصص معن بن زائدة، أو قصص علاَّمة الأندلس وقاضيها المنذر ابن سعيد البلوطي وبعض القصص يتحدث عن الحيوان، وبعض آخر يتحدث عن الجماد كالكنوز.

وسيجد القارئ الكريم أنني عزوت كل قصة إلى المصدر المأخوذة منه، وسيجد ثبتاً بالكتب التي رجع إليها مدوّن هذا الكتاب في تأليفه له، وقد قدمت لكل زمرة من زمر هذا الكتاب مقدمة لتكون بمثابة الفاتحة للزمرة التي أقدم لها.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب عباده، ويرزقني أجره وثوابه، إنه نِعْمَ المولى، ونِعْمَ المعين، والحمد لله رب العالمين.

عمر سليمان عبدالله الأشقر
عمان – الأردن
يوم الاثنين
الثالث عشر من شهر ذي القعدة ١٤٢٧هـ
الرابع من كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٦م

❊ ❊ ❊

الزمرة الأولى

قصص السابقين

تقديم:

السابقون الأولون على مدار التاريخ الإنساني هم الرسل والأنبياء، فهم خير الناس وأفضل الناس، ويأتي من بعدهم على إثرهم العلماء الأتقياء الذين استوعبوا علمهم، وحملوا إرث الرسل والأنبياء، فهؤلاء هم الأخيار، وهم حزب الرحمن، الذين اصطفاهم الله لدينه وشريعته.

القصة الأولى
هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين

الفقيه العالِم أفضل من العابد غير الفقيه، وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى قول أبي هريرة: «الفقيه أشدّ على الشيطان من ألف عابد» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٦٧].

ذلك أن العالم، كما يقول ابن القيم: «يفسد على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدم ما يبنيه، فكلما أراد إحياء بدعة وإماتة سنّة حال العالِم بينه وبين ذلك، فلا شيء أشدّ عليه من بقاء العالِم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحبّ إليه من زواله من بين أظهرهم، ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة، وأما العابد

فغايته أن يجاهد ليسلم منه في خاصة نفسه، وهيهات له ذلك» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٦٩].

وقد أورد ابن القيم في كتابه [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٦٨] قصة تظهر فضل العالِم على العابد.

قال ابن القيم: «قال المزني: رُوي عن ابن عباس أنه قال: إن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالِم ما لا تفرح بموت العابد، والعالِم لا نُصِيب منه، والعابد نُصِيب منه؟

قال: انطلقوا، فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك! فانصرَف، فقال إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري، فقال: أترونه كفَرَ في ساعة؟! ثم جاؤوا إلى عالِم في حلقته يضاحك أصحابه ويُحدِّثهم، فقالوا: إنا نريد أن نسألك! فقال: سل، فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ قال: نعم، قالوا: كيف؟ قال: يقول: كن فيكون؟ فقالوا: أترون ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يُفسد عليّ عالَماً كثيراً.

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر، وأنهم سألوا العابد فقالوا: هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه؟ فقال: لا أدري، فقال: أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله، وسألوا العالِم عن ذلك؟ فقال: هذه المسألة محال؛ لأنه لو كان مثله مخلوقاً، فكونه مخلوقاً وهو مثل نفس مستحيل، فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثلَه، بل كان عبداً من عبيده، وخلقاً من خلقه، فقال: أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين! أو كما قال».

* * *

القصة الثانية
اتخذوا مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٦١] قصة تدل على أن بعض أنواع السعادة مستعارة، وهي غير دائمة، مثل سعادة المال والجاه، ترى الرجل سعيداً، ملحوظاً بالعناية، مرموقاً بالأبصار، فلا يمضي عليه إلا وقت قصير، حتى يزول عنه ذلك العز، فيكون حاله كفرح الأقرع بجمة ابن عمه.

قال ابن القيم: «يحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب، فانكسرت بهم السفينة، فأصبحوا بعد عزّ الغنى في ذلّ الفقر، ووصل العالِم إلى البلد، فأُكرم وقُصد بأنواع التحف والكرامات، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا: هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة؟ فقال: نعم تقولون لهم: إذا اتخذتم مالاً، فاتخذوا مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة، فاتخِذوا العلم تجارة» .

وقال ابن القيم: «واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورَواء برجل عالم، فجسّ المخاضة (أي: اختبره) فلم ير شيئاً، فقالوا: كيف رأيته؟ فقال: رأيت داراً حسنة مزخرفة، ولكن ليس بها ساكن!» .

* * *

القصة الثالثة
ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الوزارة

قال ابن القيم «في «تاريخ بغداد» للخطيب: حدثني أبو النجيب عبدالغفار ابن عبدالواحد قال: سمعت الحسن بن علي المُقرِي يقول: سمعت أبا الحسين ابن فارس يقول: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرِّياسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجِعابيِّ بحضرتي، فكان الطبراني يغلبُ بكثرة حفظه، وكان الجِعابيُّ يغلب الطبرانيَّ بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه.

فقال الجِعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هاته؟ فقال: حدثنا أبو خليفة، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدّث بالحديث، فقال الطبراني: أنا سليمان بن أيوب، ومني سمع أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو إسنادُك، فإنك تروي عن أبي خليفة عني، فخجل الجِعابي وغلبه الطبراني.

قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرِّياسة ليتها لم تكن لي وكنت الطبرانيَّ، وفرحتُ مثل الفرح الذي فرح به الطبراني لأجل الحديث.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: من تعلّم القرآن عظُمَت قيمته، ومن نظر في الفقه نَبُلَ مقداره، ومن تعلّم اللغة رقّ طبعه، ومن تعلّم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حُجَّته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه» .

القصة الرابعة
نحن نفنى ونموت والعلماء باقون الدهر

أنبل المراتب في الدنيا والآخرة مرتبة العالِم الذي أخلص دينه لله تعالى، وقد أورد ابن القيم في كتابه [مفتاح دار السعادة: ١/ ٥٠٢] القصة التالية حدد فيها الخليفة الرشيد أنبل المراتب التي يحوزها الناس.

قال ابن القيم: «قال يحيى بن أكثم: قال الرشيد: ما أنبلُ المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرفُ أجلّ مني؟ قلت: لا، قال: لكني أعرفه؛ رجل في حَلْقَة يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ .

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أهذا خير منك، وأنت ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وولي عهد المؤمنين؟ قال: نعم، ويلك، هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله، لا يموت أبداً، ونحن نموت، ونفنى، والعلماء باقون الدهرَ» .

وقال ابن القيم أيضاً: «قال خيثمة بن سليمان: سمعت ابن أبي الخناجر يقول: كنا في مجلس يزيد بن هارون، والناس قد اجتمعوا إليه، فمرّ أمير المؤمنين، فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس ألوف، فالتَفَتَ إلى أصحابه، وقال: هذا المُلْك» .

❊ ❊ ❊

القصة الخامسة
هذا وأبيك الشرف

وقال ابن القيم في كتابه [مفتاح دار السعادة: ١/ ٥٠٤]: «في كتاب «الجليس والأنيس» لأبي الفرج المعافى بن زكريا الجريري: حدثنا محمد بن الحسين بن دريد: حدثنا أبو حاتم، عن العُتْبي، عن أبيه، قال ابْتَنَى معاوية بالأبطح مجلساً، فجلس عليه ومعه ابنه قَرَظَة، فإذا هو بجماعة على رِحال لهم، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنّى:

بينمـــا يـــذكُرْنني أبْـــصَرْنني   عندَ قِيدِ المِيلِ يَسعى بي الأغَـرّ
قُلـنَ تَعْـرِفنَ الفتـى قُلـنَ نَعَـم   قَـد عَرَفنـاهُ وهَـل يَخفـى القَمَـر

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة، قال: خلّوا له الطريق فليذهب. قال: ثم إذا هو بجماعة، وإذا فيهم رجل يُسأل، فيقال له: رميتُ قبل أن أحلِقَ؟ وحلقتُ قبل أن أرمي؟ في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج، فقال: من هذا؟ قالوا: عبدالله بن عمر، فالتفت إلى ابنه قَرَظَة، وقال: هذا وأبيك الشرف، هذا والله شرف الدنيا والآخرة» .

❊ ❊ ❊

الزمرة الثانية
قصص الفضلاء العلماء

تقديم:

هذه باقة من قصص الفضلاء من أهل العلم، ترى فيها نوادر لطيفة تُحكى، وأخباراً تُروى، ومواقف سديدة، ونظرات صائبة، وفي كثير منها ما به يتأسى، وإليه يصار.

القصة السادسة
دخل الرشيد فقام له الناس إلا محمد بن الحسن

قال الجصاص في كتابه [أحكام القرآن:٣/ ٩٥] حدثنا مكرم بن أحمد قال: حدثنا أحمد بن عطية الكوفي، قال: سمعت أبا عبيد يقول: كنا مع محمد بن الحسن، إذ أقبل الرشيد، فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن، فإنه لم يقم، وكان الحسن بن زياد معتل القلب على محمد بن الحسن، فقام، ودخل، ودخل الناس من أصحاب الخليفة، فأمهل الرشيد يسيراً، ثم خرج الإذن، فقام محمد بن الحسن، فجزع أصحابه له، فأدخل، فأمهل، ثم خرج طيب النفس مسروراً، قال: قال لي: ما لك لم تقم مع الناس؟ قال: كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، إنك أهلتني للعلم، فكرهت أن أخرج إلى طبقة الخدمة التي هي

خارجة منه، وإن ابن عمك ﷺ قال: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» وإنه إنما أراد بذلك العلماء، فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو، ومن قعد اتباعاً للسنّة التي عنكم أخذت فهو زين لكم.

قال: صدقت يا محمد، ثم شاورني، فقال: إن عمر بن الخطاب صالح بني تغلب على أن لا ينصروا أولادهم، وقد نصَّروا أبناءهم، وحلت بذلك دماؤهم، فما ترى؟ .

قال: قلت: إن عمر أمرهم بذلك، وقد نصَّروا أولادهم بعد عمر، واحتمل ذلك عثمان، وابن عمك، وكان من العلم بما لا خفاء به عليك، وجرت بذلك السنن، فهذا صالح من الخلفاء بعده، ولا شيء يلحقك في ذلك، وقد كشفت لك العلم ورأيك أعلى، قال: لا، ولكنا نجريه على ما أجروه إن شاء الله، إن الله جلّ اسمه أمر نبيه بالمشورة تماماً لما به من الأخلاق التي جعلها الله له، فكان يشاور في أمره، فيأتيه جبريل بتوفيق الله، ولكن عليك بالدعاء لمن ولاّه الله أمرك، ومر أصحابك بذلك، وقد أمرت لك بشيء تفرقه على أصحابك، قال: فخرج له مال كثير، ففرقه» .

* * *

القصة السابعة
أوذي وسجن وعذّب في سجنه

بعض الأثرياء الوجهاء يصابون بالبلاء، ومن هؤلاء العلاّمة بلال حفيد الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، فقد كان يمسك بأنفه في شبابه حين يسير في الشارع ليس فيه غبار، ثم أوذي وسُجن، وعُذّب في سجنه، وضُرب حتى تغير، فصبر، وعلم أن ما أصابه من بلاء ولأواء كان بسبب ذنوبه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [عدة الصابرين:ص٩٥]: «وفي جامع الترمذي [٣٢٥٢] عن شيخ من بني مرة قال: قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة، فقلت: إن فيه لمعتبراً، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بنى، وإذا كل شيء منه قد تغير من العذاب والضرب، وإذا هو في قشاش، فقلت له: الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك بأنفك من غير غبار، وأنت في حالتك هذه، فكيف صبرك اليوم؟ فقال: ممن أنت؟ قلت: من بني مرة بن عباد.

قال: ألا أحدثك حديثاً عسى أن ينفعك الله به؟ قلت: هات، قال: حدثني أبو بردة، عن أبي موسى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». قال: وقرأ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠] .

القصة الثامنة
كان ابن تيمية في أول أمره يحسن الظن بابن عربي

كنت أقرأ في كتاب: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» [١/١٥٧] فلفت نظري ما ذكره المؤلف عن الشيخ العلاّمة ابن تيمية رحمه الله تعالى، من أنه كان يُحسن الظن بابن عربي الصوفي صاحب الفتوحات، ثمّ إنه عرف بعد ذلك حقيقته وحاله، ونقل عنه قوله: «وأنا كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه، لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من الفتوحات، والكنه، والمحكم المربوط، والدرة الفاخرة، ومطالع النجوم، ونحو ذلك، ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع الفصوص ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا، فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي وحقيقة هؤلاء وجب البيان» [مجموع الفتاوى:٢/ ٤٦٤].

وحضر الشيخ مرة مع الصوفية، وأقاموا سماعاً، لكنه لم يشاركهم، يقول: «وكنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة، فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة، فبتنا بمكان، وأرادوا أن يقيموا سماعاً وأن أحضر معهم، فامتنعت من ذلك، فجعلوا لي مكاناً منفرداً قعدت فيه، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال، صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده، ويقول: يا فلان قد جاءك نصيب عظيم، تعال خذ نصيبك» .

فقلت في نفسي - ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا -: أنتم في حل من هذا النصيب، فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبدالله فإني لا آكل منه شيئاً، وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين، وكان فيهم من هو سكران بالخمر» [مجموع الفتاوى:١٠/٤١٨].

وهذه القصة كانت في أوائل عمره، وهنا يلحظ حرص هؤلاء الصوفية عليه لإدخاله في زمرتهم، لكن موقفه القوي، ووضوح العقيدة عنده ومعرفته بأحوالهم يدل على وعي مبكر بحال هذه الطائفة المنحرفة، ولذلك استمر في موقفه منها، ورد عليها، وفضح دعاتها، كما حدث له في مسألة «حلول الحوادث – الصفات الاختيارية لله تعالى – ومسألة الزيارة البدعية والشرعية ما يذكره بقوله: «ولكن هذه المسألة [أي حلول الحوادث] ومسألة الزيارة وغيرهما حدث من المتأخرين فيها شبه، أنا وغيري كنا على مذهب الآباء في ذلك، نقول في الأصلين بقول أهل البدع، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فكان الواجب هو اتباع الرسول، وأن لا نكون ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان:٢١]. وقد قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف:٢٤]...» [جامع الرسائل:٢/٥٦، مجموعة الفتاوي:٦/٢٥٨]، بل يذكر أنه صنف منسكاً ذكر فيه استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها ثم تبين له أن ذلك بدعة، يقول: «وقد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها، كنت قد كتبتها في منسك كتبته قبل أن أحج في أول عمري، لبعض الشيوخ جمعته من كلام العلماء، ثم تبين لنا أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة، وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئاً من ذلك، وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك، وأن

المسجد الحرام هو المسجد الذي شرع لنا قصده للصلاة والدعاء والطواف وغير ذلك من العبادات» [اقتضاء الصراط المستقيم:٢/ ٨٠٢].

فهذه المواقف له تدل على المنهل الأصيل الذي انطلق منه، متبعاً للكتاب والسنّة، ولو كان ذلك فيه مخالفة لما كان عليه الآباء والأجداد، أو ما يترسمه الشيوخ والعلماء والقضاة، فالحق أحق أن يُتَّبع، والأمور لا توزن بكلام الناس وما اعتادوه – ولو كانوا علماء فضلاء – وإنما توزن بميزان الحق والعدل المبني على الشرع المنزّل.

❊ ❊ ❊

القصة التاسعة
الحافظ الفذ محمد بن إسماعيل البخاري

يهب الخالق لبعض عباده حافظة ينطبع فيها كل ما سمعه وقرأه، ومن هؤلاء الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وقد اختبره علماء بغداد في حفظه، قال ابن حجر العسقلاني في كتابه [هدي الساري:ص٦٧٩]: «قدم محمد بن إسماعيل البخاري بغداد فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا، وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا، وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين.

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ، والبخاري يقول: لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون، فهم الرجل، ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ.

ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال: لا أعرفه فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه.

فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول، فقال: أما حديثك الأول، فقلت كذا، وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتم على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرّ الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل» .

قال ابن حجر معقباً على هذه الواقعة: «هنا يخضع للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظاً، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة، وروينا عن أبي بكر الكلوذاني قال: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلم فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث من مرة واحدة، وقد سبق ما حكاه حاشد بن إسماعيل في أيام طلبهم بالبصرة معه، وكونه كان يحفظ ما يسمع ولا يكتب، وقال أبو الأزهر: كان بسمرقند أربعمائة محدث، فتجمعوا وأحبوا أن يغالطوا محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد العراق في إسناد الشام، وإسناد الحرم في إسناد اليمن، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلقوا عليه بسقطة» .

* * *

القصة العاشرة

الحافظ علي بن عمر بن أحمد الشهير بالدارقطني

ومن علمائنا الحفّاظ على ما ذكره ابن كثير [البداية والنهاية:١١/ ٣١٧] الدارقطني، وهو علي بن عمر بن أحمد، ومما يدل على قوة حافظته أنه كان في مجلس إسماعيل الصفار، وهو يملي على الناس الأحاديث، والدارقطني ينسخ في جزء حديث، فقال له بعض المحدثين في أثناء المجلس: إن سماعك لا يصح وأنت تنسخ، فقال الدارقطني: فهمي للإملاء أحسن من فهمك وأحضر، ثم قال له ذلك الرجل: أتحفظ كم أملى حديثاً؟ فقال: إنه أملى ثمانية عشر حديثاً إلى الآن، والحديث الأول منها عن فلان عن فلان، ثم ساقها كلها بأسانيدها وألفاظها لم يخرم منها شيئاً، فتعجب الناس منه. وقال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري: لم ير الدارقطني مثل نفسه. وقال ابن الجوزي: وقد اجتمع له مع معرفة الحديث والعلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر الإمامةُ والعدالة، وصحة العقيدة.

* * *

القصة الحادية عشرة
حفظ الإمام محمد بن عيسى الترمذي

ومن الأئمة الحفاظ الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، فإنه كان يضرب به المثل في الحفظ، قال الإدريسي: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن الحارث المروزي الفقيه يقول: سمعت أحمد بن عبدالله أبا داود المروزي يقول: سمعت أبا عيسى محمد بن عيسى الحافظ يقول: كنت في طريق مكة، وكنت قد كتبت جزءين من أحاديث شيخٍ، فمرّ بنا ذلك الشيخ، فسألت عنه؟ فقالوا: فلان، فذهبت إليه، وأنا أظن أن الجزءين معي، وحملت معي في محملي جزءين كنت أظن أنهما الجزءان اللذان له، فلما ظفرت به، وسألته أجابني إلى ذلك، أخذت الجزءين فإذا هما بياض، فتحيّرت، فجعل الشيخ يقرأ عليّ من حفظه، ثم ينظر إليّ، فرأى البياض في يدي، فقال: أما تستحي مني؟! قلت: لا، وقصصت عليه القصة، وقلت: أحفظه كله، فقال: اقرأ، فقرأت جميع ما قرأ عليّ على الولاء، فلم يصدّقني.

وقال: استظهرتَ قبل أن تجيء! فقلت: حدِّثني بغيره، فقرأ عليّ أربعين حديثاً من غرائب حديثه، ثم قال: هاتِ اقرأ، فقرأت عليه من أوله إلى آخره كما قرأ، فما أخطأت في حرفٍ! فقال لي: ما رأيت مثلك!!» [انظر مقدمة الترمذي للشيخ أحمد شاكر: ١/ ٨٤].

* * *

القصة الثانية عشرة
اليهود يكذبون على العلاّمة الأمير الصنعاني

آذى اليهود رسولنا ﷺ وأصحابه بعد هجرته إلى المدينة، فقاتلهم مرة بعد أخرى، ولم يزل هذا دأبهم حتى يومنا هذا، وهذه واقعة في أرض اليمن في زمن الشيخ العلاّمة محمد الأمير صاحب كتاب (سبل السلام) فقد قبض في تلك الأيام على سكران، وهو يحاول ارتكاب فاحشة، فغضب الإمام، وطلب سالماً العراقي كبير اليهود وشيخهم، وقال له: قد منعنا اليهود عن بيع الخمر من المسلمين، وها أنت مرخص لهم ببيعه، فأجاب اليهودي: قد أفتانا السيد محمد الأمير والسيد الحسن بن إسحاق بجواز بيعه من المسلمين، (وكأنه لقن هذا الجواب من بعض حساد البدر) فلما بلغ البدر جواب اليهودي دخل على المتوكل، وقال له: بلغني ما قاله اليهودي، وقد كذب عليّ، فأحضِرْه الآن لتعرف حقيقة كذبه، وتعرف ما قد فعله اليهود مما يخالف عهودهم، ومنها الإكثار من الكنائس. فاستدعاه الإمام وظهر كذبه على السيد البدر، فأمر به إلى السجن، ثم ناصح السيد البدر الإمامَ المتوكل بوجوب إخراج اليهود من اليمن، لأنها من جزيرة العرب، أو على الأقل أن يزال ما أحدثوه بلا حق من كنائس جديدة لم تكن لهم، وقد ظهر من هذه الحادثة أن لليهود أنصاراً من أعيان المسلمين ينتفعون منهم، ويدافعون عنهم. [العدة على إحكام الأحكام:١/ ٣٣].

❋ ❋ ❋

القصة الثالثة عشرة
القاسمي يؤرخ لتدوين أحد مؤلفاته

من لطائف ما يذكره أهل العلم مسارهم في تأليف كتاب دوّنوه، وقد فعل ذلك جمال الدين القاسمي في خاتمة كتابه [قواعد التحديث:ص٤٠٨]، فإنه قال في تلك الخاتمة: «يقول جامعه: كانت البداءة في تصنيفه في إحدى الجماديين عام (١٣٢٠هـ)، ولما تم ترتيبه شرعت في تبييضه ليلة العشر الأخير من رمضان من العام المذكور، في السدة اليمنى العلياء من حرم جامع السنانية في دمشق الفيحاء، ثم صحبته في رحلتي القدسية في أواخر المحرم، وبيضت جانباً كبيراً من آخره في عمان البلقاء، أيام مسيري إلى القدس منها، وإقامتي بها عشرة أيام من أوائل صفر، إلى أن كملت نسخاً وتبييضاً بعونه تعالى صباح الخميس، لخمس بقين من صفر المذكور عام (١٣٢١هـ) في المسجد الأقصى، داخل حرمه الشريف، أيام إقامتي في حجرته القبلية، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، قاله بفمه، ورقمه بقلمه، العبد الذليل الضعيف، أفقر الورى لرحمة مولاه، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر القاسمي الدمشقي، غفر الله له ولوالديه، ولأسلافه وأشياخه وأولاده ومحبيه ولجميع المؤمنين، والحمد لله رب العالمين» .

ثم جاء تحت هذه العبارة بالحبر الأحمر: «بحمده تعالى تم مقابلة على أصلي، وكتبه مؤلفه جمال الدين في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٤هـ» .

القصة الرابعة عشرة
والله لا أحقرن بعدك أحداً

قال محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في كتابه [الفكر السامي:٢/ ٤٠] في ترجمته لداود الظاهري: «حكى داود الظاهري قال: حضر مجلسي أبو يعقوب الشريطي من أهل البصرة وعليه خرقتان، فتصدر، وجلس إلى جانبي من غير أن يرفعه أحد، وقال لي: سل يا فتى عما بدا لك، فكأني غضبت منه، فقلت له مستهزئاً: أسألك عن الحجامة، فبرك أبو يعقوب، ثم روى طريق «أفطر الحاجم والمحجوم» ومن أرسله ومن أسنده، ومن وقفه، ومن ذهب إليه من الفقهاء.

ثم روى طريق احتجام رسول الله ﷺ وإعطاء الحجام أجره، ولو كان حراماً، لم يعطه، ثم روى طرق أن النبي ﷺ احتجم بقرن، وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل «ما مررت بملإٍ من الملائكة» ومثل «شفاء أمتي في ثلاث» وما أشبه ذلك، وذكر الأحاديث الضعيفة، مثل قوله عليه السلام : «لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا».

ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب في الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيه، ثم ختم كلامه بأن قال: وأول ما خرجت الحجامة من أصفهان، فقلت: والله لا أحقرن بعد أحداً». نقله ابن خلكان .

* * *

القصة الخامسة عشرة
فكيف بك يا هارون إذا نادى المنادي من قبله احشروا الظلمة

«ذكر الإمام ابن بليان والغزالي وغيرهما أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري، فإنه لم يأته، وكان بينه وبينه صحبة، فشق عليه ذلك، فكتب إليه الرشيد كتاباً يقول فيه: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري، أما بعد يا أخي، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أصرم فيها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة وأتم الإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى لأتيتك، ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المحبة.

وإنه لم يبق أحد من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال، وأعطيتهم المواهب السنيّة ما فرحت به نفسي، وقرّت به عيني، وقد استبطأتك، وقد كتبت كتاباً مني إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك، وقد علمت يا أبا عبدالله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل، ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني، وأمره بإيصاله إليه، وأن يحصى عليه بسمعه وقلبه دقيق أمره وجليله، ليخبره به.

قال عباد: فانطلقت إلى الكوفة، فوجدت سفيان في مسجده، فلما رآني على بُعد قام، وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك

اللهم من طارق يطرق إلا بخير، قال: فنزلت عن فرسي بباب المسجد، فقام يصلي، ولم يكن وقت صلاة، فدخلت، وسلّمت، فما رفع أحد من جلسائه رأسه إليّ، قال: فبقيت واقفاً، وما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد، وتباعد منه، كأنه حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد وسلم، وأدخل يده في كمه، وأخذه وقلبه بيده، ورماه إلى من كان خلفه، وقال: ليقرأه بعضكم، فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسّه ظالم بيده.

قال عباد: فمدّ بعضهم يده إليه، وهو يرتعد كأنه حية تنهشه، ثم قرأه، فجعل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا للظالم على ظهره، فقيل له: يا أبا عبدالله، إنه خليفة، فلو كتبت إليه في بياض نقي لكان أحسن، فقال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام، فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم بيده عندنا، فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب إليه؟

قال: اكتبوا له: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، من العبد الميت سفيان إلى العبد المغرور بالآمال هارون الذي سلب حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن، أما بعد: فإني كتبت إليك أعلمك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودّك، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلته، وأنت ناء عني، حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك، فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل.

يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله،

وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم يعني العاملين؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك.

فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يديك الحكم العدل، فاتق الله في نفسك، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً، وللظالمين إماماً.

يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستوراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس، ولا ينصفون، ويشربون الخمر، ويحدّون الشارب ويزنون، ويحدون الزاني، ويسرقون، ويقطعون السارق ويقتلون، ويقتلون القاتل، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قِبَل الله: احشروا الظلمة وأعوانهم، فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك، وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار؟ .

وكأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته.

واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته. وإياك ثم إياك أن تكتب إلي بعد هذا، فإني لا أجيبك والسلام.

وألقى الكتاب منشوراً من غير طي، ولا ختم فأخذته، وأقبلت به إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة بقلبي، فناديت: يا أهل الكوفة، من يشتري

رجلاً هرب إلى الله، فأقبلوا إليّ بالدراهم والدنانير، فقلت: لا حاجة لي بالمال، ولكن جبة صوف، وعباءة قطوانية، فأتيت بذلك، فنزعت ما كان عليّ من الثياب التي كنت أجالس بها أمير المؤمنين، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي إلى أن أتيت باب الرشيد حافياً راجلاً، فهزأ بي من كان على الباب، ثم استؤذن لي، فلما رآني على تلك الحالة، قام وقعد، وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو بالويل والحرب، ويقول: انتفع الرسول، وخاب المرسل، ما لي وللدنيا، والملك يزول عني سريعاً، فألقيت الكتاب إليه مثل ما دُفع إليّ، فأقبل يقرؤه ودموعه تتحدر على وجهه، وهو يشهق، فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، قد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه، فأثقلته بالحديد، وضيقت عليه السجن، فجعلته عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه، يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي والله حقاً من جالستموه، إن سفيان أمة وحدة.

ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه دبر كل صلاة، ويبكي حتى توفي رحمه الله تعالى. [مجموعة الرسائل المنيرية:٤/ ٥٧].

* * *

القصة السادسة عشرة

غيرتم دين الأمة وقتلتم الصالحين وأطفأتم نور الألوهية

كان المعز الفاطمي جباراً طاغية، وذكر ابن كثير في [البداية والنهاية:١١/ ٢٨٤] شيئاً من طغيانه وجبروته، فقال: «أحضر بين يديّ المعزّ الزاهد العابد الورع الناسك التقي أبو بكر النابلسي، فقال له المعز: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة، ورميت المصريين بسهم، فقال: ما قلت هذا، فظن أنه رجع عن قوله فقال: كيف قلت؟ قال: قلت ينبغي أن نرميكم بتسعة، ثم نرميهم بالعاشر. قال: ولم؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم.

فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء بيهودي فجعل يسلخه، وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات رحمه الله.

فكان يقال له الشهيد، وإليه يُنسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم، ولم تزل فيهم بقايا خير.

* * *

القصة السابعة عشرة
من سيرة الشيخ أمجد الزهاوي

من علماء العصر الأخير الشيخ أمجد الزهاوي رحمه الله تعالى المولود في مدينة بغداد في عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، وجدّه الأعلى الصحابي المشهور خالد ابن الوليد ﷺ.

وهو سليل أسرة معروفة بالعلم، فجدّه محمد فيضي الزهاوي بلغ به علمه إلى أن يسند إليه منصب الإفتاء في مدينة بغداد سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م. وأبوه الشيخ محمد سعيد الزهاوي اختير بعد وفاة والده مفتياً لبغداد أيضاً، كما أسند إليه عضويه محكمة الاستئناف لمدة سبع سنوات، وكان رئيس مجلس التمييز الشرعي السنّي منذ عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٨م.

ولم يكن ما حازه الشيخ أمجد وأبوه وجدّه من قبله من مناصب علمية وقضائية وراثة شكلية، وإنما تمّ ذلك لما امتازوا به من ذكاء، وعلم جم، وفقه بيِّن.

فالشيخ أمجد انطلق في مقتبل شبابه إلى الآستانة للدراسة في معاهدها العليا صحبه خمسين طالباً، منهم ابن عمه خالد الزهاوي، ونوري السعيد، وتقدم لامتحان الدخول مع خمسمائة طالب من شتى أنحاء العالم الإسلامي، نجح منهم خمسون طالباً فحسب، وكان الشيخ أمجد الزهاوي أول الناجحين.

واختار الشيخ أمجد أن يدرس في مدرسة النواب، وكانت مدة الدراسة فيها ست سنوات، وكان ترتيبه الأول في جميع سني دراسته، وتخرج بدرجة امتياز

مرتفع، وكانت تدعى درجة «علي الأعلى» في تلك الأيام، ولما رفع أسماء الطلبة الناجحين في عام تخرجه، أهداه السلطان عبدالحميد وسام الشرف مع ميدالية، تقديراً لنبوغه وتفوقه، وعرض عليه أن يعين في محكمة استانبول، فشكر السلطان، وأبلغه برغبته في العودة إلى دياره في العراق.

وقد عاد إلى العراق من الآستانة وهو يحمل أعلى شهادة في عصره، ومما يدلك على ما يتحلى به الشيخ من علم وفقه ودراية أنه عُيِّن لرئاسة مجلس التمييز الشرعي السني سنة ١٩٣٣، وكان أصغر أعضاء المجلس سناً، وقد اعترف له جميع أعضاء المجلس بأهليته لتولي هذا المنصب.

لقد كان الشيخ أمجد مثالاً صادقاً لطالب العلم، فقد كان يضني نفسه في طلب العلم، ومن الأمثلة على ذلك أنه رجع من درس العلم الذي ألقاه الشيخ عباس القصاب في جامع الشيخ صندل في حي الكرخ بمدينة بغداد إلى منزله على الجهة الثانية من دجلة، فأخذ يستعيد الدرس، فأشكلت عليه مسألة من المسائل، فما كان منه إلا أن رجع إلى منزل شيخه، وهي عنه بعيدة، وكان عليه أن يقطع الجسر الخشبي المضروب على الطوافات، والرياح الشديدة تتلاعب به، وكانت الأمطار منهمرة، والوحول تغطي الطريق، فلم يثنه شيء من ذلك عن الوصول إلى شيخه ليوضح له المسألة التي أشكلت عليه.

قال الدكتور عبدالمجيد القصاب حاكياً هذه القصة عن عمّه الشيخ وكان هو أيضاً شاهداً لها: «طرق باب دارنا ففتحته، وإذا الشيخ أمجد الزهاوي ملتحفاً عباءته، وكانت تقطر ماءً، فأدخلته المجاز (مدخل الدار) وسألته: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ وكيف وصلت؟ فقال: مسألة أشكلت عليّ، أريد أن يشرحها الشيخ لي، فخرج إليه عباس، متعجباً من قدومه في هذا الوقت العصيب، فأخذ الشيخ يستعطفه، طالباً منه أن يشرح له ما خفي عليه، فلما عرض عليه الدخول أبى، فلما اتضح له ما أشكل غادر عائداً كما أتى.

كان الشيخ أمجد يديم النظر فيما يقصد إليه، ولا يلتفت إلى ما لا يعنيه، ومن أمثلة ذلك أن الشيخ أمجد صحب الشيخ فؤاد الآلوسي، ومرّا في طريقهما على شواطئ البحر في الإسكندرية، وهي مكتظة بأشباه العرايا من النساء والرجال، فلما سئل الشيخ عن تلك المناظر التي كانت على جانب الطريق الذي مروا منه، إذا به لم يرَ شيئاً من تلك الموبقات، ذلك أنه كان مستغرق التفكير فيما جاء من أجله، وقريب من هذا أنه لم يكن يبالي بالطعام والشراب، فإنه إذا لم يقدم إليه، لا يسأل عنه، كما ذكر ذلك وتحقق منه الشيخ علي الطنطاوي في سفراته معه، وكانت طويلة وكثيرة.

بل كان يؤذى، وتكال له التهم، فقد دخل عليه وهو في المدرسة السليمانية ببغداد من كال له التهم والسباب، فلم يرد عليه الشيخ، وتأثر صاحباه الشيخ عبدالقادر الخطيب والشيخ الآلوسي، فلما جاء هذا الشخص بعد أيام إلى الشيخ يعتذر إليه عما كان منه تجاه الشيخ، قال له: «ابني والله ما أذكر هذا الذي تدعيه، ابني سامحك الله» فعجب الشيخان اللذان حضرا الواقعتين.

لقد كان الشيخ جريئاً فيما يوكل إليه من قضايا، ولو كان الذين يواجههم أصحاب المُلك والسلطان، لقد أدخل العثمانيون القوانين الوضعية الغربية التي تعارض حكم الشريعة، وكان الشيخ رئيس محكمة حقوق الموصل، فطلب منه الوالي أن يحكم وفق تلك القوانين، فرفض وحكم وفق حكم الشرع.

وفي بغداد كان الشيخ رئيس محكمة التمييز، فاشتكى إليه يهوديّ الوصيَّ على العرش عبدالإله، بأنه اغتصب أرضه، فحكم للوصي، وفي التمييز توسط له بعض معارف الشيخ، ليصادق على قرار الحكم رضاءً للوصي، فقال لهم الشيخ: «لا يهمني رضاء الوصي، لكن يهمني رضاء رب الوصي».

وبعد أن درس القضية جيداً، وجد أن الحق لليهودي، فنقض قرار الحكم، وأعاد الأرض لليهودي.

وفي عام ١٩٢٤ توكل الشيخ عمن طلب تثبيت ملكية دار له في حي الكرخ اتخذتها الطائفة البهائية كعبة لهم، لأن نبي هذه الطائفة وهو بهاء الله سكن هذه الدار لما قدم بغداد، وصدر الحكم لمصلحة مالكيها، فثارت البهائية ثورة عارمة في العالم أجمع، وتدخل المندوب السامي البريطاني لدى الملك فيصل، وثار علماء المسلمين، ولم يجرؤ أحد من المحامين في ذلك الوقت على تولي الدفاع عن أصحاب الحق، فما كان من الشيخ أمجد إلا أن أخذته الحمية لدينه، وتولى الدفاع عن صاحب الدار، وأبطل دعوى البهائيين، وانتصر للحق، وأعاد الدار لأصحابها، وأرسل المرجع الديني الأعلى في النجف وفداً يحمل مالاً لشكر الشيخ، فشكرهم، ورفض أن يأخذ على ما قدّمه أجراً.

(وفي سيرة الشيخ مواقف كثيرة رائعة، فإن شئت المزيد فارجع إلى الكتاب المترجم له فيه، وهو كتاب: الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي، طبعة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

* * *

القصة الثامنة عشرة
مسألة حيرت العلماء

ذكر ابن القيم مسألة وقعت في عهد إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى حيّرت أهل العلم، والواقعة أن رجلاً تزوج امرأة، فأحبها حبّاً عظيماً، وأبغضته بغضاً شديداً، وبلغ بها بغضه أنها كانت تواجهه بالشتم والسباب، والدعاء عليه، ولا شك أنها كانت تتمنى الخلاص منه وفراقه.

وقد واتتها الفرصة عندما قال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً، لا تخاطبيني بشيء إلا خاطبتك بمثله، وكانت المرأة من النباهة أنها لم تضع وقتاً في انتهاز الفرصة، فقالت له من غير تأخير: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً، فأدهش قولها زوجها، ولم يدر ما يصنع بما قالته له.

فاستفتى أهل العلم في عصره، فكلهم قالوا له: لابد أن تطلق.

قال ابن القيم: «وقعت حادثة في أيام ابن جرير وهي: أن رجلاً تزوج امرأة فأحبها حباً شديداً، وأبغضته بغضاً شديداً، فكانت تواجهه بالشتم والدعاء عليه، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً لا تخاطبيني بشيء إلا خاطبتك بمثله، فقالت له في الحال: «أنت طالق ثلاثاً بتاتاً» ، فأبلس الرجل ولم يدر ما يصنع، فاستفتى جماعة من الفقهاء، فكلهم قال: لابد أن تطلق، فإنه إن أجابها بمثل كلامها طلقت، وإن لم يجبها حنث وطلقت، فإن بر طلقت، وإن حنث طلقت» [بدائع الفوائد:٣/ ١٥٣].

وقد ذكر ابن القيم ثلاثة أجوبة يمكن لزوجها أن يتخلص مما كادته به زوجته:

الأول: ما أجاب به ابن جرير، فقد أرشد الزوج بأن يقول لها: أنت طالق ثلاثاً إن أنا طلقتك، فإنه يكون خاطبها بمثل خطابها له، لأنه وصل الخطاب بالشرط.

الثاني: أن يقول لها: أنت طالق ثلاثاً، وهذا خطاب تذكير، ولا يقع به الطلاق، وهذا جواب ابن عقيل رحمه الله تعالى.

الثالث: وهو اختيار ابن القيم، وهو يرى أنه أحسن من الجوابين السابقين، وهو أنه لا يلزمه أن يخاطبها بمثل كلامها، لأن كلامه معها أولاً أنها لا تكلمه بشتم أو سبٍّ أو دعاء، أو ما كان من هذا الباب إلا كلمها بمثله، أما إذا كلمته بغير هذا الكلام، كأن تطلب منه شراء مقنعة أو ثوباً أن يقول لها بمثل كلامها له.

* * *

القصة التاسعة عشرة
الزهاوي مع عبدالكريم قاسم

قال تلميذ الشيخ أمجد الزهاوي الدكتور طه العلواني في مقدمة كتاب ترجم للشيخ أمجد [ص:٨]: «وأذكر موقفاً آخر للشيخ أمجد الزهاوي تشرفت بمرافقته فيه، وهو موقفه – رحمه الله – من عبدالكريم قاسم وحديثه معه، بمناسبة اعتقال الإمام الخالصي إمام أهل الكاظمية، فلقد هاجم الإمام الخالصي عبدالكريم قاسم وحكومته في خطبة عامة بعد أن أصدر عبدالكريم قانون الأحوال الشخصية، وفي هذا القانون مخالفات لأحكام شرعية كثيرة، أهمها وأبرزها أن إحدى المواد نصت على قول: «للذكر مثل حظ الأنثى» وذلك بدلاً من قوله تعالى: ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١،١٧٦] وكان مجرد التعبير بهذا الشكل يشتمل على نوع من الجرأة على الله – جلّ شأنه – أغضبت العلماء إغضاباً شديداً، فبعضهم استنكر عن طريق المذكرات والرسائل، وبعضهم ألقى خطاباً معبراً عن معارضته لهذا القانون، مطالباً بالرجوع عنه وتغييره.

أما الشيخ الخالصي فقد هاجم عبدالكريم هجوماً شخصياً شديداً، وهاجم حكومته هجوماً عنيفاً مما حمل عبدالكريم على الإيعاز باعتقاله، وتمّ ذلك، وقد كان هذا النوع من العلماء إذا اضطرت الحكومة إلى اتخاذ إجراء ما ضد أحد منهم، فإنها قد تقوم بفرض الإقامة الجبرية عليهم في بيوتهم، أما هذه المرة فقد تجرأت الحكومة على اعتقال الشيخ الخالصي في سجن الأمن العام.

فاستطاع الشهيد عبدالعزيز البدري أن يقنع الشيخ الزهاوي ومجموعة من علماء السنّة بوجوب الاحتجاج والدفاع عن الشيخ الخالصي، ولما فعلوا ذلك وأبرقوا إلى عبدالكريم بمضمون احتجاجهم غضب عبدالكريم قاسم، وأمر مدير الأمن العام باستدعاء الشيخ ومجموعة من كبار المشايخ أمثال فؤاد الآلوسي وعبدالقادر الخطيب وغيرهم، وشرح الملابسات والظروف التي أدت إلى اعتقال الخالصي، واستعراض هيبة الدولة أمامهم، مع التأكيد بأن أي أحد يتجرأ على الدولة وهيبتها فإن الدولة على أتم استعداد لاتخاذ أقصى الإجراءات ضده بقطع النظر عن وضعه وصفته ومكانته، فذلك كله لا يلتفت إليه عندهم.

وقد فعل مدير الأمن العام عبدالمجيد جليل ما أمر به، وكانت إساءة بالغة لهؤلاء العلماء الذين لم يدخل بعضهم طوال حياته كلها مركزاً من مراكز الشرطة، ولم يواجه أي موقف مماثل لهذا الموقف.

فالعالِم قد يحتج على تصرف من تصرفات الحاكم، وقد يشجب بطريقة من الطرق بعض سياساته، لكنه ما دام لم يرفع بوجه الحاكم سلاحاً، ولم يحرض الجماهير على العصيان والتمرد عليه، فإن الحاكم كثيراً ما يلاين ويلاطف ويبدي حُسْن النية والاستعداد لتصحيح الأوضاع، وقبول النصح، وكان أهل الحنكة والحكمة من السياسيين كثيراً ما يواجهون مواقف العلماء بمثل تلك المرونة إلا إذا تجاوزوا القول إلى الحركة والتحريض؛ ولذلك فقد كان لدى العلماء نوع من الشعور بحصانة عرفية، بل ربما كانت الظروف في العهد الملكي تدفع النظام ورجاله إلى مزيد من الاتزان في التعامل مع علماء المؤسسات الدينية رغم تهميش دورهم وفاعليتهم في المجتمع، ومحاصرة المؤسسات ذات العلاقة بهم، وحصر دورها في أضيق الحدود، ولذلك فقد كانت المحافظة على شيء من المكانة لبعض العلماء أمراً ممكناً في ظل ذلك العهد.

أما بعد انقلاب «١٤ تموز» العسكري فقد تغيّرت الأحوال، فالعسكريون الذين تربوا في جيوش ما بعد قيام «الدولة القطرية» لم يكونوا كالعسكريين الذين تربوا في ظل الدولة العثمانية، وما كان سائداً فيها من أعراف وقيم، بل لقد اختلف العسكريون الذين نشؤوا في ظل الدولة العثمانية حين كانت عثمانية الاتجاه عن العسكريين الذين نشؤوا في ظل الدولة بعد بروز سياسة الاتحاد والترقي، وما عُرف عنها من سياسات التتريك وسواه، ولذلك فقد مثّل تسلم هذا النوع من العسكريين لزمام الأمور انعطافاً خطيراً كان له ما بعده.

وكان شيخنا الزهاوي يتحرق ألماً لما يحدث، ولا يتردد في شجب الأوضاع في كل مناسبة والتحريض على الصمود في وجهها، وعدم الركون إلى الدعة أو الراحة حتى تزول، وكان يعمل على تثبيت الشباب المسلم، والتأكيد عليهم بأنها فترة عابرة لن تلبث أن تزول إن شاء الله، وزال «المد الأحمر» وعمل عبدالكريم قاسم على تقليص نفوذ الشيوعيين واليساريين من جديد بعد أن اطمأن إلى أن حالة الانقسام الداخلي التي هيّأ لها قد جعلت من الشعب معسكرين يستطيع موازنة قوائم حكمه بينهما أو عليهما، وصارت مهمته تتلخص بالعمل على إيجاد التوازن بينهما، فكلما ضعف أحد المعسكرين أفسح له من المجالات، ما يسمح له بأن يستعيد بعض قواه لئلا ينهار أو يتلاشى.

ومع أن علماء السنّة – بالذات – كانوا موظفين لدى إدارة الأوقاف وهي مؤسسة حكومية، لكن ذلك لم يمنع الكثيرين منهم أن يحافظوا على إحساسهم بمكانتهم ودورهم وأهميته ومسؤوليتهم أمام الله عنه، صحيح أن هؤلاء قلائل، لكن شيخنا الزهاوي كان أبرزهم، فلم تكن تسنح له فرصة ما لأداء هذا الدور إلا وأدّاه كأي عالِم عابد زاهد من رجال السلف والصدر الأول.

وقد سنحت الفرصة لموقف مع عبدالكريم قاسم الذي استطاع أن يملأ قلوب جلّ العراقيين رعباً آنذاك، لكن شيخنا كان من بين أولئك القلائل الذين

لم تستطع مهابة الخلق أن تلج قلوبهم، وإذا كان من جاؤوا بعد عبدالكريم قد تجاوزوه في الإرهاب بمراحل لكن ذلك لا يعني أن عهده كان خالياً من ذلك، إن المصائب حين تتعاظم وتتوالى قد ينسي بعضها بعضاً، وقد تجعل الإنسان يقول: «حنانيك بعض الشر أهون من بعض» ، ولكن الذين عاشوا تلك الفترة يعرفون أن الناس قد عانوا من ضروب الإرهاب كثيراً.

وذات يوم ذهبت لزيارة شيخي الشيخ محمد فؤاد الآلوسي في «جامع مرجان» ، وما إن جلست إليه قليلاً في مدرسته «المرجانية» حتى بدا لي وكأن عمره قد تضاعف، وظهر كما لو كانت الهموم قد تراكمت عليه، فسألته عما به، فقصّ عليّ قصة اعتقال الإمام الخالصي وبرقية الاحتجاج التي أرسلوها بعد أن عجزوا عن مقابلة عبدالكريم قاسم، أو الحاكم العسكري العام أحمد صالح العبدي، واستدعائهم بواسطة الشرطة إلى الأمن العام، وحديث مدير الأمن معهم، والحزن والمرارة التي يشعر بها نتيجة لذلك كله، وأردف قائلاً: كان يمكن أن يكون إحساسي بالمهانة أقل لو أن الموقف اقتصر عليّ وعلى أمثالي.

لكن أن يتطاولوا على الشيخ أمجد، فيستدعونه إلى الأمن العام بسيارة شرطة، وكأنه مجرم فذلك يعني أن هؤلاء بلغت بهم الجرأة على الله وعلى عباده العلماء أقصى حد، ولو أنني وجدت سبيلاً إلى الهجرة لما تأخرت، أو الانتصاف منهم لفعلت، ولكن لا سبيل لشيء من ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فحاولت تطييب خاطره، والتخفيف عنه، وذكرت له أن ذلك قدر أهل العلم، واستعرضت له كثيراً من أسماء العلماء الذين امتُحنوا، وأشرت إلى بعض علماء القرن السابق من العراقيين الذين اضطرتهم مظالم السلطة إلى الهجرة إلى نجد وغيرها وهم كثير، كما ذكرته بمواقف الأدباء الذين يصل بهم الحال إلى حد إعلان السخط أو التنكر للبلد الذي وُلدوا فيه، ونشؤوا على حبّه، وتفيؤوا ظلال الحياة فيه عقوداً من السنين.

حتى إذا شعرت أن قد زايله ما كان يجد أو بعضه بدأت أقلب معه جوانب الأمر، وكيف يمكن أن تصان كرامة العلماء، وأن لا يتكرر ما حدث، واتفقنا على أن أبذل جهدي على تدبير لقاء بينهم وبين عبدالكريم قاسم على أن لا يشترك فيه من العلماء إلا ثلاثة، هم: الشيخ الزهاوي، والشيخ عبدالقادر الخطيب، والشيخ الآلوسي نفسه، لكي يكون الحديث معه قوياً وصريحاً يستطيع عبدالكريم قاسم أن يدرك منه مدى تأثر العلماء لما حدث، ورفضهم أن يعود لمثل هذا الإجراء، ومطالبته بإقالة مدير الأمن العام إذا كان قد تصرف بنفسه، أو اعتذار عبدالكريم قاسم بنفسه منهم إذا كان مدير الأمن قد تصرف بناءً على أوامر.

وذكر أسماء بعض العلماء الذين لا يريد لهم أن يشاركوا في هذا اللقاء خشية أن يلينوا أو يضعفوا، ثم ودعته وانصرفت، وقد يسّر الله – تعالى – فوفّقت في مساعيَ لتدبير هذا اللقاء الذي تم بعد يومين من بدء السعي لتدبيره، وذلك بمساعدة السكرتير الصحفي لعبدالكريم قاسم الرائد سعيد الدوري.

وحين وصل المشايخ الثلاثة وبرفقتهم الفقير إليه تعالى استقبلنا المقدم قاسم الجنابي مرافق عبدالكريم قاسم، وقادنا إلى مكتبه، وما هي إلا لحظات حتى دخل عبدالكريم قاسم فحيّا الجميع وجلس، ثم كرّر ترحيبه بالمشايخ، وأعرب عن سروره بوجوده معهم في هذه الليلة بالذات لمساعدته في اختيار نسخة من بين عدد كبير من مخطوطات القرآن العظيم الثمينة التي أمر بجمعها لاختيار نسخة من بينها تطبع بنفقة الحكومة العراقية، وتوزع في سائر أنحاء العالم ليكون هدية العراق الثمينة إلى الأمة والعالم الإسلامي.

فرد الشيخ محمد فؤاد الآلوسي مباشرة عليه، بقوله: «إن المصاحف كثيرة جداً، وليس المهم طباعة المصحف، بل المهم تطبيقه؛ فماذا يفيد البلاد والعباد أن

تُطبع آلاف المصاحف إذا لم تطبق أحكام القرآن وتعاليمه؟» . فوجم الجميع، وشعر شيخي الآلوسي بأنه قد استعجل أمراً كان له فيه أناة، وأحس بالتأثر الذي بدا على وجه عبدالكريم قاسم.

فالتفت الشيخ الآلوسي إليه مبتسماً، وقال: أتدري أنني أعرفك منذ زمن بعيد حين كنت برتبة مقدم أو عقيد، وقبل أن تقوم الثورة؟ فنظر عبدالكريم إليه محاولاً أن يتذكر!! فقال له الشيخ الآلوسي: لم أقصد أنه قد حدث بيننا لقاء في الماضي، بل أقصد أعرفك من خلال ما سمعته عنك من بعض المتعاونين معك، فأنا أعرف أنك كنت توصي ضابط الحسابات لديكم بأن يأخذ من مرتبك شهرياً ربعه - قبل تسليم المرتب إليك - ويوزعه على فقراء باب الشيخ بنفسه، وأنك توزع ربعاً آخر منه على الفقراء من أقاربك، وتكتفي بنصف مرتبك، وهذا لا أعرف ضابطاً آخر يفعله - الآن - حتى أولئك المشهورين بتديّنهم، فانفرجت أسارير عبدالكريم.

ثم دعا الجميع إلى الانتقال إلى غرفة الاجتماع المجاورة، وما إن دخلنا حتى وجدنا على الطاولة مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة، فقال عبدالكريم: هذه هي المصاحف التي انحصر الاختيار فيها ومن بينها نريد اختيار «المصحف العراقي» .

فأخذ الشيخ عبدالقادر يستعرض النسخ المعروضة، ويقدمها لينظر فيها الشيخان الزهاوي والآلوسي، ثم أشاروا بواحدة منها، ثم جلس الجميع حول الطاولة، وبدأ الشيخ الزهاوي - رحمه الله - الحديث، فكان حديثاً من العسير أن نجد له مثيلاً في حوارات العلماء مع الحكام أو في نصائحهم أو مواعظهم لهم، ولو أن الحديث كان قد سُجِّل لكان تحفة علمية أدبية، ولأمكن إخراج كتاب قيّم منه في «أدب النصيحة» نصيحة العالِم للحاكم، أو مواعظ العلماء للحكام.

لقد اطلعت على العديد من النصائح المنسوبة إلى كبار العلماء كالنصيحة المنسوبة للإمام مالك – التي ذكر أنه وجهها إلى الرشيد، وكذلك النصيحة المنسوبة إلى سفيان الثوري يخاطب بها الرشيد كذلك.

وقرأت من مواعظ العلماء للحكام عدداً كبيراً لكنني لم أجد في شيء من ذلك ما وجدته في حوار شيخنا الزهاوي لعبدالكريم قاسم، والحق: أنه لم يكن حواراً، بل كان درساً تعليمياً على أعلى مستوى لعبدالكريم من عالِم يعرف كيف يجمع بين نور القرآن الكريم، وحكمة السنّة النبوية المشرفة، ولطائف الأمثلة السائرة وطرائف الأخبار التاريخية وعيون الشعر الحكمي وعبر ودروس الأحداث والمواقف، فلأول مرة في حياة عبدالكريم قاسم ولآخر مرة – على ما أظن – يجلس ما يقرب من ثلاث ساعات متصلة يستمع لحديث لم ينقطع، متسلسل في أفكاره، متصل في محاوره، شيّق في مقاطعه ومراحله، بحيث لم يستطع عبدالكريم أن يقاطعه ولو مرة واحدة، حتى وهو يحلل بعض المواقف العسكرية والسياسية التاريخية أو المعاصرة بطريقة لم يألفها عبدالكريم ضابط الركن المحترف.

ولم يكن أحد في الحاضرين – ومنهم عبدالكريم – يتمنى أكثر من أن يستمر الشيخ في ذلك العرض الرائع، ولم نعرف أن حديث الشيخ قد أوشك على الانتهاء إلا حين قال الشيخ – رحمه الله – لعبدالكريم قاسم: «أفندي: أنا أظن أن الحجاج كان أعقل منك...» .

فانتفض عبدالكريم انتفاضة السليم، فواصل الشيخ: أتدري لماذا؟ قال: لا، قال الشيخ: لقد كان الحسن البصريّ معروفاً ببلاغته وفصاحته وتأثير مواعظه وخطبه، كان كثيراً ما يندد بتصرفات الحجاج على المنبر، فقيل للحجاج: ما الذي يجعلك تترك الحسن البصري يصول ويجول، وهو ينتقدك، وقد تقتل غيره بأقل من ذلك بكثير، وقد قتلت سعيد بن جبير من غير أن يقول فيك شيئاً مما قاله الحسن!! .

فقال الحجاج: ويحكم، الحسن لا يملك إلا لسانه، والناس يسمعون عن ظلمي وإسرافي في الدماء، لكنهم إذا سمعوا الحسن وما يقول، ورأوا صبري عليه واحتمالي له، فإنهم قد يكذبون كل ما قيل لهم فيّ.

أما أولئك الذين لا يقولون مثل ما يقول الحسن، ولا شيئاً مما يقول: ولكنهم لا يترددون في الانضمام إلى أي ثائر على أمير المؤمنين لو واتتهم الفرصة، فإن هؤلاء مكمن الداء ومصدر الخطر.

وأنا أقول لك أفندي: إنه لا خطر على كرسيك من الشيخ الخالصيّ، ولا مني، ولا من جميع المشايخ والعلماء والخطباء، حتى لو اجتمعوا على ذمّك وسبّك، ولكن مصدر الخطر عليك هؤلاء (وأشار إلى مرافقي عبدالكريم الواقفين خلفه)، فهؤلاء يحملون السلاح، ويرون ما أنت فيه، وقد يغبطونك على ما أنت فيه من سلطان، ويتمنون لو استأثروا به دونك، فابتسم الجميع لكن عبدالكريم قبل أن يرد على الشيخ بكلمة واحدة مدّ يده إلى الهاتف، وطلب مدير الأمن العام، ولم يقل لمحدثه على الخط الثاني أكثر من: «... عبدالمجيد خذ الخالصي إلى منزله الآن خبرني» وأعاد السماعة إلى موضعها.

وعاد يستمع إلى الشيخ الذي واصل في شرح وبيان الأمور التي تساعد على تهيئة الحاكم للسقوط وتباعد بينه وبين شعبه، ولما ظن الشيخ عبدالقادر الخطيب أن الشيخ أمجد قد فرغ، وأن مهمة إطلاق سراح الشيخ الخالصي قد تمت، بدأ يتحدث عن الدراسات والمدارس الدينية، وتخلفها عن زميلاتها، وضرورة العناية بها، فرحب عبدالكريم بتنفيذ أية خطة أو مقترحات، وطلب إعداد دراسة كاملة حول سائر الشؤون التي يرغبون اقتراحها، وأنه سيقوم بتنفيذها فوراً.

ثم دعا الجميع لتناول الطعام على مائدته، قال له الشيخ: أفندي، نحن في وقت متأخر من الليل، ووراءنا صلاة صبح، ولم نتعود الأكل في هذه الساعة،

فأصر عبدالكريم مؤكداً أن هذا الطعام ليس من مال الدولة، بل هو طعام دُفع ثمنه من مرتبه كضابط لا كرئيس وزراء، لأنه رفض أن يتقاضى طوال فترة حكمه مرتباً أكثر مما يستحقه كضابط، فأصر الشيخ على الاعتذار، فاقترح أن يخرجوا معه لتفقد بعض المشاريع كعادته في جولاته الليلية، فاعتذروا، فنزل معهم إلى السيارة، وأمر سائقه أن يأخذهم بسيارته الخاصة إلى منازلهم، وطلب مني مرافقتهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل بقي عبدالكريم بعد ذلك أسبوعاً يلوم مرافقيه لوماً شديداً أنهم لم يعرفوه بهذا النوع من العلماء طوال فترة حكمه، ويؤكد أنه لو عرف هؤلاء من قبل لأخذت الأمور مجرى آخر، وقد أخبرني الرائد سعيد في حينه أن عبدالكريم قال لهم مرة بعد ذلك اللقاء: لقد أضعتم وقتي مع أناس لم يكونوا يستحقون من وقتي شيئاً، وحجبتموني وحجبتم عني أمثال هؤلاء: «إنني كنت أسمع بالشيخ الزهاوي، لكنني لم أكن أعرفه، ولو عرفته من قبل لاستفدت منه كثيراً، فهذا رجل يجب أن تفخر البلاد به، فلا أظن له نظيراً في أي بلد آخر».

أولئـك آبـائي فجـئني بمثلـهم إذا جمعتنـا يـا جريـر المجـامع»

* * *

الزمرة الثالثة

قصص الخلفاء والولاة والملوك والسلاطين

تقديم:

كان الناس ولا يزالون محتاجين إلى من تلقى إليهم أزمة الأمور، كي يلوا أمور الناس، ويحفظوا شؤونهم، والمطلوب منهم أن يقوموا على أمر الرعية، ويحكموا بينهم بالسوية.

ومن هؤلاء من يقوم بالواجب على خير وجه، ومنهم الذي يقصّر في ذلك تقصيراً كبيراً أو صغيراً، وهذه باقة من القصص تحكي طرفاً من أخبار الخلفاء والولاة والسلاطين.

القصة المتممة للعشرين

والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة

يظن بعض طلبة العلم أن الصفحات المشرقة في تاريخنا الإسلامي قليلة، وسبب ذلك قلة دراسة هذا التاريخ بعناية، فإذا ذكر الخلفاء يظن بعضهم أن الصالحين منهم عدد قليل لا يزيد على ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وسأورد هنا طرفاً من سيرة الخليفة المعتضد العباسي، ليعلم مدى كثرة الصفحات المشرقة في تاريخنا.

أورد ابن كثير في [البداية النهاية:١١/٨٦] شيئاً من سيرته، فقال: هو أحمد بن محمد بن جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس المعتضد بالله، وُلد سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائتين، وكان أسمر نحيف الجسم، معتدل القامة، بويع له بالخلافة صبيحة يوم الاثنين إحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وكان أمر الخلافة قد ضعف في أيام عمّه المعتمد، فلما ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها، وكان شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأةً وإقداماً وحرمةً، وكذلك كان أبوه.

وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة فوقف صاحبها صائحاً، مستصرخاً بالخليفة، فاستدعى به، فسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئاً من القثاء، وهم من غلمانك، فقال: أتعرفهم؟ فقال: نعم. فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على حافة الطريق، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه، وعابوا ذلك على الخليفة، وقالوا: قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه؟

فلما كان بعد قليل أمر الخواص – وهو مسامره – أن ينكر عليه ذلك، ويتلطف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور، فدخل عليه ليلة وقد عزم على ذلك، ففهم الخليفة ما في نفسه من كلام يريد أن يبديه، فقل له: إني أعرف أن في نفسك كلاماً فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، وأنا آمن؟ قال: نعم.

قلت له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء. فقال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وُلِّيت الخلافة إلا بحقه. فقلت له: فعلام قتلت أحمد ابن الطيب، وقد كان خادمك، ولم يظهر له خيانة؟ فقال: ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه، فلما دعاني إلى ذلك، قلت له: يا هذا أنا ابن

عم صاحب الشريعة، وأنا منتصب في منصبه، فأكفر حتى أكون من غير قبيلته. فقتلته على الكفر والزندقة.

فقلت له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء؟ فقال: والله ما كان هؤلاء الذين أخذوا الثقاء، وإنما كانوا لصوصاً قد قتلوا، وأخذوا المال فوجب قتلهم. فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم، وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء. وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض، ويتعدوا على الناس. ويكفوا عن الأذى، ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء، فأطلقهم بعد ما استتابهم وخلع عليهم، وردّهم إلى أرزاقهم.

قال ابن الجوزي: خرج المعتضد يوماً فعسكر بباب الشماسية، ونهى أن يأخذ أحد من بستان أحد شيئاً، فأُتي بأسود قد أخذ عذقاً من بُسرٍ، فتأمله طويلاً، ثم أمر بضرب عنقه، ثم التفت إلى الأمراء فقال: العامة ينكرون هذا، ويقولون: إن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع في ثمر ولا كثر» . ولم يكفه أن يقطع يده حتى قتله، وإني لم أقتل هذا على سرقته، وإنما هذا الأسود رجل من الزنج، كان قد استأمن في حياة أبي، وإنه تقاتل هو ورجل من المسلمين، فضرب المسلم فقطع يده فمات المسلم، فأهدر أبي دم الرجل المقتول تأليفاً للزنج، فآليت على نفسي لئن أنا قدرت عليه لأقتلنه، فما قدرت عليه إلا هذه الساعة، فقتلته بذلك الرجل. [البداية والنهاية:١١/٨٦].

* * *

القصة الحادية والعشرون
والله لولا النار والعار لقتلت هذا الغلام

قال أبو بكر الخطيب: أخبرنا محمد بن أحمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن نعيم الضبي، سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول: سمعت أبا العباس ابن سريج، يقول: سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي، يقول: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم، فلما أردت القيام أشار إليّ، فجلست ساعة، فلما خلا قال لي: أيها القاضي، والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج القاضي إسماعيل بن إسحاق قال: دخلت يوماً على المعتضد، فدفع إليّ كتاباً فقرأته، فإذا فيه الرخص من زلل العلماء، قد جمعها له بعض الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما جمع هذا زنديق. فقال: كيف؟ فقلت: إن من أباح المتعة لم يبح الغناء، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو، ومن جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر بتحريق ذلك الكتاب.

وروى الخطيب بسنده عن صافي الجرمي الخادم قال: انتهى المعتضد وأنا بين يديه إلى منزل شغب، وابنه المقتدر جعفر جالس فيه، وحوله نحو من عشرة من الوصائف، والصبيان من أصحابه في سنّه عنده، وبين يديه طبق من فضة فيه عنقود عنب، وكان العنب إذ ذاك عزيزاً، وهو يأكل عنبة واحدة، ثم يفرق على أصحابه من الصبيان كل واحد عنبة، فتركه المعتضد، وجلس ناحية في بيت مهموماً.

فقلت له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك والله لولا النار والعار لأقتلن هذا الغلام، فإنَّ في قتله صلاحاً للأمة، فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من ذلك. فقال: ويحك يا صافي هذا الغلام في غاية السخاء لما أراه يفعل مع الصبيان، فإن طباع الصبيان تأبى الكرم، وهذا في غاية الكرم، وإن الناس من بعدي لا يولون عليهم إلا من هو من ولدي، فسيلي عليهم المكتفي ثم لا تطول أيامه لعلته التي به، وهي داء الخنازير، ثم يموت فيولي الناس جعفراً هذا الغلام، فيذهب جميع أموال بيت المال إلى الحظايا لشغفه بهن، وقرب عهده من تشببه بهن، فتضيع أمور المسلمين، وتعطل الثغور، وتكثر الفتن والهرج والخوارج والشرور. قال صافي: والله لقد شاهدت ما قاله سواء بسواء. [البداية والنهاية: ١١/ ٨٧].

* * *

القصة الثانية والعشرون
ويحك يا ملعون أصدقني بقصتك مع المرأة

روى ابن الجوزي عن بعض خدم المعتضد قال: كان المعتضد يوماً نائماً وقت القائلة ونحن حول سريره، فاستيقظ مذعوراً، ثم صرخ بنا فجئنا إليه، فقال: ويحكم اذهبوا إلى دجلة، فأول سفينة تجدوها فارغة منحدرة فأتوني بملاحها، واحتفظوا بالسفينة، فذهبنا سراعاً فوجدنا ملاحاً في سُمَيرِيَّةٍ فارغة منحدراً، فأتينا به الخليفة، فلما رأى الملاح الخليفة كاد أن يتلف، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة، فكادت روح الملاح تخرج، فقال له الخليفة: ويحك يا معلون، اصدقني عن قصتك مع المرأة التي قتلتها اليوم، وإلا ضربت عنقك.

قال: فتلعثم، ثم قال: نعم يا أمير المؤمنين كنت اليوم سحراً في مشرعتي الفلانية، فنزلت امرأة لم أرَ مثلها، وعليها ثياب فاخرة، وحلي كثير وجوهر، فطمعت فيها، واحتلت عليها فشددت فاهاً وغرقتها، وأخذت جميع ما كان عليها من الحلي والقماش، وخشيت أن أرجع به إلى منزلي، فيشتهر خبرها، فأردت الذهاب به إلى واسط، فلقيني هؤلاء الخدم فأخذوني.

فقال: وأين حليها؟ فقال: في صدر السفينة تحت البواري، فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به، فإذا هو حلي كثير يساوي أموالاً كثيرة، فأمر الخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرّق فيه المرأة، وأمر أن ينادى على أهل المرأة ليحضروا حتى يتسلموا مال المرأة، فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد

وأزقتها، فحضروا بعد ثلاثة أيام، فدفع إليهم ما كان من الحلي وغيره مما كان للمرأة، ولم يذهب منه شيء.

فقال له خَدَمُه: يا أمير المؤمنين من أين علمت هذا؟ قال: رأيت في نومي تلك الساعة شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب، وهو ينادي: يا أحمد يا أحمد، خذ أول ملاح ينحدر الساعة، فاقبض عليه وقرره عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلبها، فأقم عليه الحد، وكان ما شاهدتم.

وقال جعيف السمرقندي الحاجب: نمت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته، وقد انقطع عن العسكر، وليس معه غيري، إذ خرج علينا أسد فقصد قصدنا، فقال لي المعتضد: يا جعيف أفيك خير اليوم؟ قلت: لا والله. قال: ولا أن تمسك فرسي وأنزل أنا؟ فقلت: بلى. قال: فنزل عن فرسه وغرز أطراف ثيابه في منطقته، واستل سيفه، ورمى بقرابه إليّ، ثم تقدم إلى الأسد فوثب الأسد عليه، فضربه بالسيف فأطار يده، فاشتغل الأسد بيده، فضربه ثانية على هامته ففلقها، فخر الأسد صريعاً، فدنا منه فمسح سيفه في صوفه، ثم أقبل إليّ فأغمد سيفه في قرابه، ثم ركب فرسه فذهبنا إلى العسكر.

قال: وصحبته إلى أن مات فما سمعته ذكر ذلك لأحد، فما أدري من أي شيء أعجب؟ من شجاعته أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحد؟ أم من عدم عتبه عليّ حيث ضننت بنفسي عنه؟ والله ما عاتبني في ذلك قط. [البداية والنهاية: ١١/ ٨٨].

* * *

القصة الثالثة والعشرون
ادفع إلى هذا حقّه وإلا أذّنتُ

ذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبدالواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطلني، ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه، ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلى الوزير، فلم يفد ذلك شيئاً، وإلى أولياء الأمر من الدولة، فلم يقطعوا منه شيئاً، وما زاده ذلك إلا منعاً وجحوداً، فآيست من المال الذي عليه، ودخلني هم من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلاناً الخياط - إمام مسجد هناك - فقلت وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟

فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجاً، قال: فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي، وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي، فحين عاينه الأمير قام إليه، وأكرمه، واحترمه، وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه، فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه، وإلا أذنتُ، فتغير لون الأمير ودفع إليّ حقي.

قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انصاع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال فلم يقبل مني شيئاً، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصى.

فسألته عن خبره، وذكرت له تعجبي منه، وألححت عليه، فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام، وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران، فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه، وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمين، أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي، ويدخلني منزله، وقد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله، ومتى بت هاهنا طلقت منه، ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام، ولا تغسله المدامع.

قال الخياط: فقمت إليه، فأنكرت عليه، وأردت خلاص المرأة من يديه، فضربني بدبوس في يده فشج رأسي، وغلب المرأة على نفسها، وأدخلها منزله قهراً، فرجعت أنا فغسلت الدم عني، وعصبت رأسي، وصليت بالناس العشاء، ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم، فقوموا معي إليه لننكر عليه، ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي، فهجمنا عليه داره، فثار إلينا في جماعة من غلمانه، بأيديهم العصى والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بينهم فضربني ضرباً شديداً مبرحاً حتى أدماني، وأخرجنا من منزله، ونحن في غاية الإهانة.

فرجعت إلى منزلي، وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي، فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل، لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل، لكي يظن أن الصبح قد طلع، فيخرجها من منزله، فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة، وجعلت أنظر إلى باب داره، وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان، هل أرى المرأة قد خرجت، ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح.

فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرساناً ورجالة وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأخذوني، وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئاً، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالساً في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف، وفزعت فزعاً شديداً، فقال: ادن، فدنوت، فقال لي: ليسكن روعك، وليهدأ قلبك، وما زال يلاطفني حتى اطمأننت، وذهب خوفي.

فقال: أنت الذي أذنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فتغرَّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم؟ فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن، فذكرت له القصة، قال: فغضب غضباً شديداً، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا، فاحضرا سريعاً، فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات، ومعهن ثقة من جهته أيضاً، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة.

ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير، فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئاً كثيراً. فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك، حتى انتهكت حرمة الله، وتعديت حدوده، وتجرأت على السلطان، وما كفاك ذلك أيضاً حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر، فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب.

فأمر به فجعل في رجله قيد، وفي عنقه غلّ، ثم أمر به فأدخل في جوالق، ثم أمر به، فضرب بالدبابيس ضرباً شديداً، حتى خفت، ثم أمر به فالقي في دجلة، فكان ذلك آخر العهد به، ثم أمر بدراً صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكراً صغيراً كان أو كبيراً، ولو على هذا –

وأشار إلى صاحب الشرطة – فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي، وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذان، فأذن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا. قال: فلهذا لا آمر أحداً من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفاً من المعتضد، وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن. [البداية والنهاية: ١١/ ٨٩].

* * *

القصة الرابعة والعشرون
الخليفة المثمن

الخليفة المثمن هو المعتصم محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن منصور العباسي، عهد إليه بالخلافة المأمونُ، وكان شجاعاً شهماً مهيباً، لكنه كثير اللهو مسرف على نفسه، وهو الذي افتتح عمورية من أرض الروم.

ويقال له المثمن، لأنه ولد سنة ثمانين ومائة، في ثامن عشر منها، وهو ثامن الخلفاء من بني العباس، وفتح ثمان فتوحات، وقف في خدمته ثمانية ملوك من العجم، ثم قتل ستة منهم، واستخلف ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وخلف ثمانية بنين وثماني بنات، وخلّف من الذهب ثمانية آلاف دينار، ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم، ومن الخيل ثمانين ألف فرس، ومن الجمال والبغال مثل ذلك، ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور، هكذا قيل في التواريخ، فإن صحّ هذا فهو من جملة العجائب، قالوا: وكانت له نفس سبعية، إذا غضب لم يبالِ بمن قتل ولا بما فعل، وعمره سبع وأربعون سنة، وأقام بعده ابنه الواثق. [مرآة الجنان:٢/ ٧١].

* * *

القصة الخامسة والعشرون
قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد

كان ابن الزيات قد اتخذ تنوراً من حديد، وأطراف مساميره المحددة إلى داخل، يعذب به المصادرين وأرباب الدواوين، فكلما تحرك واحد منهم من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه، فيجد لذلك أشد الألم، ولم يسبقه أحد إلى مثل ذلك، وكان إذا قال له أحد منهم: أيها الوزير؛ ارحمني، يقول: الرحمة خور في الطبيعة، فلما اعتقله المتوكّل أمر بإدخاله في التنور، وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد.

فقال: يا أمير المؤمنين ارحمني؛ فقال: الرحمة خور في الطبيعة، كما كان هو يقول للناس، فطلب دواة وبطاقة فأحضرتا إليه، فكتب:

هـي الـسبيلُ فَمِـنْ يـوم إلى يـوم ... كأنـه مـا تُريـك العيـنُ في النـوم
لا تجـزعَنّ رويـداً إنهـا دُوَلٌ ... دنيـا تنقّـلُ مـن قـوم إلى قـوم

وسيّرها إلى المتوكل واشتغل عنها، ولم يقف عليها إلا في الغد، فلما قرأها أمر بإخراجه، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً، وكانت مدّة إقامته في ذلك التنور أربعين يوماً.

ولما جعل في التنور قالت له خادمته: يا سيدي؛ قد صرْتَ إلى ما صرتَ إليه، وليس لك حامد، فقال: وما نفع البرامكة صنيعهم؟ فقالت له: ذكراهم هذه الساعة. قال: ثمَّ. [مرآة الجنان: ٢/ ٨٤].

القصة السادسة والعشرون
كان أبو مسلم يجد نفسه في الملاحم أنه مميت دولة ومحيي دولة

وثب في سنة اثنتين وثلاثين ومائة أبو مسلم الخراساني على مقدم خراسان فقتله، وقعد في الدّست[1] (صدر المجلس)، وسلّم عليه بالإمرة وخطب، ودعا للسفاح، وانقطعت ولاية بني أمية عن خراسان.

ولما مات السفاح، وتولى أخوه أبو جعفر المنصور، صدرت عن أبي مسلم الخراساني إساءات وقضايا غيّرت قلب المنصور عليه، فعزم على قتله.

وقيل إن المنصور قال لسالم بن قتيبة بن مسلم الباهلي: ما ترى في أبي مسلم؟ فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء:٢٢] فقال: حسبك يا بن قتيبة، لقد أودعتها أذناً واعية، وكان أبو مسلم ينظر في كتب الملاحم، ويجد خبره فيها، وأنه مميت دولة ومحيي دولة، وأنه يقتل ببلاد الروم.

وكان المنصور يومئذ برومية المدائن التي بناها كسرى، ولم يخطر لأبي مسلم أنها موضع قتله، بل راح وهمه إلى بلاد الروم، وكانت رومية المذكورة قد بناها الإسكندر ذو القرنين لما أقام بالمدائن، وكان قد طاف الأرض شرقاً وغرباً، ولم يختر منها منزلاً سوى المدائن، فنزلها، وبنى رومية المذكور على ما ذكروا، والله أعلم.

---

(١) الدست لفظ فارسي استعمله المتأخرون بمعنى صدر البيت، وصدر المجلس، والديوان، ودست الوزارة: منصبها، أي: مجلس الوزارة والرّآسة.

فلما عاد أبو مسلم من سفر حجه دخل على المنصور، فرحب به، ثم أمره بالانصراف إلى مخيمه، وانتظر المنصور فيه الغرض والغوائل، ثم إن أبا مسلم ركب إليه مراراً فأظهر له التحني، ثم جاءه يوماً فقيل له: إنه يتوضأ للصلاة، فقعد تحت الرواق، ورتب له المنصور جماعة يقفون وراء السرير، فإذا عاتبه وضرب يداً على يد ظهروا، وضربوا عنقه، ثم جلس المنصور وأذن له، فدخل وسلم فردّ، وأمره بالجلوس، وحادثه ثم عاتبه، وقال: فعلتَ وفعلتَ، فقال: أبو مسلم: ما يقال هذا بعد بيعتي واجتهادي، وما كان مني، فقال له: يا ابن الخبيثة، إنما فعلت ذلك تحرياً وحفظاً، ولو كان مكانك أمة سوداء لعملت عملك، ألستَ الكاتب إلي تبدأ بنفسك قبلي؟ ألست الكاتب يخطب عني آسية، وتزعم أنك من ولد سليط بن عبدالله بن عباس، لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً.

فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر إليه، فقال له المنصور: - وهو آخر كلامه - قتلني الله إن لم أقتلك، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم، وخبطوه بسيوفهم، والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم، وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة: استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك، فقال لا أبقاني الله أبداً، وأي عدو أعدى منك؟ ولما قتله أدرجه في بساط، فدخل عليه جعفر بن حنظلة، فقال له المنصور: ما تقول في أمر أبي مسلم؟

فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت من رأسه شعرة، فاقتل، ثم اقتل، ثم اقتل، فقال له المنصور وفقك الله، ها هو في البساط، فلما نظر إليه قتيلاً قال: يا أمير المؤمنين عدّ هذا اليوم أول خلافتك، ثم أقبل المنصور على من حضر وأبو مسلم طريح بين يديه، وأنشد.

زعمْتَ أنَّ الدَّين لا يقتضي ... فاستوفِ بالكيلِ أبا مخرمِ
اشربْ بكأسٍ كنتَ تسقي ... بها أمَرُّ في الحلقِ منَ العلقمِ

واختلف في نسب أبي مسلم: فقيل من العرب، وقيل من العجم، وقيل من الأكراد، وفي ذلك يقول أبو دلامة:

أبـا مجـرم مـا غيَّـر اللهُ نعمـةً ... على عبـده حتـى يغيِّرهـا العبـدُ
أفي دولة المنصور حاولْتَ غـدرةً ... ألا إن أهل الغدر أبـاؤك الكـردُ
أبـا مجـرم خوَّفـتَ بالقتـل فانحـأ ... عليك بما خـوفتني الأسـدُ الـوَرْدُ

ووصف المدائني أبا مسلم، فقال: كان قصيراً أسمراً، جميلاً حلواً، أنقى البشرة أحور العين، عريض الجبهة، حسن اللحية، وافرها طويل الشعر، قصير الساق والفخذ، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلو المنطق، راوية للشعر عالماً بالأمور، ولم يُرى ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته، ولا يكاد يطلب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً، وإذا غضب لم يستفزه الغضب، ولا يأتي النساء في السنة إلا مرة، وكان من أشد الناس غيرةً، وقيل له: بم بلغت ما بلغت؟ فقال: ما أخرت أمر يومي إلى غدٍ قط. [مرآة الجنان: ١/٢٢٦].

* * *

القصة السابعة والعشرون
يا غلام احشُ فاه درّاً وجوهراً

مما يحكى عن الخليفة هشام بن عبدالملك أنه خرج ذات يوم إلى الصيد، فنظر إلى ظبي فتبعه، فأحالته الكلاب إلى أن وصل به إلى صبي يرعى غنماً، فقال له: يا صبي دونك الظبي ايتني به، فقال له الصبي: فقدت الحياة لو نظرت إليّ باستصغار، وعاشرتني باحتقار، وكلامك كلام جبار، وفعلك فعل حمار.

قال: يا غلام أو لم تعرفني؟ قال: بلى، قد عرّفني بك سوء أدبك، إذ بدأتني بكلامك قبل سلامك، قال له: وأنا هشام بن عبدالملك، قال: لا قرب الله دارك، ولا حيا قرارك، قال: فوالله ما استتم كلامه حتى أحدقت به الخيول والجيوش من كل جانب ومكان، كل له يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: أقصروا من السلام، واحفظوا بالغلام، والحقوني به، قال: ثم ركب مغضباً إلى داره، فلما وصل إلى داره، وركب على سرير ملكه، أقبلت إليه الحرفاء والوزراء والأمراء والكتاب، كل يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا أمير المؤمنين، وذلك الصبي ساكت، قد أرسل ذقنه على صدره، وقرن عينيه، وسكت عن الكلام، وامتنع عن السلام، فقال له بعض الوزراء: يا كلب العرب ما منعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ قال: يا بردعة الحمار، منعني من ذلك طول الطريق.

فقال له بعض الحرفاء: يا جحش العرب بلغ من فضولك أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة، فقال: رمتك الجندل، ولأمك الهبل، أو ما سمعت قول الله

عز وجل في كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١] فإذا كان الله تعالى يجادل جدالاً، فمن هِشام حتى لا يخاطب خطاباً، فعند ذلك اغتاظ الملك من كلامه، وقال: عليّ برأس الغلام فقد أكثر الكلام، فوضع ذلك الصبي في نطع الدم، وجُرِّد سيفُ النقمة ليضرب عنقه، فقال له الضراب: يا سيدي، عبدك المذل بنفسه، المنقلب إلى رمسه، أضرب عنقه، وأنا بريء من دمه؟ قال: اضرب عنقه: فاستأذنه ثانية فأذن له، ثم استأذنه ثالثة فأذن له، فضحك ذلك الصبي وهو في نطع الدم، فقال أقيموه، ثم قال له: يا غلام أنت تضحك في الممات، وتجادل في الحياة، أتستهزئ بنا أم بنفسك؟ قال: يا أمير المؤمنين، اسمع مني كلمتين، وأفعل ما بدا لك، قال: قل.

قال: فوالله إن هذا أول أوقاتي من الآخرة، وآخر أوقاتي من الدنيا، فوالله لئن كان من المدة تقصير، وفي الأجل تأجيل لا يضرني من كلامك هذا لا قليل ولا كثير، ولكن يا أمير المؤمنين أبيات من الشعر حضرتني اسمعها مني، قل: قال: فقال:

نبئتُ أن الباز خلّف مرةً ... عصفورَ برٍّ ساقه المقدورُ
فتكلم العصفور في أظفاره ... والباز منهمك عليه يطير
ما فيّ ما يغني لمثلك شبعة ... ولئن أكلت فإنني لحقير
فتعجب الباز المدلُّ بنفسه ... عجباً وأفلت ذلك العصفور

قال فخر هشام بن عبدالملك على وجهه ضاحكاً، وقال: والله لو تلفظ بهذا الكلام في وقت من أول أوقاته، وطلب ما دون الخلافة لأعطيته إياه، يا غلام احشُ فاه درّاً وجوهراً، قال: فحشي فاه دراً وجوهراً، وأعطاه الجائزة والكسوة، وراح إلى أهله مسروراً. [مرآة الجنان: ١/ ٢٠٥].

القصة الثامنة والعشرون
حتى يعشعش في أرجائك البوم

أشرف المأمون يوماً من قصره، فرأى رجلاً وفي يده فحمة، وهو يكتب بها على حائط القصر، فقال المأمون لأحد غلمانه: انزل إلى ذلك الرجل، فأمسك بيده، واقرأ ما كتب، وائتني به.

فنزل الغلام فأدركه، وقبض على يده، وقرأ ما كتب فإذا هو:

يا قصر جُمّع فيك الشؤم واللوم   حتى يعشّش في أرجائك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحي   أكون أول من ينعاك مرغوم

فقال له: أجب أمير المؤمنين، قال: سألتك بالله، لا تذهب بي إليه، قال: إنه يراك.

فلما مُثل بين يديه، قال الغلام: وجدته قد كتب كذا وكذا، وذكر البيتين.

فقال المأمون: ويلك!! ما حملك على هذا؟ .

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنه لم يَخْفَ عنك ما حواه هذا القصر من خزائن الأموال، والحلي، والحُلل، والطعام، والشراب، والفُرُش، والجواري والخدم، فمررت عليه وأنا في غاية من سوء الحال من الجوع والعطش، ولي يومان ما أستطعم فيهما بطعام ولا شراب، فوقفت ساعة، وفكّرت في نفسي، وقلت: هذا القصر عامر، وأنا جائع، فلا فائدة له، فلو كان خراباً ومررت به

على تلك الحالة لم أعدم رُخامةً، أو خشبة، أو مسماراً أبيعه وأتقوّت بثمنه، أو ما علم أمير المؤمنين – أعزه الله تعالى – أنه قيل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئٍ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنّى زوالها
وما ذاك عن بغض ولا عن كراهة ولكن يرى نفعه بانتقالها

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف دينار، وأطعمه، واسقه، وقال له: يا هذا، هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بنا. [المختار من نوادر الأخبار:ص٧٤].

* * *

القصة التاسعة والعشرون
وصلت فأجزلت ومننت فأعظمت المنّة

قال جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي: أخبرنا أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد قال: بلغني أن المهدي لما فرغ من (عيسا باذ) ركب في جماعة يسيرة لينظر، فدخل مفاجأة، فأخرج كل من كان هناك من الناس، وبقي رجلان خفيا عن أبصار الأعوان، فرأى المهدي أحدهما وهو دهش لا يعقل، فقال: من أنت؟ قال: أنا أنا أنا، قال: ويلك من أنت؟ قال: لا أدري، قال: ألك حاجة؟ قال: لا، لا، قال: أخرجوه، أخرج الله نفسه، فدفع في قفاه، فلما خرج قال لغلامه: اتبعه من حيث لا يعلم، فسل عن أمره ومهنته، فإني أخاله حائكاً، فخرج الغلام يقفوه.

ثم رأى الآخر فاستنطقه، فأجابه بقلب قوي ولسان جريء، فقال: من أنت؟ فقال رجل من أبناء رجال دعوتك، قال: فما جاء بك إلى هنا؟ قال: جئت لأنظر هذا البناء الحسن، وأتمتع بالنظر، وأكثر من الدعاء لأمير المؤمنين بطول المدة، وتمام النعمة، ونماء العز والسلامة.

قال: ألك حاجة؟ قال: نعم، خطبت ابنة عم لي فردني أبوها، وقال: لا مال لك، والناس يرغبون في المال، وأنا بها مشغوف، قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم، قال: جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قد وصلت فأجزلت الصلة، ومننت فأعظمت المنة، فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه، وآخر أيامك خيراً من أولها، ومتعك بما أنعم به، وأمتع رعيتك بك.

فأمر أن تجزل صلته ووجه بعض خاصته معه، وقال: سل عن مهنته، فإني أخاله كاتباً، فجاء الرسول الأول فقال: وجدته حائكاً، وأخبر الآخر قال: وجدته كاتباً. فقال المهدي: لم يخف عليّ مخاطبة الحائك والكاتب. [اخبار الحمقى والمغفلين: ص٢٢].

* * *

القصة المتممة للثلاثين

الخليفة المنصور يخضع لحكم القضاء

«كان الخليفة المدعوّ بالمنصور، من بني العباس بن عبدالمطلب، بالمثابة التي كان عليها من شموخ أنفه وسموّ سلطانه، فما زاده التذلل للحكم الشرعي إلا رفعةً إلى رفعته، وعزّةً إلى عزته، فقد جرى حتى الآن المثل بما حدث له مع محمد ابن عمران، قاضي المدينة في وقته، وذلك أنه لما وصل إليها حاجّاً، تظلّم منه الجمّالون، وصاحوا على القاضي.

قال الشيباني: «فكنت كاتبه؛ فأمرني أن أكتب إلى المنصور رقعةً في الحضور مع من تظلّم منه، فقالت: «تعفيني من هذا، فإنه يعرف خطي!» . فقال: «إذاً لا يحملها غيرك!» فكتب، ثمَّ ختم الكتاب، ومضيت، ودفعته إلى الربيع، واعتذرت.

قال: «لا عليك!» ودخل بالكتاب، ثم خرج؛ فقال: «أيها الناس! إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: قد دعيت إلى مجلس الحكم الشرعي؛ فلا يتبعني أحد منكم، ولا يكلمني، ولا يقم إليّ إذا خرجت» .

قال: «ثم برز، وبعض وزرائه بين يديه، وأنا خلفه، وهو في مئزر ورداء؛ فلم يقم إليه أحد، فلما دخل المسجد، بدأ بالقبر؛ فسلّم على رسول الله ﷺ ثم قال للربيع: «أخشى أن تدخل ابن عمران منّى هيبة، فيتحوّل عن مجلسه، ولئن فعل، لا ولي لي ولايةً أبداً!» .

ثم سار إلى القاضي، فلما رآه، وكان متكياً، أطلق رداءه على عاتقه، ثم احتبى ودعا بالخصوم، ثم قضى لهم بحقهم، وانفصل الخليفة إلى محلّه، فلما وصل، أمر الربيع بإحضار القاضي، فلما دخل عليه، قال له: «جزاك الله عن دينك، وعن نفسك، وعن خليفتك، أحسن جزائه!» وأمر له بعشرة آلاف درهم، فبقى هذا الفعل من المنصور عبدالله العباسي معدوداً، على مرّ الأيام، في مناقبه، معروفاً من فضائله، مرسوماً في كتاب حسناته» [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥١].

❊ ❊ ❊

القصة الحادية والثلاثون
إنا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم

أمر الأمير عبدالرحمن بحبس ابن أخي محظية أبيه الحكم، لأنه شهد عليه بلفظ نطق به عابثاً في يوم غيث، وطلب الشهادة عليه، وأبرمَتْه عمته في إطلاقه، وكانت مدلّة عليه لمكانها من أبيه، فقال لها: «مهلاً يا أمّاه، فلا بد والله من أن يكشف أهل العلم عما يجب عليه في لفظه ذلك الذي شُهد به عليه، ثم يكون الفصل بعد في أمره، فإنا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما نرى أن الله رفع ملكنا، وجمع بهذه الجزيرة فلّنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجى في حلق عدونا، إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوه، مع مجانبة الأهواء المضلة، والبدع المردية» .

ثم أمر الحاجب أن يحضر القضاة بين يديه، فشاورهم في أمر ابن أخي عجب، وأخبرهم بما كان من لفظه، فتوقف القاضي محمد بن زياد على القول بسفك دمه، وتبعه في ذلك من الفقهاء أبو زيد وعبد الأعلى وأبان.

وأفتى بقتله عبدالملك بن حبيب، وأصبغ بن خليل معاً، فأمرهم محمد بن السليم أن ينصّوا فتواهم على وجوهها في صكّ، ليرفعها إلى الأمير، ليرى فيها رأيه، وفعلوا، فلما تصفّح الأمير أقوالهم، استحسن قول ابن حبيب وأصبغ، ورأى ما رأيا من قتله.

وأمر الفتى حسّاناً؛ فخرج إليهم؛ فقال لابن السليم: «قد فهم الأمير ما أفتى به القوم من أمر هذا الفاسق، وهو يقول لك: أيها القاضي! اذهب؛ فقد

عزلناك، وأما أنت، يا عبدالأعلى! فقد كان يحيى بن يحيى يشهد عليك بالزندقة؛ ومن كانت هذه حاله، فحري ألا تسمع فتواه، وأما أنت، يا أبان بن عيسى! إنا أردنا أن نوليك قضاء جيّان؛ فزعمت أنك لا تحسن القضاء، فإن كنت صادقاً فعليك أن تتعلم؛ وإن كنت كاذباً، فالكاذب لا يكون أميناً مفتياً!» .

ثم قال حسان لصاحب المدينة: «يأمرك الأمير أن تخرج الآن مع هذين الشخصين عبدالملك وأصبغ؛ فتأمر لهما بأربعين من الغلمان ينفذون لهما في هذا الفاسق ما رأياه!» ثم أُخرج المحبوس، ووقفا معاً حتى رُفع فوق خشبة، وهو يقول لعبدالملك: «يا أبا مروان! اتقوا الله – عز وجل – في دمي! فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!» وعبدالملك يقول: «الآن! وقد عصيت!» حتى طُعن. وانصرفا. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥٥].

* * *

القصة الثانية والثلاثون
الملك فاروق والإنكليز

كان إحدى القضايا الرئيسة التي توصل إليها الحاكم الفرنسي لويس التاسع بعد خلاصه من أمر المسلمين هي عدم حكم الصليبيين بأنفسهم المسلمين، وأوصى لويس قومه بالسيطرة على حكام المسلمين، وحكم المسلمين بواسطتهم، وهذا ما فعله الصليبيون في فترة الاستعمار البغيض.

وهذا ما فعلته بريطانيا عند حكمت أكبر الدول العربية وهي مصر، وقد كشفت الوثائق البريطانية التي كشف عنها بعد خمسين عاماً على وقوع أحداثها، وسأعرض لواقعة واحدة كشف عنها في (١٩٨٦/٩/٢٨) ونشرت ترجمها جريدة القبس الكويتية، ففي عام (١٩٤٢) اهتز عرش الملك فاروق بعنف، لأن السفير البريطاني شعر أن الملك يريد أن يتمرد على أسياده الإنجليز، فاصطحب السفير البريطاني جيشه المدجج بالسلاح، وأحاط بقصر عابدين، وكاد يسقط الملك عن كرسيه، لولا أن الملك سارع إلى القبول بكل ما طلبه السفير البريطاني منه، وقد أرسل السفير البريطاني في مصر عدة برقيات إلى وزارة الخارجية البريطانية دوّن فيها وقائع تلك الحادثة بدقة.

لقد تضمنت البرقية التي أرسلها السفير البريطاني بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤٢ إلى وزارة الخارجية نص البيان الشفوي الذي تلاه على الملك فاروق، ويظهر نص البرقية بوضوح الصلف الإنجليزي الذي عامل به السفير الملك، كما يظهر مدى قوة الإنجليز وسيطرتهم، حتى إن السفير أنذر الملك بالطرد والعزل،

وتستطيع أن تقرأ عبر البرقية الكلمات المهينة التي خاطب بها ذلك السفير الملك، وسأنقل البرقية التي أرسلها السفير البريطاني بأرقامها وتاريخها وساعة إرسالها.

(لهذه البرقية طابع سري خاص، وعلى المفوض بتسلمها أن يحتفظ بها، ولا يعمل على تمريرها).

التوزيع: وزارة الحرب.

من: مصر.

من القاهرة إلى وزارة الخارجية.

السير م. لامبسون

رقم ٤٩٢ في ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢. أرسلت الساعة ١:٣٢ مساء يوم ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢. تسلمت الساعة ٤:٥٠ مساء يوم ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢.

وإيماءً إلى برقيتي رقم ٤٩١.

فيما يلي نص البيان الشفوي الذي تلوته على الملك فاروق:

«لقد وضح في الماضي الطويل أن جلالتكم تخضعون لتأثير مستشارين لا يقتصر أمرهم على من حولهم غير مخلصين للتحالف مع بريطانيا العظمى وحسب، بل إنهم يعملون في الواقع ضده، وبهذا يساعدون العدو، إن مسلك جلالتكم وشركائكم يمثل إخلالاً بالمادة (٥) من معاهدة التحالف، وبمقتضاها يتعهد كل طرف سام متعاقد بألا يتخذ بالنسبة للبلدان الأجنبية موقفاً لا يتفق مع التحالف.

وفضلاً عن ذلك، فإن جلالتكم قد قمتم باستهتار، وبلا ضرورة بإثارة أزمة حول قرار اتخذته الحكومة المصرية بمقتضى التحالف، وهو ما تبرره المادة ٥ من المعاهدة تبريراً تاماً.

وأخيراً، فإن جلالتكم، وقد عجزتم عن إقامة حكومة ائتلافية، رفضتم إسناد الحكم إلى الحزب السياسي المتزعم الذي له وحده، بحكم حصوله على التأييد العام للبلاد وضع يطوع له تأمين تنفيذ المعاهدة تنفيذاً مستمراً بروح الصداقة التي استلهمتها.

إن مثل هذا التهور وعدم المسؤولية من جانب العاهل إنما يعرض أمن مصر والقوات المتحالفة للخطر، ويوضح أن جلالتكم لم تعودوا أهلاً للبقاء على العرش» .

نص التبليغ الشفوي الذي وجهه السفير البريطاني (السير مايلز لامبسون) إلى الملك فاروق أثناء مقابلته في الحصار.

وفي برقية أخرى أرسل بها السفير إلى أنتني إيدن وزير الخارجية البريطاني في اليوم نفسه (٥/ ٢/ ١٩٤٢م) شرح فيها الأسباب التي جعلته يعطي فرصة للملك فاروق، ويظهر من خلال سطور البرقية القليلة فلسفة الاحتلال البريطاني في إدارة شؤون مصر، فهم يعتمدون على وجود القوى المتناقضة، (السفارة البريطانية، القصر الملكي، القوى السياسية المصرية الممثلة في الأحزاب).

يقول لامبسون السفير البريطاني في برقيته: «لقد اتفقت مع وجهات نظر أوليفر ليتلتون متزايدة القوة بأن حجتنا قد تكون ضعيفة جداً لو أننا طردنا هذا الولد بسبب تأخره ثلاث ساعات، ولو أن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي، وعلاوة على ذلك، كان يدور في خاطري أنه من المحتمل جداً أن يأتي اليوم الذي نجد فيه أن القصر مفيد ككابح للوفد! إن الكرسي ذا الأرجل الثلاثة لا يمكن أبداً أن يكون مستقراً تماماً إذا ما انكسرت واحدة من الأرجل» .

وقد وصف لامبسون في برقية أخرى وقائع الأحداث التي أذل بها ملك مصر ورجالاتها، وإليك هذه الوقائع كما دوّنها السفير بنفسه:

(لهذه البرقية طابع سري خاص، وعلى المفوض بتسلمها أن يحتفظ بها، ولا يعمل على تمريرها)

(بالشفرة)

التوزيع: وزارة الحرب.

من: مصر.

من القاهرة إلى وزارة الخارجية.

السير م. لامبسون

قم ٤٩١ في ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢.

أرسلت الساعة ٧:٠٠ مساءً يوم ٥ شباط/ (فبراير) ١٩٤٢. تسلمت الساعة ١:٤٠ صباح يوم ٦ شباط (فبراير) ١٩٤٢.

عاجل

١- إيماء إلى برقيتي رقم ٤٨٩ J٥٧٩/٣٣/G ربما يهمكم الحصول على تقرير أوفى عن أحداث هذه الليلة، وهي في حد ذاتها تستحق التسجيل.

٢- في الساعة التاسعة مساءً وصلت إلى القصر، وفي صحبتي الجنرال ستون ورهط مهيب من ضباط عسكريين أشداء تم انتقاؤهم خصيصاً، وهم مدججون بالسلاح إلى أسنانهم، وفي الطريق اجتزنا عبر صفوف من وسائل النقل العسكرية الممتدة إلى الأفق، وهي متجهة عبر الشوارع مطفأة الأنوار لاحتلال مواقعها حول القصر.

وكان في وسعي أن ألاحظ من إمارات الدهشة التي ارتسمت على وجه تشريفاتي البلاط الذي استقبلني عند مدخل القصر، إن هذا الوصول المهيب قد سجل أثراً مبدئياً مباشراً. وبينما كنا ننتظر في الطابق العلوي، كنت أسمع أصوات عجيج الدبابات والعربات المصفحة، وهي تتخذ مواقعها حول القصر،

استناداً إلى أن ياورانات القصر كانوا يذرعون المكان جيئةً وذهاباً، فإن هذا الأمر لم يسبب قلقاً قليلاً، وزاد من تصاعد التوقعات بشأن الأحداث المقبلة.

٣- ترتب على ذلك تأخير لمدة تقرب من خمس دقائق في استدعائي إلى حجرة الملك، وكنت لدى دعوتي لدخولها أهم بإبداء عدم استعدادي للبقاء منتظراً، وحاول كبير التشريفاتية اعتراض الجنرال ستون المرافق لي، ولكنني نحيته جانباً، ودخلنا إلى الحضرة الملكية دون مشكلة أخرى.

٤- واضح أن الملك أخذ على غرة، فأشار ببقاء حسنين باشا في الاجتماع، وهو ما وافقت عليه.

٥- مضيت إلى العمل رأساً، فقد كنت أنتظر رداً بنعم أو لا قبل الساعة السادسة مساءً على رسالتي في الصباح وعوضاً عن ذلك، جاءني حسنين باشا في الساعة ٦:١٥ مساءً برسالة لا يسعني إلا أن اعتبرها «لا» . ولابد أن يقال هنا الآن دون أي مواربة أخرى هل (الرد) هو لا؟

حاول الملك فاروق التدخل، ولكنني قطعت عليه الطريق قائلاً في سخط متزايد: إن الأمور شديدة الخطورة، وإنني اعتبرت الرد بلا، وإنني سأمضي بناءً على ذلك في أداء عملي، وأتلو عليه بتأكيد تام وغضب متزايد البيان الوارد في برقيتي التالية مباشرة. وفي النهاية سلمته نص الخطاب للتنازل عن العرش قائلاً إنه يتعين التوقيع عليه حالاً أو إنني سأجابهه بما هو أشد كرهاً.

٦- تردد الملك فاروق لحظة، واعتقادي أنه كان مزمعاً على توقيع الخطاب لولا أن حسنين تدخل باللغة العربية، بعد فترة توتر كان الرعب قد استولى تماماً على الملك فاروق، تطلع إلى أعلى، وتساءل بما يكاد يورث ما لا يطاق دون شيء من عنجهيته السابقة، عما إذا كنت أمنحه فرصة أخرى؟ فرددت قائلاً: إنني أريد أن أعرف على القطع ما هو اقتراحه؟ فرد على سؤالي المكرر بأن

اقتراحه يتحصل في أنه سيستدعي النحاس على الفور في حضوري إن شئت، ويطلب منه تشكيل حكومته، وبعد التأكد صراحة من أنه يعني حكومة يختارها النحاس بنفسه، تعمدت التردد لحظة، وقلت في النهاية إنني إذ تحدوني رغبة في الحيلولة دون حدوث تعقيدات محتملة في البلاد، أميل إلى إعطائه هذه الفرصة الأخرى، ولكن عليه أن يتصرف فوراً، وقال الملك بكثير من الانفعال إنه حرصاً على شرفه الخاص ومصلحة بلاده سيستدعي النحاس فوراً.

٧- فقلت: إنني موافق.

٨- بعد ذلك. أجهد الملك نفسه لكي يجعل من نفسه شخصاً مقبولاً، بل لطيف المعشر حتى لقد شكرني شخصياً، لأنني حاولت مساعدته دائماً.

٩- ثم تركناه واجتزنا عبر ممرات احتشد فيها الضباط البريطانيون وتشريفاتية البلاط، وكان الأخيرون مجموعة من الدجاجات المذعورة. والشيء نفسه كان في مدخل القائمة السفلى حيث تراءى عند المدخل صفان من الجنود البريطانيين المسلحين الصارمين بخوذاتهم الفولاذية وبنادقهم ومدافع تومي الجاهزة للانطلاق، ولم يخفف خروجنا من تأهبهم وتحفزهم.

وإذ كنا نخرج بالسيارة إلى خارج الفناء، مررنا بالأشكال المعتمة للدبابات والعربات المصفحة المصطفة على استعداد للعمل. وكان منظرها مثيراً إثارة عميقة. ويهمني هنا أن أسجل تقديري لكفاءة الترتيبات العسكرية التي ما كان يستطاع لها أن تكون أفضل من هذا أو أكثر جدوى من الناحية العملية، لقد تصرفوا دون أن يهتزوا.

١٠- بالوصول عائدين إلى السفارة، كانت (تنتظرنا) راحة نفسية هزلية تتمثل في رسالة تلفونية قلقة من حسنين عما إذا كان مستطاعاً الآن سحب القوات، لأن جميع منافذ دخول القصر مسدودة حتى أمام النحاس، فوعدت بأن

أنظر في هذا الأمر، وبعد ذلك بنصف ساعة وصل النحاس إلى السفارة بعدما استقبله الملك فاروق الذي تصرف بلا إبطاء حسب وعده.

والواقع أن الملك فاروق كلف النحاس بمقابلتي وبأن يقدم (مجموعة كلمات لم تحل شفرتها). وكانت المقابلة باعثة على الرضا، وكان وزير الدولة حاضراً فيها، وقد رتبت بأن أرتد إلى خلفية القضية مرة أخرى حتى تأليف النحاس لحكومته، ومن ثم يتعين علينا إجراء حديث عملي، فوافق من كل قلبه على أن العناصر الشريرة في كل من القصر والخارج ينبغي أن التخلص منها فوراً، وأكدت أن رغبتي، كما هو شأني دائماً، منصرفة إلى البقاء قدر الإمكان وراء المسرح، وتركه يتخذ بنفسه التدابير اللازمة.

١١- يكفي هذا بالنسبة لأحداث المساء، وأعترف بأنني ما كان يمكنني أن أستمتع بأكثر منها، ولقد كان هناك إغراء مؤلم بأن أصر على تنازل الملك فاروق عن العرش، وأعتقد أنني كنت قادراً على استخلاصه، غير أن سبيل الحكمة بدا (وهو ما أعترف به بتردد شديد) في كفة الميزان الداعية إلى السماح له باستدعاء النحاس، فضلاً عن أنه لو وافق في الساعة السادسة مساء، لكان يسعدنا قبول هذا الحل: أما أن موافقته جاءت بعد ثلاث ساعات، فهل كان هذا يبرر بالكاد اتخاذ عقوبة مختلفة عن عقوبة الطرد، مهما يكن إغراؤها؟ أو أنه يعزز دعوانا أمام الرأي العام المصري والأجنبي كليهما لعلاج الأمر بصورة أكفأ؟ يضاف إلى هذا أنني كنت أضع نصب العينين (وهي نقطة أبداها وزير الدولة قبل توجهي إلى القصر مباشرة) بأن علينا نحن الجانب المدني أن نتجنب أي إحراج شديد لقادتنا العسكريين (وأكرر أنهم قد أدوا دورهم طوال الوقت بكل نبل).

غير أن مما يؤسف له أن الذي بدا مع مراعاة جميع الاعتبارات، هو أن المسلك الصائب هو قبول الإذعان المذل من جانب الملك فاروق المتمثل في موافقته دون شرط على طلبنا الأصلي، والأهم في هذا أننا قد حققنا في الواقع

انتصاراً تاماً. لقد كان القرار قراراً صعباً، ولكنني آمل أن تعتقدوا بأن كل ما حدث كان صائباً.

وهل لي في الختام أن أسجل تقديري شديد الحرارة لما تفضلتم بمنحي من تفويض واسع، وأسجل شعوري بالامتنان لوزير الدولة على تأييده ومشورته دون كلل.

بقي أن تعلم أن هذه الإجراءات تمت برضا ومباركة وزير الخارجية، ففي ١١/ ٢/ ١٩٤٢ تلقت السفارة البريطانية في مصر برقية تقول:

«سري.

سيدي

١- تلقيت وطالعت باهتمام برقية سعادتكم رقم ٤٩١ بتاريخ ٥ شباط (فبراير) التي تسجل ظروف لقائكم بالملك فاروق مساء ذلك اليوم بصحبة القائد العام للقوات البريطانية في مصر.

٢- أوافق موافقة تامة على قرار سعادتكم بقبول الإذعان غير المشروط للملك فاروق، واقتراح جلالته باستدعاء النحاس باشا لتأليف حكومة يختارها بنفسه.

وإني بكل الصدق والاحترام الخادم المطيع لسعادتكم.

ويحسن بنا أن نذكر الألقاب التي صدرت بها البرقية الموجهة للأمة لنعلم نوعية الرجال الذين كانوا يحكمون ديارنا وحكامنا، جاء في ديباجة البرقية «إلى حضرة السعادة الرايت أنرابل السفير مايلز لامبسون، الحامل لنيشان الصليب الأكبر للقديس ميخائيل وجورج من طبقة ونيشان الحمام...» .

إنه كان من أحفاد الصليبيين الحاقدين على الإسلام وأهله.

القصة الثالثة والثلاثون
لم أحببت علياً وأبغضتني

حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت مقيمة بأرض الحجاز، يقال لها: «دارميَّة الحجونيَّة» فأخبروه بسلامتها، وأنها موجودة، فأمر بإحضارها، وكانت سوداء.

فلما حضرت قال: كيف أنت يا ابنة حام؟ قالت: لست بابنة حام؛ إنما أنا امرأة من «كنانة» . قال: أتدرين لِمَ أرسلت إليك! وفيمَ استدعيتك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

قال: أردت أن أسألك: لِمَ أحببت علياً، وأبغضتني، وواليته، وعاديتني؟

قالت: أو تعفيني من ذلك؟

قال: لابد أن تقولي لي، قالت: أحببت علياً لعدله في الرعية، وقسْمه بالسوية، وأبغضتُك؛ على قتالك لمن هو أولى بالخلافة منك، وطلبك ما ليس لك بحق، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاية، وحبّه للمساكين، وإعظامه لأهل الدين، وأعاديك على سفك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال لها معاوية: هل رأيت علياً؟ قالت: نعم! .

قال: كيف رأيتِه؟ قالت: رأيته ما فَتَنَه المُلْك الذي فتنك، ولا شغلته النعمة التي شغلتك.

قال: فهل سمعت من كلامه شيئاً؟ قالت: نعم! كان كلامه يجلي القلوب من العمى، كما يجلي الزيت الصدا.

قال: فهل لك من حاجة؟ قالت: نعم! أعطني مائة ناقة حمراء، فيها فحولها، ورعاتها.

قال: فما تصنعين بها؟ قالت: أغذو بلبنها الصغار، واستحيي بها الكبار، واكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر.

قال: فإذا دفعتها لك، أأكون عندك بمنزلة عليّ؟ قالت: لا والله.

فقال معاوية متمثلاً:

إذا لم أجُـد بـالحِلْم مـني علـيكُمُ ... فمن ذا الذي بعدي يؤمَّلُ للحِلـمِ
خذيها هنيئاً واذكري فعـلَ ماجـدٍ ... جزاك على حربِ العداوةِ بالسِّلمِ

ثم قال لها: والله؛ لو كان عليّ حيّاً ما أعطاك منها ناقة، فقالت: والله، ولا وَبَرَةً، لأنها من مال المسلمين.

فقال لها: خذيها وانصرفي. [المختار من نوادر الأخبار:ص٨٤].

* * *

الزمرة الرابعة

قصص القضاة العادلين

تقديم:

لابد للناس من قضاة يحكمون بين الناس فيما هم فيه يختلفون، وإنما يعزُّ القضاة، ويُؤَثرون في الناس إذا حكموا بين الناس بالعدل، ولكن دون إقامة العدل النفس الأمّارة بالسوء، وأهواء الحكام وأصحاب الجاه، ولذا فإن العلماء الأتقياء كانوا يخافون من تولي القضاء، ويرهبونه، حتى إنهم ليُجبَرون عليه، فيلونه على كُرهٍ.

القصة الرابعة والثلاثون
القاضي الذي أوجع ظهر الخصم الذي جوّره في حكمه

دخل الشعبي على عبدالملك بن مروان، فقال له: يا شعبيّ! بلغني أنه اختصم إليك رجل وامرأته، فقضيت للمرأة على زوجها، فقال فيك شعراً، فأخبرني بقصتيهما، وأنشدني الشعر إن كنت سمعتَه. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تسألني عن ذلك. فقال: عزمتُ عليك لتُخبرنّي. قال: نعم، اختصمت إليّ امرأة وبعلُها، فقضيت للمرأة إذ توجه لها القضاء، فقام الرجل وهو يقول:

فُتِنَ الشعبيُّ لَمَّا ... رَفَعَ الطَّرْفَ إليها
بفتاةٍ حين قامتْ ... رَفَعَتْ مَأْكَمَتَيْها[1]
ومشت مشياً رُوَيْداً ... ثم هزّت مِنكَبَيْها
فتنتهُ بقوامٍ ... وبخطَّيْ حاجبيها
وبنانٍ كالمَدَارِي ... واسْوِدادِ مُقْلَتَيْها
قال للجِلْوَازِ قَرِّبْ ... ـها وأحْضِرِ شاهدَيْها
فقضى جوراً علينا ... ثم لم يَقْضِ عَلَيها
كيف لو أبْصر منها ... نحرَها أو ساعِدَيها
لَصَبا حتى تَراهُ ... ساجداً بينَ يَدَيْها
بنتُ عيسى بن حَرادٍ ... ظُلِمَ الخَصْمُ لَدَيْها

قال عبدالملك: فما صنعتَ يا شعبيّ؟ قال: أوجعتُ ظهرَه حين جوّرني في شعره. [بهجة المجالس:٣/ ٢٢].

* * *

(١) المأكمتان: لحمتان تصلان العجز والمتنين.

القصة الخامسة والثلاثون
والله لو باعك لأجزت بيعه

كان كثير من القضاة في عصور الإسلام المختلفة يحكمون بالعدل، ويسوون بين الخصوم، حتى لو كان الخصم حاكماً أو والياً أو وجيهاً أو ثرياً، ومن هؤلاء يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، قال ابن كثير:

«كان يوسف بن يعقوب: من أكابر العلماء وأعيانهم، ولد سنة ثمان ومائتين، وسمع سليمان بن حرب وعمرو بن مرزوق وهدبة ومسدداً، وكان ثقة، ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد، وكان عفيفاً شديد الحرمة نزهاً، جاءه يوماً بعض خدم الخليفة المعتضد، فترفع في المجلس على خصمه، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه، فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة، فزبره القاضي، وقال: ائتوني بدلال النخس، حتى أبيع هذا العبد، وأبعث بثمنه إلى الخليفة، وجاء حاجب القاضي، فأخذه بيده، وأجلسه مع خصمه.

فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد، فبكى بين يديه، فقال له: مالك؟ فأخبره بالخبر، وما أراد القاضي من بيعه، فقال: والله لو باعك لأجزت بيعه، ولما استرجعتك أبداً، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع، فإنه عمود السلطان، وقوام الأديان» [البداية والنهاية:١١/ ١١٢].

* * *

القصة السادسة والثلاثون
أجعلك وجندك وفقراء الناس في درجة واحدة

أراد الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب يحيى بنَ عمرَ على القضاء، فأبى وقال له: إن دللتك على من هو أفضل مني، في الوجه الذي تحب، تعفيني؟» فقال له: «نعم!» فدلّه على عيسى بن مسكين، وكان بالحضرة حَمْديس؛ فقال: «إنه، والله! أيها الأمير، صاحبنا عند سحنون، جمع الله فيه خِلال الخير بأسرها!».

فأرسل فيه إبراهيم إلى كورة الساحل، وأوصله إلى نفسه، وقال: «تدري لِمَ بعثتُ لك؟» قال: «لا» . قال: «لأشاورَك في رجل قد جمع الله فيه خِلال الخير، أردتُ أن أوليّه القضاء، وألُمّ به شعث هذه الأمة؛ فامتنع» .

قال: «يلزمه أن يلي» . قال: «تمنّع» . قال: «يُجبر على ذلك!» قال: «تمنّع». قال: «يجلد!» قال: «قُمْ! فأنت هو!» قال: «ما أنا الذي وصفت!» وتمنّع، فأخذ الأمير بمجامعِ ثيابه، وقرّب السيف من نحره؛ فتقدم إليه بخنجره. قال حَمْديس: «وكنت في المجلس؛ فقمت من مكاني، لئلا يصيبني من دمه». فلم يزل به حتى ولّي على شروط» .

منها قال له: «أستعفيك في كل شهر!» قال: «نعم!» قال: «وأجعلك، وبنى عمّك، وجُنْدك، وفقراء الناس، وأغنياءَهم في درجة واحدة» . قال: «نعم!» قال: «ولم توجِّه ورائي، وكذا كذا، فمتى لم تفِ لي بشرط، عزلت نفسي» . قال: «نعم!» .

وعرض عليه عند ذلك الكسوة والصلة، فامتنع وقال له: «أنا رجل طويل الصمت، قليل الكلام، غير نشيط في أمور، ولا أعرف أهل البلد» . فقال له الأمير: «عندي مولىً نشيط، قد تدرّب في الأحكام، أنا أضمه إليك: يكون عنك كتاباً يصدر عنك في القول، فما رضيتَ منه، أمضيتَ؛ وما سخطتَ، رددت» . فضم إليه عبدالله بن محمد بن مفرّج.

قال المخبر: «فكثيراً ما كنت آتي مجلسه وهو صامت لا يتكلم؛ وابن مفرّج يقضي، وسُئل عن فرط انقباضه في قضائه، فقال: «ابتليتُ بجبّار عنيد، خفت أن يبعثَ إليّ من طعامه، أو يدعوني إليه، ولا آتيه؛ فحملتُ نفسي على ذلك، ليقطَع طمعه مني!» [تاريخ قضاة الأندلس:ص٣٠].

* * *

القصة السابعة والثلاثون
لم أقبلها أميراً أأقبلُها وزيراً

أرسل روح بن حاتم إلى ابن فروخ ليوليه القضاء فامتنع، فأمر به أن يُربط، ويُصعَد به على سقف الجامع؛ فقيل له: «تقبل؟» فقال: «لا!» فأُخذ ليُطرَح؛ فلما رأى العزم، قال: «قبلتُ» . فأُجلِسَ في الجامع ومعه حرس؛ فتقدّم إليه خصْمان؛ فنظر إليهما وبكى طويلاً؛ ثم رفع رأسه، فقال لهما: «سألتكما بالله! ألا أعفيتماني من أنفسكما، ولا تكونا أول مشوِّش عليّ!» فرحماه، وقاما عنه.

فأعلم الحرس بذلك روحاً؛ فقال: «اذهبوا إليه، فقولوا له يشير علينا بمن نولّي» . فقال: «إن يكن، فعبدالله بن غانم؛ فإني رأيته شاباً له صبابة، يعنى بمسائل القضاة، فعليك به! فإنه يعرف مقدار القضاء» . فولى ابن غانم؛ فكان يشاوره في كثير من أموره وأحكامه؛ فأشفق ابن فروخ من ذلك، وقال له: «يا ابن أخي! لم أقبلها أميراً أأقبلها وزيراً!» وخرج إلى مصر هرباً من ذلك وورعاً، ومات هنالك. [تاريخ قضاة الأندلس:ص١٥].

* * *

القصة الثامنة والثلاثون
اذهب يا ملعون يا شيطان لعنك الله

ومن عُرض عليه القضاء بإفريقية، فامتنع منه، أبو ميسرة أحمد بن نزار، فلما عُرض عليه قال: «اللهم! إنك تعلم أني انقطعت إليك، وأنا ابن ثماني عشرة سنة! فلا تمكّنهم مني!» فما جاء العصر إلا وقد توفّي، فغسل وكُفن وخُرج به.

ومن غريب ما حُكي عنه أنه بيّنا هو يتهجّد ليلة من الليالي ويبكي ويدعو، إذا بنور عظيم، خرج له من حائط المحراب، ووجه كأنه البدر، فقال: «تملأ، يا أبا ميسرة! من وجهي: فإني ربُّك الأعلى!» فبصق في وجهه، وقال له: «اذهب يا معلون! يا شيطان! لعنك الله!» .

قال المؤلف – رحمه الله – : التوفيق صحب ابن نزار عند مشاهدته لما أخبر عنه بحائط محرابه؛ فثبتت المعرفة قَدَمَه، وأنطقت بالصواب لسانه، فذات القديم سبحانه ذات موصوفة بالعلم، مدركةٌ بلا إحاطة، ولا مرئيةٌ بالأبصار في دار الدنيا؛ وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حدٍّ، ولا إحاطة، ولا حلول؛ فالقلوب تعرفه، والعقول لا تُدركه؛ ينظر إليه المؤمنون في الآخرة بالأبصار، بغير إحاطة، ولا إدراك نهاية. [تاريخ قضاة الأندلس:ص١٦].

* * *

القصة التاسعة والثلاثون

لئن لم تعمل على القضاء لأسطون بك سطوة تزيل اسم الحلم عني

أراد عبدُالرحمن بن معاوية حاكم الأندلس المصعبَ بن عمران على القضاء، فأبى، فلما ولي ابنه هشام المُلْك، اختار المُصْعبَ للقضاء، واستحضره، وقال له:

«قد علمتُ أنه إنما منعك عن القبول من أبي – رحمه الله – الأخلاقُ التي كانت فيه. وقد عرفت أخلاقي وبلوئها: فاحمل عني همّ القضاء!» فأباه واستعفاه؛ فغضب هشام، وعزم عليه عزماً شديداً، وتهدَّده، وأوعده. وذكر بعضهم أنه قال: «لئن لم تعمل على القضاء، لأسْطونَّ بك سطوةً تزيل اسم الحِلْم عني!» . فلما رأى ذلك، وخاف على نفسه، تولّى له العمل كرهاً؛ واشترط على هشام أن يأذن له في اطّلاع ضيْعَته يومين في الجمعة: السبت والأحد، ويحكم لسائر الأيام. فأجابه إلى ذلك.

ولم يزل على قضاء الأمير هشام إلى أن توفي؛ فأقرّه ابنه الحكم؛ وكان قد عرف صلابته وتنفيذه الأحكام؛ فاشتدَّ معه، وصار يؤيده، ولا يسمع فيه مقالة طاعن، ويجيز أفعاله، وينفذ أحكامه، وإن وقعت بغير المحبوب منه.

وفي كتاب الحسن بن محمد: أن العباس بن عبدالملك المروانيّ اغتصب رجلاً من أهل جيّان ضيْعته، فبينا هو يُنازعه فيها، هلك الرجلُ، وترك أيتاماً صغاراً، فلما ترعرعوا، وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه، قدموا قرطبة، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس، وأثبتوا ما وجب إثباته؛ فبعث القاضي في العباس، وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام، وعرّفه بالشهود عليه، وأعذر إليه فيهم،

وأباح له المدافع، وضرب له الآجال، فلما انصرمت، ولم يأتِ بشيء، أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه.

ففزع العباس إلى الأمير الحكم، وسأله أن يوصي إلى القاضي التخلّي عن النظر في قصته، ليكون هو الناظر فيها، فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه؛ فلما أدى الوصية إليه، اشتدت عليه، وقال: «إن القوم قد أثبتوا حقَّهم، ولزمهم في ذلك عناءٌ طويل ونَصَبٌ شديد، لبُعد مكانهم، وضُعْف حالتهم، وفي هذا على الأمير - أعزّه الله - ما فيه، فلستُ أتخلى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه، فليفعل الأمير بعده ما يراه صواباً من رأيه!» .

فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه، فوجم منه؛ وجعل العباس يغريه بمصعب، ويقول: «قد أعلمتُ الأميرَ بشدة استخفافه وغلطه في نفسه، وتقديره أن الحُكْمَ له، ولا حُكْم للأمير عليه!» .

فأعاد الإرسال إليه بعزمه منه، يقول: «لابد لك من أن تكفَّ عن النظر في هذه القضية، لأكون أنا الناظر فيها!» ، فلما جاءه بعزمته، أمره بالقعود؛ ثم أخذ قرطاساً، فسوّاه، وعقد فيه حُكمَه للقوم بالضيعة؛ ثم أنفذه لوقته بالإشهاد عليه، ثم قال للرسول: «اذهب إلى الأمير - أصلحه الله - فاعلمه أني قد أنفذت ما لزمني إنفاذه من الحق خوف الحادثة على نفسي، ورهبة السؤال عنه، وإن شاء نفذه، فذلك له، يتقلد منه ما شاء!» .

فذهب مغضباً، وحرف كلام القاضي؛ وحُكي عنه أنه قال: «قد حكمتُ بالعدل: فلينقضه الأمير إن قدر!» فاستشاط غيظاً، وأطرق مليّاً، والعباس يهيج غضبه؛ وهمّ بمصعب، إلى أن تداركته عصمةٌ من الله، ثبّتت بصيرته، فسُرِّيَ عنه، وقال للعباس: «اربع على ظلعك! فما أشقاه من جرى عليه قلم القاضي! فقف عند أمره! فإنه أشبه بنا وأولى بك!» وأقام على حُسْن رايه في القاضي، ولم يعرضه. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٤٥].

القصة المتممة للأربعين
وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

كان يحيى بن معمر ورعاً فقيهاً زاهداً فاضلاً، استقضاه الأمير عبدالرحمن، وكان صليب القناة، قليل المبالاة بالعتب في سبيل الحق؛ وكان إذا أشكل عليه أمر من أحكامه، كتب فيه إلى أصبغ بن الفرج ونُظرائه بمصر، فكشفهم عن وجه ما يريد علمه؛ فيحقق عليه ذلك فقهاء الأندلس.

وكان هو قليل الرضا عن طلبة قرطبة، شديد التقضّي عليهم، لا يلين لهم في شيء مما يريدون، ولا يصغي إليهم؛ وبلغ من تجاهله عليهم أن سجّل بالسخطة على تسعة عشر منهم؛ فنفروا عنه بأجمعهم، ونشأت بينه وبين يحيى بن يحيى لأجل ذلك عداوة؛ فسعى في عزله عند الأمير، وأقام عليه بما زعمه الشهود: فعزله.

ولما احتُضر ابن معمر، وهو ببلد إشبيلية، وأيقن بالموت، قال لمولىً له، على ما حكاه الزاهد بن سعيد: «أقسمت عليك، إذا أنا مت، إلا ما ذهبت إلى قرطبة؛ فقف بيحيى بن يحيى، وقل له: يقول لك ابن معمر: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧]. ففعل ذلك مولاه لما مات سيده، وبلغ يحيى ما تقرّعه به، قال: فبكى، وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظن الرجل إلا خدعنا فيه» ثم ترّحم عليه، واستغفر له!» [تاريخ فقهاء الأندلس:ص٤٤].

❊ ❊ ❊

القصة الحادية والأربعون
اشترط لتوليه القضاء نفاذ حكمه على الأمير

كان محمد بن بشير المعافري لقي الإمام مالك بن أنس عند توجهه إلى البيت الحرام، فلما عاد إلى الأندلس استقضاه الحكم بن هشام وقبل على شروط، منها نفاذ حكمه على كل أحد من الأمير إلى حارس السوق، وأنه إذا ظهر العجز من نفسه، أعفي، وأن يكون رزقه كفافاً من مال الفيء، وكان من صدور القضاة، وذوي المذاهب الجميلة، شديد الشكيمة، ماهر العزيمة.

قال أحمد بن خالد: وكان أول ما أنفذه في قضائه التسجيلَ على الأمير الحكم؛ في رَحَى القنطرة، إذ أقيم عليه فيها، وثبت عنده من المدّعي، وسمع من بيّنته ما أعذر به إلى الأمير الحكم؛ فلم يكن عنده مدفع، فسجّل فيها، وأشهد على نفسه، فلما مضت مدّته، ابتاعها ابتياعاً صحيحاً، فكان الحكم بعد ذلك يقول: «رحم الله محمد بن بشير! لقد أحسن فيما فعل بنا على كره منّا، كان بأيدينا شيء مشتبه؛ فصححه لنا، وصار حلالاً، طيّب المِلك في أعقابنا!» .

ومما يُذكر عليه أن رجلاً كان يدلس في كتب الوثائق، وإنه عقد وثيقةَ باطلٍ على رجل من التجار، وقام بذلك عند محمد بن بشير، فلما صحّ لديه تدليسه، أمر بقطعه؛ فقُطعت يده. وكان إذا اختلفت عليه الفقهاء بقرطبة، وأشكل عليه الأمر في قضية، كتب إلى عبدالرحمن بن القاسم بمصر، وإلى عبدالله بن وهب، وأشباههما؛ وربما قبل الشاهِد على التوسّم.

ومن كتاب محمد بن حارث، حديثُ أحمد بن خالد؛ قال: سمعنا محمد بن وضاح يقول: وكّل سعيدُ الخير بن الأمير عبدالرحمن بن معاوية عند القاضي محمد بن بشير وكيلاً يخاصم عنه في شيء اضطرّ إليه، وكانت بيده فيه وثيقة، فيها شهادات من أهل القبول، وقد أتى عليهم الموت؛ فلم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم بن هشام وشاهدٌ آخرُ مبرّز، فشهد ذلك الشاهد عند القاضي، وضُربت الآجال على وكيله في شاهدٍ ثانٍ رجي به الخصام، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الأمير الحكم، وأراه شهادته في الوثيقة (وكان قد كتبها قبل الإمارة، في حياة والده) وعرّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه، خوفاً من بطول حقه.

وكان الحكم يعظّم سعيد الخير عمّه، ويلزم مبرّته؛ فقال له: «يا عم! إنا لسنا من أهل الشهادات؛ فقد التبسنا من فِتَن هذه الدنيا بما لا تجهله؛ ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مخزاة، كنا نفديه بملكنا، فصر في خصامك إلى ما صيّرك الحق إليه! وعلينا خلف ما انتقصك!» فأبى عليه سعيد الخير، وقال: «سبحان الله، وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك، وأنت ولّيته، وهو حسنة من حسناتك! ولقد لزمك في الديانة أن تشهد لي بما علمتَه، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك!» .

فقال له الأمير: «بلى! إن ذلك لمن حقّك كما تقول، ولكنك تُدخل به علينا داخلة؛ فإن أعفيتنا منه، فهو أحب إلينا؛ وإن اضطررنا، لم يمكننا عقوقك» .

فعزم عليه سعيد الخير عزمَ من لم يشكّ أن قد ظفر بحاجته، وضايقته الآجال؛ فالح عليه؛ فأرسل الأمير الحكم عند ذلك عنه فقيهين من فقهاء حضرته، وخطّ شهادته تلك بيده في قرطاس، وختم عليه بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: «هذه شهادتي بخطّي تحت طابعي! فأدّياها إلى القاضي!»، فأتياه بها إلى مجلسه، في وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها إليه؛ فقال لهما: «قد سمعتُ منكما؛ فقوما راشدين!» وانصرفا.

وجاءت دولة وكيل سعيد الخير؛ فتقدّم إليه مدلاً، واثقاً بالخلاص؛ فقال له: «أيها القاضي! قد شهد عندك الأمير - أصلحه الله! - فما تقول؟» فأخذ القاضي كتاب الشهادة، ونظر فيه؛ ثم قال للوكيل: «هذه شهادة لا تعمل بها عندي؛ فجئ بشاهد عدل!» فدهش الوكيل، ومضى إلى موكلّه؛ وأعلمه؛ فركب من فوره إلى الأمير الحكم، وقال له: «ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا! ويجترئ هذا القاضي على ردّ شهادتك، والله تعالى قد استخلفك على خلقه، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما لا ينبغي أن تحتمله عليه!» وجعل يغريه بالقاضي، ويحرضه على الإيقاع به.

فقال له الحكم: «وهل شككت أنا في هذا؟ يا عمّ! القاضي، والله رجل صالح، لا تأخذه في الله لومة لائم! فعل الذي يجب عليه، ويلزمه، ويسد باباً كان يصعب علينا الدخول منه! فأحسن الله عنا وعن نفسه جزاءه!» فغضب سعيد الخير من قوله، وقال له: «هذا حسبي منك!» فقال له: «نعم! قد قضيتُ الذي كان عليّ؛ ولستُ، والله! أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله!» .

ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك، قال لمن عاتبه: «يا عاجز! ألا تعلم أنه لابد من الإعذار في الشهادات؟ فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ وإن لم أعذر، بخستُ المشهود عليه بعض حقه!» .

وكان القاضي محمد بن بشير لا يجيز الشهادة على الخط في غير الأحباس، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد. ولذلك اعتلّ عند شهادة الأمير الحَكم في خصومة عمه سعيد الخير بما اعتلّ.

* * *

القصة الثانية والأربعون
قضاة فرسان شجعان يقودون الجيوش

من الفقهاء المعدودين بالأندلس في صدور القضاة، الفرج بن كِنانة الكِنانيّ، رحل إلى المشرق، وسمع من عبدالرحمن بن القاسم وغيره.

ولما قدم من رحلته، استخلصه الأمير الحَكَم بن هشام، وولاّه قضاء الجماعة بقرطبة، وهو كان القاضي بها أيام الهرج المعروف بوقيعة الرَّبَض.

ومما جرى له حينئذ، أن بعض أصحاب الأمير الحكم، الذين أرسلهم على الناس، تعلقوا بجاره الفرج بن كنانة، اتهموه بالحركة في الصبح، وتسوّروا عليه، وصاح نساؤه؛ فسمع القاضي الصراخ؛ فقال: «ما هذا؟» فقيل: «جارك فلان! تعلَّق به الحرسُ؛ فأخرجوه ليُقتل!» فبادر الخروجَ، وكفَّ القومَ عن جاره، وقال لهم: «إن جاري هذا بريء الساحة، سليم الناحية، وليس فيه شيء مما تظنون» .

فقال له رئيس الحرس، المُرسل معهم: «ليس هذا من شأنك، فعليك بالنظر في أحباسك وحكومتك، ودع ما لا يعنيك!» .

فغضب الفرج عند ذلك، ومشى إلى الأمير الحكم؛ فاستأذن عليه، فلما دخل، قال له بعد السلام: «أيها الأمير، إن قُريشاً حاربت رسول الله ﷺ وناصبته العداوة في الله تعالى؛ ثم إنه صفح عنهم، لما أظفره الله تعالى بهم، وأحسن إليهم، وأنت أحق الناس بالاقتداء به، لقرابتك منه، ومكانك من خلافته في عباد الله!» .

ثم حكى له قصة جاره، وما عرض له في الدفاع عنه، فأمر بتخلية سبيله، وبعقاب الناظر الذي عارض القاضي؛ وعفا عند ذلك عن بقية أهل قرطبة، وبسط الأمان بجماعتهم، وردّهم إلى أوطانهم.

وكان القاضي فارساً شجاعاً، يقود الخيل، ويتصرف للسلطان في الولايات وقد غزا مع عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث، معقوداً له على جُند شَذُونة بلده، إلى جلِّيقيَّة وقدّمه عبدُالكريم إلى جمع النصرانية؛ فعضّهم؛ وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وبقي قاضياً وصاحب صلاةٍ زماناً، ثم استعفى، وأخرجه الأمير إلى الثغر الأقصى؛ فقام مقام صدورِ الغزاة، وكان له قدر جليل في الناس.

وكذلك كان أسد بن الفرات بن سنان، أحد صدور الشجعان، ولاّه زيادة الله القضاء بإفريقية، وقدّمه على غزو صِقِلِّيَّة؛ فخرج في عشرة آلاف رجل، منهم ألف فارس، فلما خرج إلى سوسة ليتوّجه منها إلى صقلية، خرج معه وجوهُ أهلِ العلم، يشيّعونه، وقد صهلت الخيلُ، وضربت الطبول، وخفقت البنودُ، قالَ: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له! يا معشر الناس! ما بلغتُ ما ترونَ إلا بالأقلام! فاجهدوا أنفسكم فيها، ثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة!» .

قال عياض، وقد سمّاه في «مداركه» : حكى سليمان بن فارس أن أسداً القاضي لقي ملك صقلية في مائة ألف وخمسين ألفاً.

قال الراوي: فرأيت أسداً، وفي يده اللواء، وهو يُزَمزم، وأقبل على قراءة يس؛ ثم حرض الناس، وحمل، وحملوا معه، فهزم جموع النصارى. وتوفِّي - رحمه الله - في حصار سرقوسة من غزو صقلية وهو أمير الجيش وقاضيه، وذلك سنة ٢١٣هـ . [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥٣].

* * *

القصة الثالثة والأربعون

إن هذا اليهودي الضعيف لا يستطيع أن يدعي على الأمير بباطل

قال القاضي أبو عمر بن عبدالبر: كان القاضي سليمان بن الأسود رجلاً صالحاً متقشفاً، صلياً في حكمه، مهيباً.

وكان السبب في تقليد الأمير محمد إياه قضاء قرطبة، حكم أمضاه بمدينة ماردة، وهو قاض عليها للأمير عبدالرحمن والده، ومحمد أمير عليها، وقد احتبس لرجل يهودي من تجار جلِّيقيَّة مملوكة أعجبته، واشتطّ اليهوديُّ في سومها، فدسّ غلمانه لاختلاسها من اليهودي، وفزع اليهودي إلى سليمان بمظلمة، واستشهد بمن حول الإمارة ممن عرف خبرها، فأوصل سليمان إلى محمد يعرفه بما ذكره اليهودي، وما شهد به لديه، ويقبح عنده سوء الأحدوثة عنه، ويسأله دفع مملوكته إليه.

فأنكر محمد ما زعمه اليهودي، ولواه بحقه، فأعاد القاضي إليه الرسالة يقول له: «إن هذا اليهودي الضعيفَ لا يقدر أن يدّعي على الأمير بباطل! وقد شهد عندي قوم من التجار، فليأمر الأميرُ بإنصافه!» فلجّ محمد ولجّ سليمان، فأرسل إليه سليمان ثانية، يقسم بالله العظيم لئن لم يصرف على اليهودي جاريته، ليركبن دابته من فوره، ويكون طريقه إلى الأمير والده، يُعلمه الخبر، ويستعفيه من قضائه، فلم يلتفت محمد إلى وصيّته.

فشدّ سليمان على نفسه، وركب دابّته سائراً إلى قرطبة؛ وكانت طريقه على باب دار الإمارة؛ فدخل الفتيان إلى محمد؛ فعرّفوه بسيره، فأشفق من ذلك،

وأرسل خلفه فتىً من ثقاته، يقول له: إن الجارية قد وُجد خبرها عند بعض فتيانه، وقد كان أخفاها بغير أمره، وها هي حاضرة، تُرد إلى اليهودي، فلحقه الرسول على ميل أو نحوه من ماردة، وأعلمه.

فقال: «والله! لا أنصرف من موضعي راجعاً، أو أُوتى بالجارية إلى هذا المكان، ويقبضها اليهودي هاهنا! وإلا مضيتُ لوجهي!» فأرسل محمد الجارية إليه.

فلما صارت بين يديه، أرسل في اليهودي مولاها، وفي ثقات من ثقات أهل البلد، ودفعها إليه بمحضرهم، وأعجب الأميرَ محمداً ما كان منه، واسترجحه واعتقد تفضيله، فلما ولي الخلافة، واحتاج إلى قاضٍ، ولاّه وأعزّه. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥٦].

❊ ❊ ❊

القصة الرابعة والأربعون
ورب هذا البيت لو صح عندي عصيانك لأدبتك

قال أسلم بن عبدالعزيز: سمعت أخي هاشماً يقول: إني لقاعد يوماً بين يدي الأمير، إذ دخل عليه فتاه (بَدرُون الصُقلي) وكان أثيراً لديه باكياً، فقال له: «ما دهاك؟» فقال له: «يا مولاي! عرض لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض لي مثله قط، ولوددت أن الأرض انضمت عليّ، ولم أقف بين يديه!» قال: «وما ذاك؟» .

قال: دُسّت على امرأة تطالبني في دار في يدي؛ فأغفل ما كنتُ إذ جاءتني بطابع القاضي، وكنتَ أنت أمرتني بما تعلمه؛ فاعتذرتُ إليها، وقلت: أنا اليوم مشغول بشغل الأمير – أعزه الله – وسأكتب إلى القاضي، وأستعلم ما يريد. ثم إني أقبلت إلى القصر، وقد أتيت باب القنطرة؛ فإذا برسول من أعوان القاضي بادر إليّ؛ فضرب على عاتقي، وصرفني عن طريقي إليه؛ فدخلت عليه في المسجد الجامع؛ فوجدتُه غضبان، فنبّهني، وقال: «عصيتني، ولم تأخذ طابعي!» .

فقلت له: «لم أفعل! وقد عرّفتُ المرأةَ بوجه تأخيري» فقال لي: «وربّ هذا البيت! لو صح عندي عصيانُك، لأدّبتُك!» ثم قال لي: «أنصِفْ هذه المرأة!» فقلت: «أوكّلُ من يخاصمها عنيّ» فأبى عليّ إلا أن أتكلم.

فلما رأيت صعوبة مقامي، أعطيتُها بدعواها، ونجوتُ بنفسي، أفيحسُن عندك، يا مولاي! أن يركب مني قاضيك مثلَ هذا؟ ومكاني من خدمتك مكاني!» .

قال: فتغير وجه الأمير محمد، وقال له: «يا بَدرُون! اخفض عليك! فمحلَك مني تعلمه؛ فاسألْنا به حوائجك، نجبك إليها! ما خلا معارضة القاضي في شيء من أحكامه؛ فإن هذا باب قد أغلقناه؛ فلا نجيب إليه أحداً من أبنائنا، ولا من إخواننا، ولا من أبناء عمّنا، فضلاً عن غيرهم، والقاضي أدرى بما فعل!» فمسح بدرون عينيه، وانصرف. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥٧].

* * *

القصة الخامسة والأربعون
مهلاً يا قاضي أمن المُخَدَّرات أنا أم من الأنبياء أنت

من خير القضاة نزاهةً، وعلماً، ومعرفةً، ورزانة، وعدلاً، وحزامةً القاضي أحمد بن عبدالله بن ذكوان، كان في ولايته موقر المجلس، مهيب الحضرة؛ ما رأيتُ مجلس قاضٍ قط أوقر من مجلسه، وكان إذا قعد للحكم في المجلس، وهو غاصٌ بأهله، لم يتكلم أحد منهم بكلمة ، ولم ينطق بلفظة غيرُه وغيرُ الخصمين بين يديه، وإنما كان كلام الناس بينهم إيماءً ورمزاً، إلى أن يقوم القاضي؛ فصار حديثُه في ذلك عجباً.

ولقد أتته، في بعض مجالسه، من الأديب أبي بحر أنس بن أحمد الجيّاني، داهية لم يبلغه بمثلها أحد، لفرط هيبته؛ وذلك أنه كلّم بين يديه خصماً له، كلاماً استطال فيه عليه، بفضل أدبه، وطلاقة لسانه؛ وفارق عادة المجلس في التوقير، فرفع صوته، وعزّ عطفه، وحسر عن ساعديه، وأشار بيديه، ماداً لهما إلى وجه خصمه، وأعيا على الأعوان تقديمه.

فتولاه القاضي بنفسه، وأنكر عليه إكثاره، وقال: «مهلاً! عافاك الله! اخفض صوتك واقبض يدك!» فقال له أنس: «ومهلاً يا قاضي! أمن المُخدَّرات أنا؟ فأخفض صوتي، وأستر يدي، وأغطي معصمي لديك! أم من الأنبياء أنت؟ فلا أجهر بالقول عندك! وذلك شيء لم يجعله الله تعالى إلا لرسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ

بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢].

ولست به ولا كرامة! وقد ذكر الله تعالى أن النفوس تجادل عنده يوم القيامة في الموقف الذي لا تعدله مقامات الدنيا في الجلالة والهيبة. قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل:١١١] .

لقد تعدّيتَ، يا قاضي! طورك! وعلوتَ في منزلتك! وإنما البيان، بعبارة اللسان وبالمنطق، يستبين الباطل من الحق؛ وإنما البؤس مع النحوس، ولابد في الخصام، من إفساح كلام!» قال: فبُهت القاضي بقوله، وأغضى على تقريعه، وجعل يقول: «الرفق أولى من الخرقَ!» وانصرف أنس، والناس يعجبون من صبره له. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٨٤].

❊ ❊ ❊

القصة السادسة والأربعون
سيق القاضي راجلاً مكشوف الرأس نهاراً يقاد بعمامته في عنقه

تولى يحيى بن عبدالرحمن بن وافد اللخمي القضاء سنة ٤٠١، فاستقلّ به خير استقلال، على ما كان بذلك الزمان من فتن واعتلال.

قال ابن حيان: كان آخرَ كُملاء القضاة بالأندلس علماً، وهدياً، ورجاحة، وديناً؛ جامعاً لخلال الفضل، تقلّد الشورى بعهد العامرية، فكان مبرِّزاً في أهلها، وتقلد الصلاة بالزهراء مدة، إلى أن استعفاها.

ولما قامت فتنة البرابر، كان ابن وافد أحدَ الأشدّاءِ عليهم، وأكبر الناس نفاراً منهم؛ فتغلَّبوا على قرطبة، وخلعوا أميرها؛ واشتدَّ طلبُهم على القاضي، وقد استخفى؛ فعُثر عليه عند امرأة؛ فسيق راجلاً، مكشوفَ الرأس نهاراً، يُقاد بعمامته في عنقه، والمُنادي يُنادي عليه: «هذا جزاءُ قاضي النصارى، ومُسبِّب الفتنة، وقائد الصلاة!» وهو يقول مجاوباً: «بل والله! وليُّ المؤمنين، وعدوُّ المارقين! أنتم شر مكاناً، والله أعلم بما تصفون!» .

والناس تتقطع قلوبُهم لما نزل به؛ فلقيه في هذه الحالة بعض عداه؛ فقال له: «كيف رأيت صنعَ الله بك؟» فقال: «ما أنتم قضاة! كان ذلك في الكتاب مسطوراً!» .

ولقيه بعض أصحابه، فقال: «نرى أن أبلغ أمرك أبا العباس بن ذكوان؟ فإنه مقبول القول عند البرارة» فقال: «لا حاجة لي بذلك!» .

فأُدخل على المستعين سليمان بن الحكم في تلك الحالة؛ فأكثر توبيخه؛ وأغرته به البرابرة: فأمر بصلبه، فشُرع في ذلك، فوردت عليه شفاعات من

الفقهاء والصالحين الذين لا يرى ردّهم، يرغبون إليه في شأنه، ويقبّحون إليه ما أمر به فيه؛ فرفع عنه الصلب والمثلة، وأمر بضمّه إلى المطبق، وتثقيفه، وكان السلطان يُجري وظيفةً على من فيه؛ فكان ابن وافد لا يأكل منها.

ولم يبعد - رحمه الله! - أن اعتلّ في محبسه؛ فأُخرج ميتاً في نعش، منتصف ذي الحجة سنة (٤٠٤)؛ فوضعه الأعوان بالساقية، موضع غسل المجاذم، فاحتمله قوم إلى دار صهره؛ فسد بابه في وجه النعش، وتبرأ منه تقية، وسمع الزاهد حمّاد بن عمّار بالقصة؛ فبادر، وصار بنعشه إلى منزله؛ فقام بأمره.

قال صاحب «المدارك» . وكان من عجيب الاتفاق أن ابن وافد كان قد أودع عند هذا الصالح كفنه وحنوطه وقارورة من ماء زمزم لجهازه، فتمّ مراده، وعُدّت من كراماته، وجاء بنعشه وصلى عليه في طائفة من العامة عند باب الجامع، ثم ساروا به؛ فواروْه الترّاب - غفر الله لنا وله! [تاريخ قضاة الأندلس:ص٨٨].

* * *

الزمرة الخامسة

قصص نوادر الأخبار

تقديم:

هذه زمرة من القصص النوادر، وهي في القمة فيما يروى من القصص، لكل قصة معنى يخصها، ويجمعها كلها تفردها فيما بينها في رفعة معانيها، وصحة مبانيها، وعندما يسمعها السامع النبيه، أو يقرؤها الذكي اللبيب يجد فيها ما يعجب العقل، ويزكي النفس، وينبه القلب.

القصة السابعة والأربعون

كيف أكون ابنك وأنا مسلم وأنت نصراني

روى ابن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي معمّر، عن رجل من أهل الكوفة، قال: كنا مع مسلمة بن عبدالملك، ببلاد الروم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبي على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف. فأمر بقتله.

فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي؟ إن تركتني حياً، جئتك بأسيرين من المسلمين شابّين، قال له: ومن لي بذلك؟

قال: إني إذا وعدت وفيت، قال: لست أثق بك.

فقال له: دعني حتى أطوف في عسكرك، لعلي أعرف من يتكفل بي إلى أن أمضي، وأعود أجيء بالأسيرين، فوكّل به من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف، ويتصفح الوجوه، حتى مر بفتى من بني كلاب، قائماً يحسّ فرسه.

فقال له: يا فتى ، اضمنّي للأمير، وقصّ عليه قصّته، فقال: أفعل، وجاء الفتى إلى مسلمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة، فلما مضى، قال للفتى: أتعرفه؟ قال: لا، والله.

قال: فلم ضمنته؟

قال: رأيته يتصفَّح الوجوه، فاختارني من بينهم، فكرهت أن أخلف ظنه فيّ. فلما كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شابان من المسلمين، فسلّمهما إلى مسلمة، وقال: إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معي إلى حصني لأكافئه على فعله، فقال مسلمة للفتى الكلابي: إن شئت فامض معه.

فلما صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم - والله - إنك ابني؟ قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الروم نصراني.

فقال له: أخبرني عن أمك، ما هي؟

قال: رومية.

قال: فإني أصفها لك، فبالله إن صدقت، إلا صدقتني.

قال: أفعل.

فأقبل الرومي، يصف أم الفتى، ما خرم من صفتها شيئاً.

فقال له الفتى: هي كذلك، فكيف عرفت أني ابنها؟

قال: بالشبه، وتعارف الأرواح، وصدق الفراسة.

ثم أخرج إليه امرأة، فلما رآها الفتى لم يشكّ فيها أنها أمّه، لتقارب الشبه، وخرجت معها عجوز كأنها هي. فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى، ويديه، وتترشفانه، فقال له: هذه جدتك،وهذه خالتك.

ثم اطلع من حصنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا، فكلمهم بالرومية، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه، فقال: هؤلاء أخوالك، وبنو خالاتك، وبنو عمّ والدتك.

ثم أخرج إليه حلياً كثيراً، وثياباً فاخرة، وقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سُبيت، فخذه معك، وادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالاً كثيراً وثياباً، وحلياً، وحمله على عدة دواب، وألحقه بعسكر مسلمة، وانصرف.

وأقبل الفتى قافلاً حتى دخل إلى منزله، فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء مما عرفه الشيخ أنه لأمه، وتراه أمه، فتبكي، فيقول لها: قد وهبته لك.

فلما كثّر عليها، قالت له: يا بنيّ، أسألك بالله، من أي بلد صارت إليكم هذه الثياب، وهل تصف لي أهل هذا الحصن الذي كان فيه هذا؟ .

فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن، ووصف لها أمّها وأختها، والرجال الذين رآهم، وهي تبكي وتقلق.

فقال لها: ما يبكيك؟

فقالت: الشيخ والله والدي، والعجوز أمي، وتلك أختي.

فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقية ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها.

[الفرج بعد الضيق:٢/ ٨٢].

* * *

القصة الثامنة والأربعون
هذه التي عندي أخت ذلك الرجل

قال الخليفة المهدي للهيثم بن عدي الطائي راوية الأخبار: ويحكَ يا هيثم، إن الناس يخبرون عن الأعراب سخاء ولؤماً وكرماً وسماحاً، وقد اختلفوا في ذلك، فما عندك؟ .

قال: فقلت: على الخبير سقطت، خرجت من عند أهلي أريد ديار فرائد لي، ومعي ناقة أركبها، إذ ندّت، فذهبت، فجعلت أتبعها حتى أمسيت، فأدركتها، ونظرت فإذا خيمة أعرابي فأتيتها، فقالت ربّة الخباء: من أنت؟ فقلت: ضيف، فقالت: وما يصنع الضيف عندنا؟ إن الصحراء لَواسعة، ثم قامت إلى بُرٍّ وطحنته وخبزته، ثم عجنته، ثم قعدت فأكلت.

ولم ألبث أن أقبل زوجها، ومعه لبن، فسلّم، ثم قال: من الرجل؟ فقلت: ضيف، فقال: حيّاك الله، ثم قال: يا فلانة، ا أطعمت ضيفك شيئاً؟ فقالت: نعم، فدخل الخباء، وملأ قُعباً من لبن، ثم أتاني به، فقال: اشرب فشربت شراباً هنياً، فقال: ما أراك أكلت شيئاً؟ وما أراها أطعمتك، فقلت: لا والله، فدخل عليها مغضباً، فقال: ويلك، أكلتِ وتركتِ ضيفك؟ قالت: ما أصنع به؟ أطعمه طعامي؟ وأخزاها الكلام حتى شجّها، ثم أخذ شفرة، وخرج إلى ناقتي، فنحرها.

فقلت: ما صنعت عافاك الله؟ قال: لا والله ما يبيت ضيفي جائعاً، ثم جمع حطباً، وأجّج ناراً، وأقبل يكبّب ويُطعمني، ويأكل ويلقي إليها، ويقول: كُلي لا

أطعمك الله حتى إذا أصبح، تركني ومضى، فقعدت مغموماً، فلما تعالى النهار أقبل، ومعه بعير ما يسأم الناظر أن ينظر إليه، فقال: هذا مكان ناقتك، ثم زوّدني من ذلك اللحم، ومما حضره، فخرجت من عنده، فضمّني الليل إلى خباء، فسلّمتُ، فردت صاحبة الخباء السلام.

وقالت: من الرجل؟ فقلت: ضيف، فقالت: مرحباً بك، حياك الله، وعافاك الله، فنزلت، ثم عمدت إلى بُرٍّ وطحنته وعجنته، ثم خبزته، ثم قبضت قبضة روتها بالزبد واللبن، ثم وضعتها بين يدي، وقالت: كل ذا عذر، فلم ألبث أن أقبل أعرابي كريه الوجه، فسلّم، فرددت عليه السلام، فقال : من الرجل؟ فقلت: ضيف، فقال: وما يصنع الضيف عندنا؟ ثم دخل إلى أهله فقال: أين طعامي؟ فقالت: أطعمته الضيف، فقال: أتطعمين طعامي الأضياف؟ فتحاربا الكلام، فرفع عصاه، وضرب بها رأسها فشجّها، فجعلت أضحك.

فخرج إليّ وقال: ما يُضحكك؟ فقال: خير، فقال: والله لتخبرني، فأخبرته بقصة المرأة والرجل اللذين نزلت عليهما قبله، فأقبل عليّ، وقال: إن هذه التي عندي، أخت ذلك الرجل، وتلك التي عنده أختي، فبت متعجباً وانصرفت. [مرآة الجنان: ٢/ ٢٥].

❊ ❊ ❊

القصة التاسعة والأربعون

طلب من بستانيه أن يأتيه برمان حلو فجاءه بحامض

يحكى عن الإمام العالِم العامل مقر المحاسن والفضائل أبي عبدالرحمن عبدالله بن المبارك الحنظلي مولاهم المروزي الفقيه الحافظ الزاهد العابد ذي المناقب العديدة والسيرة الحميدة، تفقّه بسفيان الثوري ومالك بن أنس، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محباً للخلوة شديد التورع، وكذلك كان أبوه ورعاً، وكان يعمل في بستان لمولاه، أقام فيه زماناً طويلاً، ثم إن مولاه جاءه يوماً، وقال له: أريد رمّاناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر، وأحضر منها رمّاناً وكسره، فوجده حامضاً، فحرد عليه، وقال: أكلت الحلو، وأحضرت لي الحامض، هات حلواً، فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره وجده حامضاً، فاشتد حرده عليه، ثم كذلك مرة ثالثة.

فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: لا، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: لأني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه، فقال: ولم لا تأكل؟ فقال: لأنك ما أذنت لي، فكشف عن ذلك، فوجد قوله حقاً، فعظم في عينه، وزوجه ابنته، قيل: إن عبدالله بن المبارك من تلك الابنة، فظهرت عليه بركة أبيه.

قلت: هكذا ذكر بعض أصحاب التواريخ، والذي كنا نعرفه، وذكرته في بعض كتبي، أن سبب زواجه إياها: أن سيده استشاره، وكانت له بنت قد خُطبت إليه، ورغب فيها كثير من الناس، فقال له: يا مبارك، من ترى أن تزوجه

هذه البنية؟ فقال له: يا سيدي الناس مختلفون في الأغراض، فأما أهل الجاهلية فكانوا يزوجون للحسب، وأما اليهود فيزوجون للمال، وأما النصارى فيزوجون للجمال، وأما هذه الأمة فيزوجون للدين، يعني الأخيار منهم الدينين، قلت: وإلى هذه الأربع الخصال أشار النبي ﷺ بقوله: «تُنكح المرأة لأربع» وذكرها ثم قال: «فاظفر بذات الدين» الحديث صحيح.

فلما سمع منه ذلك أعجبه عقله، فقال لأمها: والله ما لها زوج غيره، فزوجها منه، فجاءت له بهذه الدرة الفاخرة المشتملة على نفائس المحاسن الباطنة والظاهرة، وفي شيء من مناقبه المشتملة على فضائله ومحاسنه في ظاهره وباطنه كتاب مستقل لبعض العلماء، وإلى وصفه الحسن أشار القائل وصدق وأحسن:

إذا سار عبدالله من مرو ليلة فقد سار عنها نورها وجمالُها

وقد تتبع أصحابه ما ظهر لهم من مناقبه، فبلغت خمساً وعشرين من العلوم والصلاح والكرم والشجاعة في سبيل الله وحُسْن الخلق والعبادة والنجابة والفصاحة وحُسْن اللفظ في النثر والنظم.

ومن شجاعته وصلاح سريرته ما روي عنه: خرج مرةً في بعض الغزوات، فبرز بعض العلوج ودعا المسلمين إلى المبارزة، فخرج إليه جماعة من المسلمين واحد بعد واحد، فقتل الجميع، فبرز إليه إنسان مثلهم، فقتل ذلك العلج، قال الراوي: فدنوت منه وتأملته، فإذا هو ابن المبارك، رضي الله عنه.

ومن كرمه وشفقته على إخوانه وحسن صحبته ما اشتهر عنه أنه كان إذا أراد الحج يأتيه إخوانه، ويكلمونه في الصحبة، فينعم لهم، ويقول: هاتوا ما أعددتم لذلك من النفقة، فإذا أتوه بها قبضها، وكتب على كل نفقة اسم صاحبها، وأقفل على الجميع في صندوق، ثم يحج بهم، وينفق عليهم ذهاباً

وإياباً من أطيب الأطعمة، ويشتري لهم الهدية من مكة والمدينة، زادهما الله شرفاً، ثم إذا وصل إلى الموطن صنع لهم طعاماً نفيساً، ومد سماطاً عظيماً، قيل: عدّ ما في سماط له من جفان الفالوذج وحده، فبلغت خمساً وعشرين جفنة، ثم يناديهم من شاء الله من الفقراء والصلحاء، فإذا فرغوا من أكل الطعام جمع إخوانه الذين حجوا معه، فكساهم لباساً جديداً، ثم استدعى بالصندوق ففتحه، ورد إلى كل واحد منهم نفقته التي عليها اسمه. [مرآة الجنان:١/ ١٨٠].

* * *

القصة المتممة للخمسين
هو حرٌّ لوجه الله وله ما يرعاه من شياه

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني أبو حبيب المقري، قال: «ضاقت أحوالي، فلم يبقَ لي إلا جارية أحبها، ومنزلاً أسكنه، فبعت المنزل بألف دينار، وخرجت إلى مكة بالجارية، فقلت لها: «يكون هذا المال في وسطك» ، فكانت إذا نزلت في منزل حفرت في خيمتها حفيرة، وأودعت المال فيها وطمّتها، فإذا نودي بالرحيل أثارته وشدّته في وسطها.

قال: فاتفق أن رحلنا على منهل، ونسيت المال في الحفرة، فأخبرتني الجارية بذلك، قال: فحار فكري، وطاش روعي، ولم أدرِ ما أعمل، ودخلنا مكة، فحدثتني نفسي ببيعها فلم يُطعني قلبي.

فلما رجعنا، ونزلنا المنهل الذي خلّفت فيه الكيس، رأيت صحراء، وغلام على رابية يرعى غنيمات له، وأقبلت أدور وأنظر إلى الأرض، فقال لي: «ويحك! ما تطلب؟» ، قلت: «شيئاً أودعته أرض هذا المنهل» ، فقال لي: «صفْه لي» ، قلت: «كيس أحمر فيه مال» ، فقال: «وما لِيَ فيه إن دللتك عليه؟» ، قلت: «نصفه!» ، قال: «هاهو ذاك في الرابية» . فلما رأى تحيّري فيه، قام حتى أخرجه، ووضعه بين يدي، فحمدت الله، وقسمت الكيس قسمين، وخيّرته أحدهما، فقال لي: «إني أرى قِسمي منه كثيراً، وأنا أكتفي بنصف أحد القسمين: فقسمته بقسمين، فقال: «تقسمه أيضاً بقسمين» ، ففعلت، فقال: «ما أعجب أمرك! أتركه كله حراماً، ونصفه حلالاً، وآخذ منه شيئاً! هذا ما لا

يكون، انصرف بمالك» . فقلت له: «يا غلام! أنت حر أو مملوك؟» ، فقال: «مملوك» ، فقلت: «لمن؟» ، فقال: «لشيخ هذا الحي» .

فدخلت الحيّ، فألفيت الشيخ والناس عنده، فقلت له: «رأيت غلاماً في المنهل يرعى غنيمات، وأسألك أن تبيعنيه» ، فقال: «اشتريته بعشرة دنانير» ، فقلت: «أنا آخذه بعشرين» ، فقال: «إن لم أبعه؟» ، قلت: «أعطيك به ثلاثين ديناراً» ، فقال لمن حوله: «أما تسمعون ما يقول؟ وما يحملك على أن تبذل به هذا الثمن؟» ، فقلت: «جمع عليّ ضالّة، فنذرت أن أعتقه، وابتاع الغنم يرعاها له، وأملّكه إياها» .

فقال: «نذرت أن تفعل به هذا لفعلة واحدة من الجميل أولاكها، ولنا في كل يوم منذ ملكناه حسنة تقتضي أكثر مما نأتيه له؟ وأنا أشهد الجماعة أنه حر لوجه الله، وأن ما يرعاه له» .

فانصرفت عن الشيخ، وقد بلغ بي ما أمّلته له» [المكافاة وحسن العقبى:ص٣٩].

* * *

القصة الحادية والخمسون
ولو قيل للمعروف: ناد أخا العلا

ذكر عن «الفضل بن يحيى بن خالد» أنه ركب في حشمه بموكبه إلى الصيد، حتى علا النهار، ثم أمر فضربت له المضارب، وأمر بالطعام، فقُدِّم بين يديه.

فبينما هو يأكل، وإذا بأعرابي على ناقة قد أشرف، فلما نظر إلى تلك المضارب، والجيش، والجنائب، والغلمان، ما شكّ أنه هارون الرشيد، فنزل عن ناقته، وعقلها، ثم دنا، وقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، فقال له الفضل: صهْ!! .

فقال: السلام عليكم أيها الوزير، فقال: صه.

فقال: السلام عليكم أيها الأمير، فقال: قد قاربت، فادْنُ، فدنى، وأكل، فلما فرغ من الأكل، قال له الفضل: من أي العرب أنت؟ قال: من «ربيعة؟» .

فقال: أين تريد؟ قال: إلى الفضل، فقد شاع في العرب ذكره وكرمه، فقصدته على الاسم والذكر ببيتين من الشعر.

فقال: يا أخا العرب، قد مالحناك، ووجب نصحك علينا، وأنا عارف بالفضل، فأنشدنا، فإن كان يصلح له وصلناك إليه، وإن لم يكن أعطيناك نفقةً توصلك إلى أهلك، وأنت على جاهك، فأنشد:

ولو قيل للمعروف: نادِ أخـا العُـلاَ ... لنادى بأعلى الصوت: يا فضل يا فضل

ولو أم طفـلٍ قـضّها جـوع طفلـها ... وغذته باسم الفضل لاستطعم الطفل

فقال الفضل: أحسنت، إنهما لبيتان جيّدان؛ ولكن إذا قال لك الفضل: هذان بيتان لقيتهما من شعر العرب، وجئتنا بهما لتخدعنا عن حاجتك.

قال: أقول له يأمر بإحضار كتاب فيه شعر فيفتحه، فأيّ وزن وقافية اشتهى عملت عليها بيتين.

فقال: يا غلمان، احضروا كتاباً فيه أشعار.

فحضر، ففضّه فخرجت قصيدة «ابن الجهم» التي يقول فيها:

«عُيـونُ المهـا بـين الرُّصَـافة والجِـسْرِ»

فقال الفضل: هذا وزن سهل، وقافية سهلة، فإن قال لك الفضل: أريد أن تعمل أربعة أبيات يكون في كل بيت منها اسم الفضل، فما تصنع؟

فتفكَر قليلاً، وقال:

ولائمة لامتـك يـا فـضل في النـدى فقلت لها: هل يقدح اللّوم في البحر
أرادت لتثني الفضل عن عادة الندى ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر؟
مواقـع جـود الفـضل في كـل بلـدة مواقـع مـاء المـزن في البلـد القفـر
كـأنّ وفـود الفـضل حـين تحمَّلـوا إلى الفضل وافى عنـده ليلـة القـدر

فقال: أحسنت يا أخا العرب. أنا الفضل، فنهض الأعرابي: وقَبَّل يده، وقال له الفضل: ما الذي أمّلْته مني؟

فقال له: ألف درهم أستعين بها على حالي، فقال: يا غلام، ادفع له ألفاً وألفاً وألفاً، ولم يزل يكرّرها حتى انقطع نفسه، فحصى ذلك فكان ستة عشر ألفاً، فأخذها وانصرف. [المختار من نوادر الأخبار:ص٥٢].

القصة الثانية والخمسون
لا أقوم من مجلس شرفني به أمير المؤمنين

دخل عمارة بن حمزة على المنصور فأجلسه في صدر المجلس، فقام رجل وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين! قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة الذي أجلسته في صدر المجلس، غصب لي ضيعةً. فقال المنصور: قم يا عمارة، واستوِ مع خصمك في المحاكمة، واجلس عنده.

فقال عمارة: ما هو خصمي يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟

قال: إن كانت الضيعة له، فلا أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبته إياها، وهي ملكه دون ملكي، ولا أقوم من مجلس شرّفني به أمير المؤمنين.

قال: فاستحسن المنصور فعله، واسترجح عقله. [المختار من نوادر الأخبار:ص٧٠].

* * *

القصة الثالثة والخمسون

يا ربيع اجمع بينه وبين الرجل الذي اتهمه

حدث الأمين أحمد بن موسى، قال: ما رأيت رجلاً محجاجاً، أثبت جناناً من رجل وُقِّع فيه عند المنصور، أن عنده ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية، فأمر المنصور حاجبه «الربيع» بإحضاره، فأُحضر بين يديه، فقال له المنصور: قد رُفع لنا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية، فاخرج لنا منها، واحمل الجميع إلى بيت المال، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أأنت وارث بني أمية؟ قال: لا!

قال: فوصِيَّ أنت؟ قال: لا.

قال: فلِمَ تسأل عن ذلك؟

فأطرق المنصور ساعة، ثم قال: إن بني أمية ظلموا الناس، وغصبوا أموال المسلمين، فأنا آخذها وأردّها إلى بيت مال المسلمين.

فقال الرجل: تحتاج يا أمير المؤمنين، إلى بيّنة يقبلها الحاكم أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي، وأنه هو الذي اغتصبوه من الناس، وأمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت معهم أموال لأنفسهم غير أموال الناس التي اغتصبوها، على ما يزعم أمير المؤمنين، فسكت المنصور ساعة ثم قال: يا ربيع، صَدَقَ الرجل، ولم يجب لنا عليه شيء.

ثم قال للرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم! قال: ما هي؟

قال: أريد أن تجمع بيني وبين الرجل الذي سعى فيّ إليك، فوالله يا أمير المؤمنين، لم يكن لبني أمية عندي مال ولا سلاح؛ وإنما حضرت بين يدي أمير

المؤمنين ورأيت ما هو فيه من العدل والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطل، وأن هذا لا يجوزه، أيقنت أن هذا الكلام الذي صدر مني هو الجح وأصلح لما سألني عنه، وأقرب إلى الخلاص.

فقال المنصور: يا ربيع، اجمع بينه وبين الرجل الذي اتهمه، فلما وقف عليه أمسكه، وقال: هذا الذي أخذ لي خمسمئة دينار وهرب، ولي عليه مسطور بها، فأُحضر إلى أمير المؤمنين، فاستنطقه؛ فأقرّ بالمال في ذمته، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين قد وهبتها له لأجلك، وله عندي خمسمئة دينار لحضوري مجلسك.

فاستحسن المنصور فعله، وكان في كل وقت يقول: يا ربيع، ما رأيت من حجّني مثله. [المختار من نوادر الأخبار:ص٧٠].

* * *

القصة الرابعة والخمسون
هو في حلٍّ من صداقي في الدنيا والآخرة

ذكر ابن كثير في [البداية والنهاية:١١/ ٨١] «أن امرأة تقدمت إلى قاضي الريّ فادعت على زوجها بصداقها خمسمائة دينار، فأنكره، فجاءت ببينة تشهد لها به، فقالوا: نريد أن تسفر لنا عن وجهها، حتى نعلم أنها الزوجة أم لا، فلما صمموا على ذلك قال الزوج: لا تفعلوا، هي صادقة فيما تدعيه، فأقر بما ادعت، ليصون زوجته عن النظر إلى وجهها، فقالت المرأة حين عرفت ذلك منه، وأنه إنما أقر ليصون وجهها عن النظر: هو في حل من صداقي عليه في الدنيا والآخرة» .

❊ ❊ ❊

القصة الخامسة والخمسون
بئس ما جازيناك يا جابر عثرات الكرام

كان في خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان رجل يقال له «خزيمة بن بشر الأسدي» وكان مقيماً بالرقة، وكانت له مروءة ظاهرة، وبرٌّ كثير بالإخوان، وكرم مشهور، لم يزل على تلك الحالة حتى قعد به دهره، وناخ عليه بكلكله، وألحَ عليه الفقر، فواساه إخوانه قليلاً ثم ملّوه، فلما لاح له تغيّرهم اختار لزوم بيته، وأغلق بابه.

فجرى ذكره يوماً بمجلس «عكرمة» الفياض فقال: أو ما كان لخزيمة من يكافئه على مروءته، ويسدّ خلّته، فأمسك عن الحديث، فلما خلا المجلس، ومضى من الليل جانب، قام «عكرمة» إلى كيس، فجعل فيه أربعة آلاف دينار، ثم أمر بدابّته فأُسرجت، وخرج سرّاً من أهله، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال، ثم سار حتى أتى قريباً من بيت «خزيمة» فنزل عن الدابة، وأخذ الكيس، ثم بعث الغلام إلى مكان بعيد، وتقدم إلى باب «خزيمة» وقرعه فخرج خزيمة، وفتح الباب، فناوله «عكرمة» الكيس، وهمّ بالانصراف، فمسك «خزيمة» بطوقه، وقال: من أنت؟

فقال: ما جئتك في هذا الوقت وأريد أن يعرفني أحد، قال خزيمة: لابد من ذلك، فعرِّفني بنفسك.

فقال: «أنا جابر عثرات الكرام» . ثم تركه ومضى.

وأخذ «خزيمة» الكيس، ودخل وهو يظنه فلوساً، فلما رجع «عكرمة» إلى منزله، وجد زوجته في أسوأ حال عليه، لأنها ظنّت أنه جرى إلى زوجة غيرها، أو إلى جارية اشتراها.

فقال لها: يا هذه، قرّي عيناً، فوالله ما خرجت إلى شيء من ذلك، وإنما أردت أن أفعل شيئاً لا يعلمه إلا الله – تعالى – فلم تزل به حتى أعلمها بصورة الأمر.

ثم إن «خزيمة بن بشر» أصلح شأنه، واشترى له ثياباً فاخرة، ومركوباً حسناً، وتجهّز، وسار إلى «سليمان بن عبدالملك» ، وكان يومئذ بفلسطين، وكان به عارفاً، فلما دخل عليه، قال: ما أبطأك عنا يا خزيمة؟

قال: سوء الحال، يا أمير المؤمنين.

قال: فما منعك من النهوض إلينا؟

قال: قلة ذات يدي.

قال: فما أراك إلا بخير، وفي أحسن حال وأجمل هيئة.

قال: إن صورة حالي عجيبة يا أمير المؤمنين، ثم قصّ عليه خبره، من أوّله إلى آخره.

فاهتز سليمان لذلك، وقال: من هو «جابر عثرات الكرام» ؟! وجعل يكّررها، ثم قال: والله اشتقت إلى صاحب هذا الاسم، ولو عرفته لكافأته على مروءته وفعله هذا الجميل معك، فلله درُّه! ما أحسن فعله، وما أوفر عقله!! .

ثم دعا «سليمان» بقناة، وعقد لخزيمة الولاية على مدينة «الرقة» و«الحيرة»، وهو العمل الذي كان بيد عكرمة، وأمره أن يقبض على ماله، ويحتاط عليه، ويحاسبه.

فخرج خزيمة يريد الرقة، فلما قرب إليها خرج إليه عكرمة يتلقّاه، ومعه وجوه الناس، فتلقّاه، ودخل «خزيمة» الرقة، وأتى إلى دار الإمارة، فلما أراد عكرمة الانصراف منعه «خزيمة»، ووكّل به من يحتفظ به، وأمره بإحضار المال الذي تحت يده بكامله، وعمل الحساب.

فلما حوسب فضل عليه شيء كثير، فبعث به إلى السجن، وثقّله بالحديد، فأقام ثلاثة أيام في أسوأ حال.

فلما مضّه ذلك أرسل إلى زوجته وهي ابنة عمه، وقال لها: امضِ إلى «خزيمة»، وعرّفيه بأمري.

فتوجّهت إليه، وقالت له: بئس ما جازيت به «جابر عثرات الكرام» يا خزيمة! .

فلما سمع هذا الكلام منها دهش عقله، وطار لُبُّه، وصاح، وجعل يقول: واسوأتاه!! واخجلتاه!! وافضيحتاه!! من الله تعالى، ومن «جابر عثرات الكرام»، ومن أمير المؤمنين.

ثم قام من وقته ماشياً، ودخل إليه، ورمى بنفسه عليه، وجعل يقبّل يديه، ويعتذر له، وأقسم بالله إنه ما عرفه، ثم أخرجه، ودخل به الحمام، وأمر بإحضار جميع ما يحتاج إليه من ثياب وطيب ودواب، فألبسه وأركبه، واستبشر أهل المدينة بذلك، وخرج به من يومه متوجّهاً إلى «سليمان بن عبدالملك»، فوصل إليه، فلما استأذن عليه الحجّاب، خرج سليمان، وقال: من هذا؟ .

قال: عاملك الثاني الذي وليته الرقة والحيرة.

فقال: يقدم علينا بغير إذننا.

ثم أمر بدخوله عليه، فلما رآه قال: ما أقدمك إلينا سريعاً من غير إذن؟

قال: يا أمير المؤمنين، ظَفِرت «بجابر عثرات الكرام» .

قال: أوَ عرفته؟ قال: نعم! قال: من هو؟

قال: إنه «عكرمة الفياض» الذي وليتني عليه.

فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بئس ما جازيناه عن فعله ومروءته!، ثم أذن له فدخل.

فقال: بئس ما جازيناك به عن كرمك وجودك يا عكرمة، وبئس ما فعل خزيمة!، فقال عكرمة: يا أمير المؤمنين، معذور، ونصيحة أمير المؤمنين أحبُّ إليه.

فقال له سليمان: إن اصطناع المعروف لا يكاد يخفى ولا يضيع، ثم أمر لعكرمة بمال جزيل، وسامحه بما كان وجب عليه، وعقد لهما الولاية على الرقة والحيرة، وأضاف إليهما من الأعمال إقليماً كبيراً. [المختار من نوادر الأخبار:ص٣٦].

* * *

القصة السادسة والخمسون
قاتلك الله ولا حياك ولا سلم عليك

عن أبي موسى الفضل عن أبيه قال: سمعت زينت بنت سليمان بن علي ابن عبدالله بن عباس، قالت: كنت عند الخيزران جارية المهدي، وعادتها إذا كنتُ عندها تجلس في عتبة باب الرواق مقابل الإيوان، وأجلسُ أنا بإزائها في الصدر في مجلس كان «المهدي» يجلس فيه، وهو يقصدنا في كل وقت يجلس عندنا في بعض الأوقات ساعة ثم ينهض، فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواري الخيزران اللاتي يحجبنها.

فقالت: أعز الله السيدة، إن بالباب امرأةً ذات حُسْن وجمال، وخلقة حسنة، وهي على غاية من سوء الحال، تستأذن عليك، فسألتها عن اسمها فامتنعت من ذلك.

قالت زينب: فأشارت الخيزران إليّ، وقالت: ما ترين؟

فقلت: ما يضرّ من دخولها شيء، فلابد من فائدة أو ثواب، فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء وأكملهن، فوقفت إلى جانب الباب وسلّمت.

وقالت: أنا «مُرَيَّة بنت مروان بن محمد الأموي» ، قالت زينب: وكنت متكئة، فقمت جالسة، فقلت: مرية، قاتلك الله! ولا حيّاك، ولا رعاك، ولا سلّم عليك! والحمد لله الذي أزال النعمة عنك، وهَتَكَ سِتْرَك، وأهانك بين الناس، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك نساء بني العباس يسألنك أن تكلّمي أباك في

الإذن في دفن «إبراهيم بن محمد» فوثبت عليهنّ، وأسمعتهنّ أخشن الكلام، وأغلظ القول، وخرجن على الحالة التي علمتِها.

قالت زينب: فلما سمعت كلامي، ضحكت، فوالله، ما أنسى حسن ثغرها، وعلَو صوتها بالقهقهة.

ثم قالت: أي بنيّة عمي، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله بي حتى أردت أن تسيئي بي؟ والله، لقد فعلت بنساء أهلك ما ذكرت، ولكن كان حقاً على الله أن يسلمني إليك ذليلة جائعة، عريانة، شعثة، خاضعة، فكان هذا جزاءً لشكرك لله – تعالى – على ما أولاك، ثم قالت: سلام عليكنَّ، وولّت خارجة.

قالت زينب: فالتفت إلى «الخيزران» فإذا هي تبكي، ونادت الخيزران: يا مرية، دخلْت بإذني، فلا تخرجي إلا بإذني، وصاحت بحُجّابها: ردّوها، فرجعت.

وقالت: والله ما ساقني إليك إلا الضرورة والجهد وسوء الحال.

قال: فنهضت الخيزران فعانقتها، فقالت: ما فيّ لذلك موضع للحال الذي أنا عليه.

فقالت الخيزران لجواريها: عليكنّ بالحمام بسرعة، فعبروا بها إلى الحمام من وقتها وأمرتهنّ بخدمتها، ثم وافتها الخِلَع المُذهَبة، والطيب، ثم قامت إليها الخيزران، واعتنقتها، وأجلستها المجلس الذي يجلس فيه أمير المؤمنين «المهدي» ، وقدّمت إليها الموائد الفاخرة، وجعلت تأكل وتلقمها، حتى اكتفت، وغسلت يديها.

فقالت لها الخيزران: هل عندك أحد ينتظرك؟ فقالت: ما لي أحد.

فقالت الخيزران: قومي إلى إحدى مقاصيري فاختاري أحسنها، واسكني بها عندي، ولا تفترقي إلى الممات، فقامت إلى المقصورات، وأقامت بأحسنها،

وحوّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش، والقماش، والآنية، والخدم ثم تركنها، وخرجن من عندها.

فقالت الخيزران: هذه امرأة قد مسّها من الضر ما لا مزيد عليه، ولا يغسل صدأ قلبها إلا المال، احملوا إليها خمسمئة ألف درهم، فحُملت إليها لوقتها.

ودخل المهدي في عقيب ذلك فقال: ما بالكنّ؟ فقامت إليه زينب وأعلمته بجميع ما وقع، وما قالت لها حين دخلت عليها، فغضب المهدي غضباً شديداً، وقال: ما هذا بجودك لله على ما أنعم عليك، والله لولا لك عليّ حُرمة لأحلفنّ أني ما أكلّمك أبداً.

قالت: يا أمير المؤمنين، قد طاب قلبها، واعتذرتُ إليها، وفعلت معها الخيزران كذا وكذا، فسرّه ذلك، وقال: احملوا إليها من عندي مئة ألف درهم، وقال لخادم كان على رأسه: بلّغها مني السلام، وقل لها: إني ما سررت بشيء منذ عمري كسروري اليوم بمقامك عندنا، فلا تدعي في نفسك حاجة إلا ذكرتها لنا، ولولا أكبر أن أحشمك لسرت إليك مسلّماً عليك، وقاضياً لحقك.

فمضى الخادم بالرسالة إليها، فجاءت إلى «المهدي» وسلّمت عليه، وقالت: ما عليّ من أمير المؤمنين من حِشمة، وإني صرت من بعض جواريه، فقال: لا والله، بل أعزّ عندي من ولدي.

ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت. [المختار من نادر الأخبار:ص٤٥].

* * *

القصة السابعة والخمسون

دعوتنا إلى طعام مقتنا الله عليه وعرضت نعمتنا للزوال

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني أحمد بن أيمن، قال: «كنت أكتب في حداثتي للعباس بن خالد البرْمَكي، وكان طويل اللسان مَخشيّ الغضب، فإني لجالس بين يديه في داره بمدينة السلام، حتى دخل علينا شاب حسن الصورة رث الهيئة، فأكب عليه فقال: «ألست ابن فلان صديقنا؟» ، فقال: «نعم، يا سيدي!» . فقال: «قد كان حَسَن الظاهر جميل الهيئة؛ فما بلغ بك إلى ما أرى؟» ، قال: «كان تجمُّله أوفى من عائِدته! وتوفي، فكنت أتبلّغ بما يستعمله المُوقّي على جاهه، إلى أن خان طبعي البارحة، ولم أُطِق سَتْر ما بي فقصدتُك» ، فدعا بمائة درهم، وقال: «تمسك بهذه إلى أن أنظر لك في عائدٍ عليك من الشغل» .

فلما قام من عنده قال لغلام يثق به: «قُصّ أثر هذا الفتى؛ فانظر ما يبتاعه بهذه الدراهم وأحْصِه عليه حتى يدخل منزله، واعرف المنزل وصِرْ إليّ» .

فرجع إليه وقال: «يا سيدي! هذا غلام عَيّار! ابتاع بنيْفٍ وثلاثين درهماً سميذاً وسكّراً وعسلاً ولحماً كثيراً وحوائج الأعراس، وأخذ طبّاخاً من طباخي الأعراس، وأحسب أن عنده دعوة، وقد عرفت منزله» ، فقال: «دعه» .

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى وافى الفتى فأعرض عنه، واستثقل جلوسه بين يديه؛ فقال: «يا عمي وسيدي! ليس يشبه ذا اللقاء ما لقيتني به في الأولى!» ، قال: «كنت في الأولى راجياً لصلاحك، وأنا اليوم آيسٌ منه» ، فقال: «وكيف ظننت ذلك؟» ، قال: «أخبرني غلامي أنك أنفقت إلى أن بلغت منزلك نَيِّفاً

وثلاثين درهماً، وكان حقك أن لا تزيد على ثلاثة دراهم» ، فقال: «لو عرفت خبري لقدّمت عُذري!» قال: «ما خبرك؟» .

قال: «كنت مع تضايق حالي، أمسك نفسي عن المسألة، وأقتصر وأهلي على البُلغة، وأنا ساكن وأهلي في ظهر دار فلان – ووصف رجلاً ظاهر اليسار من التجار – وقال: «له طاقات في مطبخه، تُفضي إلى منزلي، فأولم وليمة لا أشك في حضورك إياها، فشرق منزلي بروائح الأطعمة، وكانت الصَّبِيَّةُ من صبياني تخرج فتقول: «رائحة جَدي يُشوَى!» وأخرى تقول: «رائحة نقانق تُقلى!» وهذه تقول: «يا أبَهْ! أشتهي من هذا الفالوذج الذي قد شاعت رائحتُه لقمةً!» ، وقولهم يُقرِّح قلبي. وأمّلت أن يدعوني، فأتحمل التزليل[1] لهم، فوالله ما رآني أهلاً لذلك، فقلت: «ولعله إذ نقصت عنده من منزلة من يدعوني أن يبعث إليّ؟ فوالله ما فعل، فبت بليلة لا يبيت بها الملدوغ، فأصبحت في الغداة فكنتَ أوثق في نفسي من سائر من بمدينة السلام، فلما أعطيتني تلك الدراهم اشتريت بها حوائج أصلح منها ما اشتهوه، فأكلوا أياماً منه، وهم يدعون الله في الإحسان إليك، والخَلَفِ عليك» .

فقال له العباس: «أحسنت! بارك الله عليك!» ، ثم صاح: «يا غلمان! أسرجُوا لي» ، ولبس ثيابه، وركب وركبت معه، ودخل إلى صاحب الصّنيع فقال: «دعوتني وجماعةَ وجوهِ بغداد إلى طعام مقتنا اللهُ عليه! وعرّضت نعمتنا للزوال، وأنفسنا إلى اخترام الأعمار!» ، وقصّ قصة الفتى، وقال: «عزمت على أن أُصدِّق عن كل من حضر وليمتك، وتكون سبباً لتخلّف الناس عنك، والإمساك عن إجابتك أخرى الليالي» ، فقال: «أنا أفتدي إذاعتك بما غفلت عنه بخمس مائة دينار» ، قال: «أحضرها» ، فأحضرها، فقال: «اقبضها» ، فقبضتها.

---

(١) التزليل، من الزَّلَة، اسم لما يحمل من المائدة لقريب أو صديق. «لسان العرب» (زلل).

ثم ركب إلى جماعة فقال: «أعطوني في معونة رجل من أبناء النعم اختلّت حاله» ، فأخذ منهم خمس مائة دينار أخرى، ورجع إلى منزله، وقد كان أمر الفتى ألاَّ يبرح منه، فأدخله إليه، وقال: «فيمَ تهش إليه من التجارة؟» ، فقال: «في صناعة الأنماط، فإنها صناعة أسلافنا، ومن بها يعرف حقوقنا» . فدعا برجل منهم حَسَن اليسار، فأخرج إليه الألف الدينار التي أخذها، فقال: «هذا المال لهذا الفتى، فليكن في دُكانك، واشترِ له بها ما يُصلحه من المتاع وبصِّرْه به» ، ثم قال للفتى: «احذر أن تُنفق إلا من ربح» ، فانصرف الفتى، وقد رُدّ عليه سَتْرُه»
[المكافأة وحُسْن العقبى:ص١١١].

* * *

القصة الثامنة والخمسون
كثرت إبله وشاؤه وصار منزله مقصد الناس في الحج

خرج المهدي أبو عبدالله بن أبي جعفر المنصور إلى الأنبار متنزهاً، فدخل عليه الربيع بن يونس، ومعه قطعة من جراب، فيه كتابة برماد، وخاتم من طين قد عجن بالرماد، وهو مطبوع بخاتم الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت أعجب من هذه الرقعة، جاءني بها أعرابي وهو ينادي: هذا كتاب أمير المؤمنين، دلوني على هذا الرجل الذي يسمى الربيع، فقد أمرني أن أدفعها إليه.

فأخذها المهدي وضحك وقال: صدق، هذا خطي وهذا خلقي، أفلا أخبركم بالقصة كيف كانت؟ قلنا: يا أمير المؤمنين أعلى رأياً في ذلك.

قال: خرجت أمس إلى الصيد في غير سيمائي، فلما أصبحت هاج علينا ضباب شديد، وفقدت أصحابي حتى ما رأيت منهم أحداً، وأصابني من البرد والجوع والعطش ما الله به أعلم، فتحيرت عند ذلك، فذكرت دعاءً سمعته من أبي، يحكي عن أبيه عن جدّه عن ابن عباس رضي الله عنهم، يرفعه، قال: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: بسم الله وبالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وُقي وكُفي وهُدي وشُفي من الحرق والغرق والهدم وميتة السوء».

فلما قلتها رفع الله لي ضوء نار، فقصدتها فإذا بهذا الأعرابي في خيمة له، وإذا هو يوقد ناراً بين يديه، فقلت: أيها الأعرابي هل من ضيافة؟ قال: انزل فنزلت، فقال لزوجته: هاتي ذلك الشعير، فأتت به، فقال: اطحنيه، فابتدأت بطحنه، فقلت: اسقني ماء، فأتاني بسقاء فيه مذقة من لبن أكثرها ماء، فشربت

منها شربة ما شربت شيئاً قط إلا وهي أطيب منه، وأعطاني حلساً له يعني كساءً رقيقاً - وهو بالحاء والسين المهملتين وبينهما لام ساكنة - قال: فوضعت رأسي عليه ونمت نومة ما نمت أطيب منها وألذ، ثم انتبهت فإذا هو قد وثب إلى شويهة فذبحها، وإذا امرأته تقول له: ويحك قتلت نفسك وصبيتك، إنما كان معاشكم من هذه الشاة فذبحتها، فبأي شيء نعيش؟

قال: فقلت: لا عليكِ هاتِ الشاة، وشققت جوفها، واستخرجتُ كبدها بسكين كانت في خفي، فشرحتها ثم طرحتها على النار فأكلتها، ثم قلت له: هل عندكم شيء أكتب فيه؟ فجاءني بهذه القطعة من جراب، وأخذت عوداً من الرماد الذي بين يديه، وكتبت له هذا الكتاب، وختمته بهذا الخاتم، وأمرته أن يجيء ويسأل عن الربيع فيدفعها إليه، فإذا فيها خمس مائة ألف درهم.

فقال: والله ما أردت إلا خمسين ألف درهم، ولكن جدت بخمس مائة ألف درهم لا أنقص والله منها درهماً واحداً، ولم يكن في بيت المال غيرها، احملوها معه، قال فما كان إلا قليل حتى كثرت إبله وشاؤه، وصار منزله من المنازل ينزله الناس من أراد الحج، وسمي منزل مضيف أمير المؤمنين المهدي. [مرآة الجنان:١/ ٢٧٧].

* * *

القصة التاسعة والخمسون
تتوهم يا جاهل أن أباك مضى واسترحت

قال أحمد بن يوسف: حدثني هارون بن مَلُول، قال: لما مات أبي، ورثت منه مالاً جمّاً، ومستغلاًت نفيسة، وكان يقصرني على زيّ التجار، ويمنعني من التَّخرُّق والسّرف في الهيئة، فعمدت إلى أثوابِ وشْي سعيدي كانت في المتاجر التي خلّفها والدي فقطعتها، وقطعت لخدم - أرتبطهم للتجارة - من المُلَحَّم والديباج ما لا يتسمَّح به أحد من أبناء الترفه، وجلست في الوشي، وقام الغلمان بين يدي فيما قطعته لهم.

ووافانا إسحاق بن إبراهيم بن تميم مُفتقداً، فتأمّلني فقال: «لقد سرني بُعدُ يُتْمَتِك وحُسْن زِيِّك، بارك الله عليك، وأحسن إليك!» . ثم وافى جماعةٌ من إخوان أبي وأصفيائه، فوالله ما أنكر عليّ واحد منهم ما خرجت إليه من زي أسلافي، فلما كان في عشيّ ذلك اليوم، وافاني رسول إسحاق بن تميم: «عندي من لا تحتشمه، فتؤنس جماعتنا بحضورك؟ فقد أعجبني اليوم حُسْنُ زِيِّك!» . فزدت في الخِلْعة وركبت.

فلما دخلتُ إليه لم أفقد عنده أحداً من إخوان والدي، فلما توسّطت الصّحن ابتدرني الغلمان، وصاح بي إسحاق: «تتوهم يا جاهل أن أباك مضى واسترحت، ولا تعلم أن أباك خلّف لك هؤلاء الآباء بأسرهم، يردونك عن الخطأ بأليم العقوبة، ولا يشفعون في مصلحتك من عظيم ما كان أبوك يرقُّ عنه فيك» .

ثم بُطِحت في وسط الدار، فصحت بهم: «يا سادتي! والله ما قُرعت قط بمقرعة!» ، فقال إسحاق: «ولا أتيت بمثل هذا الفعل!» . وضُربت ضرباً مُبرحاً، ولم تُرفع المقرعة عني حتى حلفت لهم ألا أزيد على معرض والدي واقتصاده، فأقمت على هذا إلى اليوم.

وما زال عنه إلى أن توفي. [المكافأة وحُسْن العقبى:ص٢٠].

* * *

الزمرة السادسة

قصص في الإخلاص لله

تقديم:

الإخلاص لله رب العالمين هو البضاعة الرابحة التي لا عدل لها، فالمخلص يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً، وهو يقصد بعبادته وجه الله وحده، ولا يجعل لغير الله شيئاً من عبادته.

ومن كان حاله كذلك حالفه التوفيق، وكان أمره إلى خير دائماً، وهذه جملة من القصص تدور حول الإخلاص، لتري أصحابها طريق الخلاص.

القصة المتممة للستين

قدم الله في أمورك ولا تعدل عنه فإن الراحة في ظله

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني محمد بن يزيد، وكان حَسَنَ التقشّف، سديد الرأي، قال: أطلق جماعة من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظِنّة بالتلصّص، وكانوا ينزلون كورة أهْناس، فإني عند بعض أصحاب الأكسِية حتى وافاه غلام أصفر، خبيث المنظر، متمكّن من نفسه، من الخارجين من الحبس، فرحّب به، وجلس عنده، وهنّاه بسلامته. ثم سأل عن حاله، فقال: «خرجت من الحبس كما تراني، وما معي نفقة تبلّغني منزلي» .

فقلت له: «ما اسمك؟» ، فقال: «مسافر» ، فقلت له: «يا فتى! قدِّم الله في أمورك، ولا تعدل عنه، فإن الراحة في ظلِّه» ، فقال لي: «يا سيدي! الحقّ فيما قلته، والنفس أمّارة بالسوء، والتوفيق إلى الله دون خلقه» ، فأعجبني جوابه، وقلت له: «كم يكفيك إلى منزلك؟» فقال: «دينار!» ، فدفعته إليه، وقلت له: «إذا حدّثتك نفسك بإخافة السبيل، فابعث إليَّ حتى أمسك من رمقك، وأكفَّ فاقتك» .

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أهناس والبهْنسا بتسلط رجل من اللصوص في جمع كثير على كثير من المواضع، وكبسهم الضياع، وكانت لي أسلاف بسُمُسْطا ونواحيها، فخرجت لقبضها في رفقة من التجارة، قد حملوا البَزَّ والطيب وما يُحتاج إليه للأرياف، فإنا بنواحي المحرّقَة، حتى لقينا قطعةً من اللصوص، فساقتنا بأسرنا إلى موضع منقطع عن المارة، وفيه شاب أصفر راكبَ فرسٍ، ومعه مقدار خمسة فوارس، فعُرضت الجماعة عليه إلى أن بلغني، فتأملته فوجدته «مسافراً» ، فأكبَّ على راسي وتحفَّى بي، ثم قال لأصحابه: «أخطأ والله حزْرُكم، هذه رُفقة شيخي وسيدي، ووالله لا دخل إليّ منها شيء» .

وسار معنا حتى أخرجنا إلى الأمن، ثم قال لي: «أنا أعلم أنك لا تأكل طعامي، ولا تقبل شيئاً مني، وقد والله يا سيدي حبَّبْتَ إليّ مجانبة ما أنا بسبيله، فنشدتُك الله لما جعلتني طريقك في الرجعة!» . فتضمنت له ذلك.

ودخلنا مدينة أهناس، فشاع خبر ما أولاني في الناس، وكان المتقلّد لها رجلاً من أصحاب أحمد بن طولون - يُعرف بفَهْم - متقدماً عنده، أثيراً لديه فبعث إليّ، وعرف مذهبي، فقال: «قد احفيت المسألة عن هذا الغلام، فرأيته لا يرى القتل، ولا هَتْك الحريم، وإنما يتعلق بأطراف الأموال، ولا يبلغ الاجتياح، وأنا أسالك أن تسفر بيني وبينه، فإني أؤمّنه وأكرمه وأقلّده سيارة البلد» .

فرجعت في حاجة فهم إليه، فألقيته والجماعة بين يديه، فأدّيت إليه رسالته، وأعلمته أن هذا الرجل صحيح الضّمان، فقال: «يا سيدي! ما بيني وبينه في

الأعمال إلا أنس الناس به» . ثم قال لأصحابه: «من يساعدني على الخروج إلى الله عز وجل؟» ، فقالوا بأجمعهم: «نحن!» . فسار معي حتى إذا قَرُبنا من أهناس، وضع حبلاً في عنقه، وقال: «ادُخل بي في زِي الأسرَى وهذه الجماعة»، فدخلوا، والناس يبكون لما اتفق لهم من حُسْن الهداية، ورأى الناس عجباً من سَوْق شيخ مثلي ضعيف رجلاً قد أعجز خيل السلطان، فطلب فَهْم أن يقبلَ له خِلْعةً، فامتنع من ذلك، وأضاف أصحابه إلى فَهْم، وأقام إلى وقت الحج، فخرج إلى مكة راجلاً، ثم فقدته» . [المكافاة وحُسْن العقبى:ص٣٦].

* * *

القصة الحادية والستون
صراع الإنسان للشيطان

الصراع بين الإنسان والشيطان قديم وطويل، ولا يستطيع الإنسان التغلب على الشيطان إلا إذا اعتصم بالله، وأخلص دينه لله، وإذا كان الإنسان لا يرى تأثيره على الشيطان بعيني رأسه، فإن الوحي السماوي يخبرنا بالحق في نتيجة هذا الخصام. وقد صور الأدب العالمي عند جميع الأمم هذه القضية، في صور كثيرة متقاربة في مقصدها ومضمونها.

وقد نقل ابن القيم رحمه الله تعالى، عن ابن أبي الدنيا قصة من هذا النوع تبين أثر استقامة الإنسان على طاعة الرحمن في قهر الشيطان وإذلاله، وأثر انحرافه وضلاله عن الله في نشوة الشيطان وتمرده، ومشاركته صاحبه الضال في طعامه وشرابه وجماع زوجته.

قال ابن القيم في كتابه [عدة الصابرين:ص٣٥]: «ذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن شيطاناً لقي شيطاناً فقال: ما لي أراك شحيباً؟ فقال: إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر: لكنني مع رجل إن أكل لم يسمِّ الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسمِّ الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسمِّ الله فأجامعها معه». فمن اعتاد الصبر هابه عدوّه، ومن عزّ عليه الصبر طمع فيه عدوّه، وأوشك أن ينال منه غرضه.

القصة الثانية والستون
دعا البخاري على السلطان فزال مُلْكه وسُجن وهلك

قد يظن بعض الناس أن الدعاء المستجاب قصر على الأنبياء والمرسلين، ولا يكون في غيرهم إلا قليلاً، فالقرآن حدثنا كثيراً عن استجابة الله لرسله وأنبيائه، وهذا بسبب قلة علم من ظن مثل هذا الظن، فالله يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

ومن يكثر المطالعة في كتب العلماء والصالحين يجد فيها فيضاً من أخبارهم، استجاب الله فيه دعاءهم، وقَبِل رجاءهم.

ومن ذلك ما حكاه ابن كثير عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح في كتابه: [البداية والنهاية:١١/ ٢٧]. فقد حكى ابن كثير أن البخاري كان مستجاب الدعوة، ومن ذلك دعاؤه على سلطان بلاده، وهو خالد ابن أحمد الذهلي، فقد أراده أن يأتيه في داره حتى يسمع أولاده عليه، فأبى البخاري، وقال: في بيته يؤتي العلم والحكم.

فبقي في نفس الأمير من ذلك شيء، فاهتبل الفرص، ونفى البخاري من بلده لما تكلم بعض حاسديه فيه، واتهمه بأنه يقول: لفظي في القرآن مخلوق، وإنما نفاه لحب العامة للبخاري وإقبالهم على السماع منه، فأراد أن يصرفهم عنه، فخرج البخاري ودعا على السلطان خالد بن أحمد، فلم يمض شهر حتى عُزل ذلك السلطان، وزال مُلْكه، وسُجن في بغداد حتى مات.

القصة الثالثة والستون
دعا له فسقط القيد من رجليه

حكى ابن كثير عن بقي بن مخلد أنه كان مجاب الدعوة [البداية والنهاية:١١/٥٦] وجاءته امرأة فقالت: إن ابني أسرته الإفرنج، وإني لا أنام الليل من شوقي إليه، ولي دويرة أريد أن أبيعها لأستفكه، فإن رأيت أن تشير على احد يأخذها لأسعى في فكاكه بثمنها، فليس يقر لي ليل ولا نهار، ولا أجد نوماً ولا صبراً ولا قراراً ولا راحة.

فقال: نعم انصرفي حتى أنظر في ذلك إن شاء الله.

وأطرق الشيخ وحرّك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص من أيدي الفرنج، فذهبت المرأة فما كان إلا قليلاً حتى جاءت الشيخ وابنها معها، فقالت: اسمع خبره يرحمك الله.

فقال: كيف كان أمرك؟ فقال: إني كنت فيمن نخدم الملك ونحن في القيود، فبينما أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي، فأقبل علي الموكل بي، فشتمني، وقال: لِمَ أزلت القيد من رجليك؟ فقلت: لا والله ما شعرت به، ولكنه سقط ولم أشعر به، فجاؤوا بالحداد فأعادوه، وأجادوه وشدوا مسماره وأبدوه، ثم قمت فسقط أيضاً، فأعادوه وأكدوه فسقط أيضاً، فسألوا رهبانهم عن سبب ذلك، فقالوا: له والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها قد دعت لك، وقد استجيب دعاؤها أطلقوه، فأطلقوني وخفروني حتى وصلت إلى بلاد الإسلام، فسأله بُقي بن مخلد عن الساعة التي سقط فيها القيد من رجليه، فإذا هي الساعة التي دعا فيها الله له ففرج عنه» .

القصة الرابعة والستون
الذي غرقت سفينته فأنجاه الله

وحكى ابن كثير أيضاً [البداية والنهاية:١١/١٠٢] عن محمد بن نصر المروزي رحمه الله تعالى أنه قال: «خرجت من مصر قاصداً مكة، فركبت البحر ومعي جارية، فغرقت السفينة، فذهب لي في الماء ألفا جزء، وسلمت أنا والجارية، فلجأنا إلى جزيرة، فطلبنا بها ماء فلم نجد، فوضعت رأسي على فخذ الجارية، ويئست من الحياة، فبينا أنا كذلك إذا رجل قد أقبل وفي يده كوز فقال: هاه، فأخذته فشربت منه، وسقيت الجارية، ثم ذهب فلم أدر من أين أقبل ولا إلى أين ذهب، ثم إن الله سبحانه أغاثنا فنجانا من ذلك الغم» .

* * *

القصة الخامسة والستون
أخلصوا لله إخلاص من لا يجد فرجه إلا عنده

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني الحسن بن مسلم الأقريطشي، ورأيته بعد أن علت سِنُّه، وبلغ المائة سنة، وكان صحيح التمييز، سليم الحواس، قال: «ألحَّ غزونا على الروم، ونالهم منا مكروه عظيم، فوجد متملِّك الروم من هذا، ونذر أن يُخرِّب أقريطش، ولو أنفق ذخائر مملكته، فنظر إلى راهب محبوب تتعالم الروم زهادته، فأنزله من مُعتَبَّده، وضم إليه أكثر جيوشه، فوافى جمع لم يُحط بأقريطش مثله قط، ففزعنا إلى غلق الحصن، وتسرَع الروم إلى بناء مساكن لهم، وخرجوا من المراكب، وغلبونا على ميرة البلد، وما يكون من جواره، واشتد الحصار، ونزع السِّعر، وتحلق المأكول، وشاع الجهد.

ثم زادت المكاره حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعاً، وأجمعوا على أن يفتحوا الباب له، فقال لهم شيخ: «إني قد أراكم قد حُرمتم التوفيق في قُوّتكم وضعفكم؛ والصواب أن تقبلوا مني ما أشير به عليكم!» .

قالوا: «قل» ، قال: «اتركوا لله قبيح ما يحملكم عليه تظاهر النعمة والسلامة، وأخلصوا له إخلاص من لا يجد فَرَجه إلا عنده، وافصِلوا صبيانكم من رجالكم، ورجالكم من نسائكم» .

فلما ميّزهم هذا التمييز صاح بهم: «عِجُّوا بنا إلى الله!» ، فعجُّوا عَجَّةً واحدةً، وبكى الشيخ، وبكى أكثر الناس، ثم قال: «عِجُّوا أخرى، ولا تشتغلوا

بغير الله» ، فعَجُّوا عجَّةً أعظم من الأولى، وبكى الناس أيضاً، ثم عَجَّ الثالثة وعجَّ الناس معه، وقال: «تشرّفوا من الحصن، فإني أرجو أن يكون الله قد فرّج عنا» .

فحلف لي الحَسن، «إني تشرفت مع جماعة، فرأيت الروم قد قوّضوا رِحالهم، وركبوا مراكبهم، وفُتح باب الحصن، فوجدوا قوماً من بقاياهم، فسألوهم عن حالهم: فقالوا: «كان عميد الجيش بأفضل سلامة إلى اليوم، حتى سمع ضجّتكم في المدينة، فوضع يده على قلبه وصاح: «قلبي! قلبي! ثم طَفِئَ» .

فانصرف من كان معه إلى بلد الروم، وخرجنا عن الحصن، فوجدنا في تلك الأبنية من القمح والشعير ما وسع المدينة، وأعاد إليها خِصْبها، وكُفينا جماعتهم من غير قتال» [المكافاة وحُسْن العقبى:ص١٣٢].

* * *

القصة السادسة والستون
يا ولدي لا تحملني بمعصيتك على خلاف ما جبلت عليه

هذه قصة نقلها ابن القيم عن بعض العارفين في كتابه: «مدارج السالكين: ١/ ٢٤٥» فيها عظة وعبرة لمن رزق الاتعاظ والاعتبار، قال: حكى بعض العارفين «أنه رأى في بعض السكك باباً قد فُتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوىً غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مُرْتجاً (أي: مقفلاً)، فتوسّده، ووضع خدّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال، لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته، تقبله، وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت» .

والعبرة في القصة أن هذا هو حال الطفل مع أمه، وهو حال كل واحد من البشر مع ربه لو عقل، فالله مالكنا ومالك السماء التي تظلنا، والأرض التي تقلنا، عنده طعامنا وشرابنا، وبيده صحتنا وشفاؤنا، فإذا نحن عصيناه فعلينا أن نؤوب إليه، ونرجع إليه، وندق عليه الباب، ونلح عليه بالسؤال، حتى يقبلنا، ويرضى عنا، فيمسح آثامنا، ويدخلنا داره، ويبعدنا عن ناره وشرّها.

* * *

الزمرة السابعة

قصص فيها عظات وعبر

تقديم:

كل قصة من هذه القصص التي حوتها هذه الزمرة تحوي عظة وعبرة، ولا شك أن العِبَر والعظات تنفع الصالحين، وتقودهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

القصة السابعة والستون

إني استعرت من امرأة حلياً فكنت ألبسه وأعيره زماناً

بعض أهل العلم قد يغفل عما عنده من علم كان يبصر به الناس، ويعظهم به في أيامه الخوالي، فمن ذلك رجل فقيه عابد من علماء بني إسرائيل، ابتلاه الله بقبض زوجة له كان بها معجباً، فغفل عمّا كان يعزي به العباد، ووجد عليها وجداً شديداً، واحتجب عن الناس، فلا يقابل منهم أحداً، فاحتالت امرأة من بني إسرائيل عليه، وألحت على مقابلته، زاعمة أنها تريد أن تستفتيه في أمر يخصها، ولزمت بابه لا تفارقه، فأذن لها.

فضربت له مثلاً في صورة سؤال، فزعمت أنها استعارت حلياً من جارة لها، ومكث الحلي عندها زمناً طويلاً، ثم جاءت صاحبة الحلي تطلب حليها بعد

أزمان طويلة، سائلة إياه عن لزوم ردّ الحلي؟ فكان الجواب منه: نعم، يجب عليها أن ترد الحلي مهما طال مكث الحلي عندها، وهنا بصرته بحاله الذي هو فيه، فالزوجة كانت هبة ونعمة من الله تعالى، وعارية استردها واهبها سبحانه، فأبصر ما كان فيه، ونفعه الله بقولها.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قالت: «هلكت امرأة لي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها، فقال: إنه قد كان في بني إسرائيل رجل فقيه عابد عالِم مجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها معجباً، فماتت، فوجد عليها وجداً شديداً، حتى خلا في بيت، وأغلق على نفسه، واحتجب عن الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد.

ثم إن امرأة من بني إسرائيل، سمعت به فجاءته فقالت: إن لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا أن أشافهه بها، فذهب الناس، ولزمت الباب، فأخبر، فأذن لها.

فقالت: أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة حلياً فكنت ألبسه وأعيره زماناً، ثم إنها أرسلت إليّ فيه، أفأردُّه إليها؟ قال: نعم. قالت: والله إنه مكث عندي زماناً، فقال: ذلك أحق لردك إياه. فقالت له: يرحمك الله، أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك، وهو أحق به منك. فأبصر ما كان فيه، ونفعه الله بقولها» [عدة الصابرين:٩٥].

* * *

القصة الثامنة والستون

لا أباً لشانئيك أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها

كان عروة بن الزبير أحد علماء أهل المدينة في زمانه، وقد قدم هو وابن له الشام على الوليد بن عبدالملك، فأصاب عروة داءٌ لم ينفع معه علاج، وخاف الأطباء أن يسري الداء إلى بقية جسده، فنشروا رجله، وهو صابر محتسب، لا يصرخ، ولا يتأفف، وأخذ رجله بعد أن تم قطعها، وخاطبها قائلاً: «أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية، ولا إلى ما لا يرضي الله، ثم أمر فغسلت، وطيِّبت وكُفِّنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين» .

ولما عاد إلى قصره في العقيق وأقام به، كان من أجود من أحسن في عزائه عيسى بن طلحة، فقد قال له: «لا أبا لشانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: «أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك: عقلك، ولسانك، وبصرك، ويداك، وإحدى رجليك» .

لقد كانت تعزيته تعزية صادقة مؤثرة، فإن كان الله أخذ بعضه، فقد أبقى أكثره، وما ذهب منه لا يضير ما عنده من علم، وقد كان قطع رجله يضيره لو كان مصارعاً، وقد كان لهذه التعزية تأثير كبير في نفس عروة، وقد صرح بذلك قائلاً: «ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به»».

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبدالملك ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشيٍ، وله غديرتان، وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش،

فعانه، فخرج من عنده متوسناً، فوقع في اصطبل الدواب، فلم تزل الدواب تطؤه بأرجلها حتى مات.

ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر.

فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية، ولا إلى ما لا يرضي الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين.

فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزّونه، فجعل يقول: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢] ولم يزد عليه.

ثمَّ قال: لا أدخل المدينة، إنما أنا بها بين شامت بنكبة، أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصره بالعقيق، فأقام هنالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أباً لشانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته.

فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك. فقال له: يا عيسى! ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به.

ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره! وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ قال كان يمسح عليها» [عدة الصابرين:١٠٩].

❊ ❊ ❊

القصة التاسعة والستون
ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره

أورد ابن القيم رحمه الله هذه القصة في كتابه [الجواب الكافي:ص٧٠] ليدلل بها على أن الذنوب والمعاصي تضر، وليبين أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، وصاحب هذه القصة هو الصحابي أبو الدرداء رضي الله عنه، فقد شهده أحد أصحابه وهو جبير بن نفير في يوم فتح المسلمين لجزيرة قبرص منعزلاً حزيناً باكياً، فعجب لأمره، فالناس كلهم فرحون مسرورون بذلك الفتح المبين إلا هو، فقال له: «يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟» .

فأجابه إجابة معتبر بما أحله الله بأهل تلك الجزيرة من الهم والغم والنكال بسبب إضاعتهم أمر الله، لقد سلط الله المسلمين على أهل تلك الجزيرة بسبب كفرهم وضلالهم، ولو استقاموا على أمر الله لحفظ الله عليهم أنفسهم وأهلهم وديارهم وأموالهم.

قال ابن القيم: «قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان ابن عمرو، حدثني عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه، قال: «لما فتحت قبرص فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل، إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى» .

❊ ❊ ❊

القصة المتممة للسبعين
نسيان الشيخ أمجد الزهاوي أسماء من يحيطون به

كان للشيخ أمجد الزهاوي ذاكرة فذة، يتذكر فيها ما درسه من العلوم، حتى إنه ليذكر أن المسألة الفلانية درسها قبل أربعين عاماً في الكتاب الفلاني، ويذكر رقم الصفحة فيه، ولكنه مع ذلك كله كان عنده نسيان لأسماء الأشخاص المعاصرين له كما يقول تلميذه د. جابر العلواني في مقدمة كتاب ترجم له فيه باسم «الإمام أمجد الزهاوي» ، ويذكر في ذلك الكتاب (ص٢٠) أنه كان ينسى أسماء أبنائه، وكان إذا غادر تلامذته قاعة الدرس نسي أسماءهم، وإذا أراد مناداة واحداً باسمه لم يستطع ذلك، وقد أراد مرة من تلميذه طه أن ينقل رسالة شفوية إلى الشيخ الصواف، وكان الشيخ الصواف يلازم الشيخ أمجد في سفره وحضره، فلم يستطع تذكر اسمه، فكان يهمهم طويلاً، ويقول أخي الشيخ أبو عمامة الطويل، ولكنه لم يفلح في تذكر اسمه. وقد سأل طه العلواني شيخه عن السبب، فقال: «بعد أن اطلعت على ما ورد في القرآن والسنّة من مخاطر الغيبة، وإثم من يقترفها، سألت ربي أن لا يمكنني منها أبداً. فأنا الآن أنسى اسمك بمجرد أن تغادر المجلس، فلا أستطيع اغتيابك حتى لو أردت، حيث لا أتذكر غير شكلك، ويصعب علي وصفك» .

* * *

القصة الحادية والسبعون
ومن الأكل ما قتل

بعض الناس يأكلون ما يقتلهم، وهم لا يشعرون، من هؤلاء الإمام مسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح، فإنه على ما يذكر ابن كثير في [البداية والنهاية:١١/ ٣٤] حبس نفسه ليلة، ومنع أهله من الوصول إليه، ليبحث عن حديث أشكل عليه، وكانت عنده سلة تمر أهديت إليه، فكان طيلة ليله، يأكل تمرة، ويكشف عن حديث حتى أصبح، وقد أكل كل ما في السلة، وهو لا يشعر، فحصل بسبب ذلك ثقل، ومرض مرضاً كانت فيه وفاته.

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في [البداية والنهاية:١١/٥٧] أن سبب موت الحافظ الكبير بقي بن مخلد عالِم الأندلس في عصره أنه أكل لقمة من هريسة، فإذا هي حارة، فصاح صيحة عظيمة، ثم أغمي عليه إلى وقت الظهر، ثم أفاق، ثم لم يزل يشهد أن لا إله إلا الله إلى أن مات في وقت السحر.

كما ذكر ابن كثير في [البداية والنهاية:٦٥] أن سبب هلاك الخليفة المعتمد على الله شربه في ليلة وفاته شراباً كثيراً، وتعشيه عشاءً كثيراً.

* * *

الزمرة الثامنة

قصص الفرج بعد الضيق

تقديم:

قلما ينجو أحد من الشدة والضيق في حياته، حتى الملوك أصحاب السلطان، والأثرياء وأصحاب الجاه يصيبهم ما يصيب الناس من البلاء في الأنفس والأموال والأهل والأبناء، وقد أعلمنا الله تبارك وتعالى أن العسر يعقبه اليسر، وأن البلاء يعقبه الفرجة والرخاء، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

القصة الثانية والسبعون

أضاع ياقوتة قيمتها خمسون ألف درهم

عن عبيد الله بن محمد العبقسي، عن بعض تجار الكرخ ببغداد، قال: كنت أعامل رجلاً من الخراسانية، أبيع له في كل موسم متاعاً، فأنتفع من سمسرته بألوف دراهم.

فلما كان سنة من السنين تأخر عني، فأثر ذلك في حالي، وتواترت عليّ محن، فأغلقت دكّاني، وجلست في بيتي، مستتراً من دَيْن لحقني، أربع سنين.

فلما كان في وقت الحاجَ، تتبعت نفسي خبر الخراساني، طمعاً في إصلاح أمري به، فمضيت إلى سوق يحيى، فلم أعط له خبراً، فرجعت، فنزلت الجزيرة وأنا تعب مغموم.

وكان يوماً حاراً، فنزلت إلى دجلة، فتغسّلت، وصعدت، فابتلّ موضع قدمي، فقلعت رجلي قطعة من الرمل، انكشفت عن سَيرٍ.

فلبست ثيابي، وجلست مفكراً أولع بالسير، فلم أزل أجرّه حتى ظهر لي هميان موصول به، فأخذته، فإذا هو مملوء دنانير، فأخفيته تحت ثيابي، ووافيت منزلي، فإذا فيه ألف دينار.

فقويت نفسي قوة شديدة، وعاهدت الله – عز وجل – أنه متى صلحت حالي، وعادت، أن أعرّف الهميان، فمن أعطاني صفته، رددته عليه.

واحتفظت بالهميان، وأصلحت أمري مع غرمائي، وفتحت دكّاني، وعدت إلى رسمي من التجارة والسمسرة، فما مضت إلا ثلاث سنين حتى حصل في ملكي ألوف دنانير.

وجاء الحجَ، فتتبعتهم لأعرّف الهميان، فلم أجد من يعطيني صفته، فعدت إلى دكّاني.

فبينما أنا جالس، إذا رجل قائم حيال دكاني، أشعث، أغبر، عوافي السبال، في خلقة صفات الخراسانية وزيّهم، فظننته سائلاً، فأومأت إلى دريهمات لأعطيه، فأسرع الانصراف، فارتبت به فقمت، ولحقته، وتأمّلته، فإذا هو صاحبي الذي كنت أنتفع بسمسرته في السنة بألوف دراهم.

فقلت له: يا هذا، ما الذي أصابك؟ وبكيت رحمةً له.

فبكى، وقال: حديثي طويل، فقلت: البيت، وحملته إلى منزلي، فأدخلته الحمام، وألبسته ثياباً نظافاً، وأطعمته، وسألته عن خبره.

فقال: أنت تعرف حالي ونعمتي، وإني أردت الخروج إلى الحجّ في آخر سنة جئت إلى بغداد، فقال لي أمير البلد: عندي قطعة ياقوت أحمر كالكفّ، لا قيمة لها عظماً وجلالةً، ولا تصلح إلا للخليفة، فخذها معك، فبعها لي ببغداد، واشتر لي من ثمنها متاعاً طلبه، من عطر، وطرف، بكذا وكذا، وأحمل الباقي مالاً.

فأخذت القطعة الياقوت، وهي كما قال: فجعلتها في هميان جلد، من صفته كيت وكيت، ووصف الهميان الذي وجدته، وجعلتُ في الهميان ألف دينار عيناً من مالي، وحملته في وسطي.

فلما جئت إلى بغداد، نزلت أسبح عشياً في الجزيرة التي بسوق يحيى، وتركت الهميان وثيابي بحيث ألاحظها، فلما صعدت من دجلة، لبست ثيابي عند غروب الشمس، وأنسيت الهميان، فلم أذكره إلى أن أصبحت، فعدت أطلبه، فكأن الأرض ابتلعته.

فهوّنت على نفسي المصيبة، وقلت: لعل قيمة الحجر ثلاثة آلاف دينار، أغرمها له، فخرجت إلى الحجّ، فلما رجعت، حاسبتك على ثمن متاعي، واشتريت للأمير ما أراده، ورجعت إلى بلدي، فأنفذت إلى الأمير ما اشتريته، وأتيته، فأخبرته بخبري، وقلت له: خذ مني تمام ثلاثة آلاف دينار، عوضاً عن الحجر.

فطمع فيَ، وقال: قيمته خمسون ألف دينار، وقبض عليّ وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع، وأنزل بي صنوف المكاره، حتى أشهد عليّ في جميع أملاكي، وحبسني سبع سنين، كان يُردِّد عليّ فيها العذاب.

فلما كان في هذه السنة، سأله الناس في أمري، فأطلقني.

فلم يمكنني المقام ببلدي، وتحمّل شماتة الأعداء، فخرجت على وجهي، أعالج الفقر، بحيث لا أعرف، وجئت مع الحج الخراساني، أمشي أكثر الطريق، ولا أدري ما أعمل، فجئت إليك لأشاورك في معاش أتعلّق به.

فقلت: قد ردّ الله عليك بعض ضالّتك، هذا الهميان الذي وصفته، عندي، وكان فيه ألف دينار أخذتها، وعاهدت الله تعالى، أنني ضامنها لمن يعطيني صفة الهميان، وقد أعطيتني أنت صفته، وعلمت أنه لك، وقمت، فجئته بكيس فيه ألف دينار.

وقلت له: تعيّش بهذا في بغداد، فإنك لا تعدم خيراً إن شاء الله.

فقال لي: يا سيدي الهميان بعينه عندك، لم يخرج عن يدك؟ قلت: نعم.

فشهق شهقة، ظننت أنه قد مات معها، وغشي عليه، فلما أفاق بعد ساعة، قال لي: أين الهميان؟ فجئته به، فطلب سكيناً، فأتيته بها، فخرق أسفل الهميان، وأخرج منه حجر ياقوت أحمر، أشرق منه البيت، وكاد يأخذ بصري شعاعه، وأقبل يشكرني، ويدعو لي، فقلت له: خذ دنانيرك.

فحلف بكل يمين، لا يأخذ منها إلا ثمن ناقة، ومحمل، ونفقة تبلغه فبعد كل جهد أخذ ثلاث مائة دينار، وأحلّني من الباقي، وأقام عندي، إلى أن عاد الحاجّ، فخرج معهم.

فلما كان العام المقبل، جاءني بقريب مما كان يجيئني به سابقاً من المتاع، فقلت له: أخبرني خبرك.

فقال: مضيت، فشرحت لأهل البلد خبري، وأريتهم الحجر، فجاء معي وجوههم إلى الأمير، وأعلموه القصة، وخاطبوه في إنصافي.

فأخذ الحجر، وردّ عليّ جميع ما كان أخذه مني، من متاع، وعقار، وغير ذلك، ووهب لي من عنده مالاً، وقال: اجعلني في حلّ مما عذّبتك وآذيتك، فأحللته.

وعادت نعمتي إلى ما كانت عليه، وعدت إلى تجارتي ومعاشي، وكل هذا بفضل الله تعالى ثم بركتك، ودعا لي.

وكان يجيئني بعد ذلك، حتى مات. [الفرج بعد الضيق:٢/ ١٥٤].

القصة الثالثة والسبعون
وجدت جميع ذلك الجوهر لم تفقد منه واحدة

عن أبي علي بن أبي عبدالله بن الجصّاص، قال: سمعت أبي يقول: اتفق أني كنت يوم قبض عليَّ المقتدر جالساً في داري، وأنا ضيّق الصدر، ضيقاً شديداً، لا أعرف سببه.

وكان من عادتي إذا لحقني مثل ذلك، أن أخرج جواهر عندي في درج معزولة لهذا، من ياقوت أحمر، وأزرق، وأصفر، وحبّاً كباراً، ودرّاً فاخراً، يكون قيمة الجميع خمسين ألف دينار، وأكثر، وأستدعي صينية ذهب لطيفة، فأجعله فيها، وألعب به، وأقلّبه، فيزول ضيق صدري.

فاستدعيت ذلك الدرج، فجاؤوني به بلا صينية، فأنكرت ذلك، وأمرت بإحضارها، وفتحت الدرج، وفرّغت ما فيه في حجري، ورددته على الخادم، وأنفذته يجيئني بالصينية، وأنا جالس في بستان، في صحن داري، في يوم بارد، طيّب الشمس، وهو مزهر بصنوف الشقائق، والمناثير (نبات ذو زهر)، وأنا ألعب بتلك الجواهر، إذ دخل الناس إليّ بالصيّاح، والمكروه، والكبس، فقربوا مني. فدهشت، ولم أحبّ أن يظهروا على ما في حجري، فنفضت جميعه في ذلك الزهر في البستان، ولم ينتبهوا له.

فأخذت، فحملت، وجرى عليّ ما جرى من المصادرة، وبقيت في الحبس المدة الطويلة، وتقلّبت الفصول على البستان، فجفّ ما فيه، ولم يفكر أحد في قلعه، أو زراعته، وإثارته، وأغلقت الدار، فما قربها أحد، من أصحابي، ولا أعدائي، بعد الذي أخذ منها، وفرغت، ووقع اليأس من وجود شيء فيها.

ثم سهّل الله إطلاقي، فأطلقت، فحين جئت إلى داري، ورأيت الموضع الذي كنت جالساً فيه ذلك اليوم، ذكرت حديث الجوهر الذي كان في حجري، ونفضي إيّاه في البستان.

فقلت: ترى بقي منه شيء؟

ثم قلت: هيهات، هيهات، وأمسكت.

فلما كان في الغد، أخليت الدار، وقمت بنفسي ومعي غلام يثير البستان بين يدي، وأنا أفتّش شيئاً، شيئاً، عما يثيره، وأجد الواحدة بعد الواحدة، من ذلك الجوهر، وكلما وجدت شيئاً، حرصت على الإثارة، وطلب الباقي، إلى أن أثرت جميع البستان، فوجدت جميع ذلك الجوهر، ما ضاع لي منه واحدة.

فأخذته، وحمدت الله، وعلمت أنه قد بقيت لي بقية من الإقبال صالحة.

[الفرج بعد الضيق، نقلاً عن نشوار المحاضرة:٧/ ١٣٤].

❊ ❊ ❊

القصة الرابعة والسبعون
فيضحي غنيها فقيراً ويغنَى بعد بؤس فقيرها

قال المفضل بن محمد الضبي: أصبحت يوماً ببغداد، في خلافة المهدي، وأنا من أشد الناس إضاقة وضرّاً، لا أدري ما أعمل، حيرةً وفكراً.

فخرجت، فجلست على باب منزلي بالصراة، أفكر فيما أصنع، فإذا أنا برسول المهدي، قد وقف عليّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فراعني، وساء ظني، فقلت: أدخل، فألبس ثيابي. فقال: ما إلى ذلك سبيل.

فاشتد جزعي، وخشيت أن يأخذني بما كان بيني وبين إبراهيم بن عبدالله ابن حسن بن الحسن رضي الله عنهم.

فاستدعيت ثيابي، وجدّدت وضوءاً على الباب، ولم أخبر أهلي بقصّتي، ولا بما هجم من الغمّ عليّ.

وقلت: إن كان خيراً أو شراً، فسيبلغهم، فما معنى تعجيل الهمّ لهم. ومضيت مع الرسول، حتى دخلت على المهدي، وأنا في نهاية الجزع، فسلّمت، فردّ علي السلام.

فقلت في نفسي: ليس إلا خيراً. فقال: اجلس يا مفضل، فجلست.

فقال: أخبرني عن أمدح بيت قالته العرب، فتحيرت ساعة، لا أذكر شيئاً، ثم أجرى الله على لساني، أن قلت: قول الخنساء، فأشرق وجهه، وقال: حيث تقول ماذا؟

فقلت: حيث تقول:

وإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتمّ الهداة به ... كأنه علم في راسه نار

فاستبشر به، وقال: قد أخبرت هؤلاء بهذا، وأومأ إلى جماعة بين يديه، فلم يقبلوا مني، قلت: كان أمير المؤمنين، أحقّ بالصواب منهم.

قال: يا مفضّل، حدثني الآن. قلت: أي الأحاديث؟

قال: أحاديث الأعراب.

فلم أزل أحدثه، بأحسن ما أحفظ منها، إلى أن كاد المنادي بالظهر أن ينادي.

ثم قال لي: كيف حالك يا مفضّل؟

قلت: ما يكون حال رجل عليه عشرون ألف درهم دَيْناً حالاً، وليس في رزقه فضل لقضائها، وقصصت عليه قصة حالي ويومي في الإضاقة.

فقال: يا عمر بن بزيع، ادفع إليه الساعة، عشرين ألف درهم يقضي بها دينه، وعشرين ألف درهم يصلح به حاله، وعشرين ألف درهم يجهز بها بناته، ويوسّع بها على عياله.

ثم قال: يا مفضل، ما أحسن ما قال ابن مطير، في مثل حالك:

وقد تغدرُ الدنيا فيضحي غنّيها ... فقيراً ويَغنَى بعدَ بؤسٍ فقيرُها
وكم قد رأينا مِن تكدّرِ عيشةٍ ... وأخرى صفا بعد اكدرار غديرها

فأخذت المال، وانصرفت إلى بيتي بستين ألف درهم، بعد الإياس، وتوطين النفس على ضرب الرقبة. [الفرج بعد الشدة:٢/ ١٩٥].

القصة الخامسة والسبعون
ما أحب أن ازداد على عطاء رسول الله شيئاً

يروى أن عطاراً من أهل الكرخ، كان مشهوراً بالستر والأمانة، فركبه دَيْن، وقام من دكانه، ولزم بيته مستتراً، وأقبل على الدعاء والصلاة، إلى أن صلّى ليلة الجمعة صلاة كثيرة، ودعا، ونام، فرأى النبي ﷺ في منامه، وهو يقول له: اقصُد علي بن عيسى، وكان إذ ذاك وزيراً، فقد أمرته أن يدفع إليك أربعمائة دينار، فخذها وأصلح بها أمرك.

قال الرجل: وكان عليّ ستمائة دينار دَيْناً، فلما كان من الغد، قلت: قد قال النبي ﷺ : «من رآني في منامه فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»، فلِمَ لا أقصد الوزير.

فلما صرت ببابه، مُنعتُ من الوصول إليه، فجلست إلى أن ضاق صدري، وهممت بالانصراف، فخرج الشافعي صاحبه، كان يعرفني معرفة ضعيفة، فأخبرته الخبر.

فقال: يا هذا، الوزير والله في طلبك منذ السّحَر إلى الآن، وقد سألني عنك فأنسيتك، وما عرفك أحد، والرسل مبثوثة في طلبك، فكن بمكانك، ثم رجع فدخل، فلم يكن بأسرع من أن دعي بي، فدخلت إلى علي بن عيسى.

فقال لي: ما اسمك؟ قلت: فلان بن فلان العطار.

قال: من أهل الكرخ؟ قلت: نعم.

قال: أحسن الله إليك في قصدك إيّاي، فوالله ما تهنّأت بعيش منذ البارحة، فإن رسول الله ﷺ، جاءني البارحة في منامي، قال: أعطِ فلان بن فلان العطار من أهل الكرخ أربعمائة دينار يصلح بها شأنه، فكنت اليوم في طلبك، وما عرفك أحد.

فقلت: إن رسول الله ﷺ جاءني البارحة، فقال لي: كيتَ وكيت، ثم قال: هاتوا ألف دينار، فجاؤوه بها عيناً.

فقال: خذ منها أربعمائة دينار، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، وستمائة دينار هبة مني لك، فقلت: أيها الوزير ما أحب أن أزداد على عطاء رسول الله ﷺ شيئاً، فإني أرجو البركة فيه، لا فيما عداه.

فبكى عليّ بن عيسى، وقال: هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك.

فأخذت أربعمائة دينار، وانصرفت، فقصصت قصتي على صديق لي، وأريته الدنانير، وسألته أن يقصد غرمائي، ويتوسط بيني وبينهم، ففعل.

وقالوا: نمهله بالمال ثلاث سنين، فقلت: لا، ولكن يأخذون مني الثلث عاجلاً، والثلثين في سنتين في كل سنة ثلثاً، فرضوا بذلك، وأعطيتهم مائتي دينار، وفتحت دكّاني بالمائتي دينار الباقية، فما حال الحول إلا ومعي ألف دينار، فقضيت دَيْني، وما زال مالي يزيد، وحالي يصلح، والحمد لله. [الفرج بعد الشدة نقل عن نشوار المحاضرة للتنوخي:٢/ ١٢٧].

* * *

القصة السادسة والسبعون
يا يحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط

قال سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين سلام، عن والده: أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك.

فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى، بشِّرْ نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط. فقلت: يا رسول الله، ربما لا يُصدِّقني. فقال: قل له: بعلامة يوم حارم، وانتبه يحيى.

فلما صلّى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى. فقال نور الدين له: يا يحيى تُحدِّثني أو أُحدِّثك؟ فارتعد يحيى وخرس. فقال نور الدين: أنا أُحدِّثك، رأيت النبي ﷺ هذه الليلة وقال لك كذا وكذا. قال: نعم، فبالله يا مولانا ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟

فقال: لما التقينا العدو خفت على الإسلام، فانفردت ونزلت ومرّغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي من محمودٌ في البَيْن، الدِّينُ دينُك، والجُنْدُ جندُك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك.

قال: فنصرنا الله عليهم. [سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٣٨].

❊ ❊ ❊

القصة السابعة والسبعون
فرأيت فيها كتاباً إليَ وعليه اسم منزلي وكنيتي

عن أبي سعيد الحسين القطربّلي، قال: كان في جيراني رجل من أهل البيوتات، وكانت له نعمة، فزالت عنه، وساءت حاله جداً، وكانت له زوجة وأربع بنات، فحبلت زوجته، وأخذها المخاض في الليل.

قال: ولم تكن لي حيلة في الدنيا، فخرجت ليلاً، هارباً على وجهي، أمشي، حتى أتيت جسر النهروان، وأمّلت أن ألقى عاملها، وكان يعرفني، وأسأله تصريفي في شيء، وتعجيل رزق شهر، لأنفذه إلى زوجتي.

فوصلت إلى الموضع، وقد ارتفع النهار، فقعدت أستريح بالقرب من بقّال. فإذا فيج - وهو الساعي - قد جاء، فوضع مخلاته، وعصاه، ثم قال للبقّال: أعطني كذا وكذا، من خبز، وتمر، وإدام، فأعطاه، فأكل، ووزن له الثمن.

ثم فتح مخلاته، فميّز ما فيها من الكتب، فرأيت فيها كتاباً إليّ، وعليه اسم منزلي، واسمي، وكنيتي، ولا أعرف كاتبه.

فقلت للفيج: هذا الكتاب إليّ، فقال: أتدري ما تقول؟

فقلت له: قد قلت الصحيح، فإن مضيت إلى بغداد، لم تجد صاحب الكتاب. فقال: أهاهنا إنسان يعرفك؟ قلت: نعم، العامل.

قال: قم بنا إليه. فجئت، فلما دخلت على العامل، قال: ما أقدمك علينا يا فلان؟ فقلت له: قبل كل شيء، أعزك الله من أنا؟ وأين منزلي ببغداد؟ فقال: أنت فلان بن فلان، ومنزلك بمدينة السلام، في مدينة المنصور منها، في سكة كذا وكذا.

فقلت للفيج: عرفتَ صدقي؟ قال: نعم.

قال: فحدّثت العامل بحديثي، وأخذت الكتاب من الفيج، فإذا هو من بعض المستورين بالدينور، يذكر أن ابن عم كان لي قد توفي، بعد أن أوصى إليه أني وارثه، وسمّاني له، ووصف منزلي ببغداد.

قال: وقد كتب الرجل يذكر أن ابن عمي أوصى بالثلث من ماله في وجوه من أبواب القرب، وأن يسلّم باقي ثلثيه إليّ، وأنه باع من أثاثه ومنقوله، ما خاف فساده من تركته، وصرف الثلث منه في بعض ما كان أوصى به، وأنفذ إلي سفتجة بالثلثين من ذلك، مبلغها سبعمائة دينار وكذا وكذا ديناراً، تحلّ بعد أربعين يوماً، على تاجر في دار القطن بالكرخ.

وقال: الوجه أن تبادر إلى الدينور، وتبيع العقار والضياع، أو أبيع الثلث منها ليصرف في وجوهه، وتتمسك بالثلثين إذا شئت.

قال: فورد عليّ من السرور ما لا عهد لي بمثله، وحمدت الله عز جل. فقلت للفيج: قد وجب حقّك، وسأحسن إليك، وشرحت له قصتي، وأنه لا حبة معي فضة فما فوقها.

فجاء إلى البقال، فقال: زِنْ لأستاذي بكذا وكذا خبزاً، وبكذا وكذا إداماً، وما يريد غيرهما.

فتغدّيت، ووزن الفيج ثمن ذلك من عنده، واستأجر حمارين، فأركبني أحدهما، وركب هو الآخر، ووزن الأجرة من عنده.

وجئنا في بقية يومنا إلى بغداد، وقصدنا دار القطن، وفي النهار بقية صالحة، فأوصلت السفتجة إلى التاجر، فنظرها، وقال: صحيحة، إذا حل الأجل، فاحضر للقبض.

فقلت له: خذ حديثي، وافعل بعد ذلك ما يوفّقك الله تعالى له، وقصصت عليه قصّتي.

فقال لي: والله الذي لا إله إلا هو، إنك صادق؟ فحلفت.

فأخرج كيساً كان بقربه، فوزن لي منه مال السفتجة.

وصرت من وقتي إلى السوق، فاشتريت سويقاً، وسكراً، وعسلاً، وشيرجاً (الشيرج: زيت السمسم)، وخبزاً عظيماً، وخروفاً مشوياً، وحلوى، مما يصلح للنساء في النفاس، ومهداً، وفرشاً حسناً، وعطراً صالحاً، وشيئاً من ثياب.

وصرت إلى منزلي، وقد قرب العشاء الآخرة، فوجدت كل من فيه من النساء يلعنني، ويدعون عليّ.

فقدّمت الحمالين، ودخلت وراءهم، فانقلبت الدار بالدعاء لي، وصار الغم سروراً، ووجدت زوجتي قد ولدت غلاماً.

فعرّفت الصبيان خبر السفتجة (السفتجة: الحوالة التجارية)، والميراث، والفيج، وأعطيت الزوجة، والقابلة من الدنانير شيئاً.

وأقمت الفيج عندي أياماً، حتى أصلحت من أمري وأمر عيالي، ما وجب صلاحه، وخلّفت لهم نفقة، وأخذت من الدنانير نفقة، وأعطيت الفيج منها، فأجزلت له، واكتريت حمارين لي وله، واستصحبته إلى الدينور.

فوجدت فيها ما تحصّل لي ما خلفه ابن عمي نحو عشرة آلاف دينار، فبعت ذلك كله، وأخذت بحصّتي سفاتج إلى بغداد.

وعدت وقد فرج الله عني، وقد صلح حالي، وأنا أعيش في بقية تلك الحال إلى الآن. [الفرج بعد الشدة:٢/ ٢٣٧].

❊ ❊ ❊

القصة الثامنة والسبعون
ردّوا عليه عطاءه وأعطوه مائة ألف درهم

روي أن مصعب بن الزبير، أخذ رجلاً من أصحاب المختار بن أبي عبيد، فأمر بضرب عنقه.

فقال: أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الجميل الذي يستضاء به، فأتعلق بك، ثم أقول: يا رب، سل مصعباً فيم قتلني؟ فعفا عنه، وأطلقه.

فقال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش، فإنه لا عيش لفقير.

فقال: ردّوا عليه عطاءه، وأعطوه مائة ألف درهم.

قال: أشهد الله، أني قد جعلت نصفها لابن قيس الرقيّات.

قال: لم؟

قال لقوله:

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
يتّقي الله في الأمور وقد أفـ ـلح من كان همّه الاتقاء

فضحك مصعب، وقال: أرى فيك للصنيعة موضعاً، وجعله من ندمائه وحسن صلته. [الفرج بعد الشدة:٢/ ٣٧٨].

القصة التاسعة والسبعون

إن رؤياك ليست رؤيا نبي الله يوسف بن يعقوب

وحكى الحسن بن قحطبة، قال: استؤذن لشريك بن عبدالله القاضي على المهدي، وأنا حاضر، فقال: عليَّ بالسيف، فأحضر.

قال الحسن: فاستقبلتني رعدة لم أملكها، ودخل شريك، فسلَّم، فانتضى المهدي السيف، وقال: لا سلَّم الله عليك يا فاسق.

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن للفاسق علامات يُعرف بها، شرب الخمور، وسماع المعازف، وارتكاب المحظورات، فعلى أي ذلك وجدتني؟

قال: قتلني الله إن لم أقتلك.

قال: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟

قال: لأني رأيت في المنام، كأني مقبل عليك أكلّمك، وأنت تكلّمني من قفاك، فأرسلت إلى المعبر، فسألته عنها، فقال: هذا رجل يطأ بساطك، وهو يسرّ خلافك.

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - وإن دماء المسلمين لا تُسفك بالأحلام.

فنكَّس المهدي رأسه، وأشار إليه بيده: أن اخرج، فانصرف.

قال الحسن: فقمت فلحقته، فقال: أما رأيت صاحبك، وما أراد أن يصنع؟

قال: اسكت - لله أبوك - ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثلك. [الفرج بعد الشدة: ٢/ ٢٩٤].

القصة المتممة للثمانين
اذهب فقد غفرت لك الهفوة وتركتك للصبية

حكى الحسن بن محمد، قال: قال أحمد بن أبي دؤاد: ما رايت رجلاً قط نزل به الموت، وعاينه، فما أدهشه، ولا أذهله، ولا أشغله عما كان أراده، وأحبَّ أن يفعله، حتى بلغه، وخلّصه الله تعالى من القتل، إلا تميم بن جميل الخارجي، فإنه كان تغلب على شاطئ الفرات، فأُخذ، وأُتي به إلى المعتصم بالله.

فرأيته بين يديه، وقد بسط له النطع والسيف، فجعل تميم ينظر إليهما، وجعل المعتصم يصعّد النظر فيه، ويصوّبه.

وكان تميم رجلاً جميلاً، وسيماً، جسيماً، فأراد المعتصم أن يستنطقه، لينظر أين جنانه ولسانه، من منظره ومخبره.

فقال له المعتصم: يا تميم، تكلَّم، إن كان لك حجة أو عذر فأبده.

فقال: أما إذ أذِن أمير المؤمنين بالكلام، فأقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وقد خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، يا أمير المؤمنين، جبر الله بك صدع الدين، ولَمَّ شعث المسلمين، وأخمد بك شهاب الباطل، وأوضح نهج الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة، وتعمي الأفئدة، وايم الله، لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وكبر الجرم، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك، أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني واسرعهما إليّ، أولاهما بإمامتك، وأشبههما بخلافتك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق، ثم تمثل بهذه الأبيات:

أرى الموتَ بين السيفِ والنطع كامناً يلاحظني من حيثما أتلفَّتُ
وأكبر ظنّي أنك اليومَ قاتلي وأيُّ امرئ مما قضَى الله يفلتُ
ومن ذا الذي يدلي بعذرٍ وحجّةٍ وَسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَت
يعزّ على الأوس بن تغلب موقفٌ يهزّ عليّ السيف فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموتَ وإنّني لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ موقّت
ولكنّ خلفي صبيةً قد تركتُهم وأكبادُهم من حسرةٍ تتفتّت
كأني أراهم حين أُنعى إليهمُ وقد خمشوا حرّ الوجوه وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ أذودُ الأذى عنهم وإن متّ موّتوا
فكم قائلٍ لا يبعد الله دارَهُ وآخر جذلانٌ يسرّ ويشمت

قال: فتبسّم المعتصم، ثم قال: أقول كما قال رسول الله ﷺ : «إن من البيان لسحراً» .

ثم قال: يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل، اذهب، فقد غفرت لك الهفوة، وتركتك للصبية، ووهبتك لله ولصبيتك.

ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه، وعقد له على ولاية على شاطئ الفرات، وأعطاه خمسين ألف دينار. [مرآة الجنان، نقلاً عن المستجاد للتنوخي: ص١١٧].

* * *

القصة الحادية والثمانون
امتنعت عن الطعام بغير إذن الله فأطعمنيه بإذنه تعالى

ذكر المؤرخ محمد راغب الطباخ - يرحمه الله - : أن الشيخ إبراهيم الهلالي الحلبي العالِم الصالح الجليل، ذهب إلى الجامع الأزهر يطلب العلم، وأثناء طلبه للعلم أملق، وافتقر إلى النفقة، ومضى عليه أكثر من يوم وهو لا يجد ما يأكل، وجاع جوعاً شديداً، فخرج من غرفته في الأزهر ليسأل اللقمة والطعام، فشاهد باباً مفتوحاً، وشمّ منه رائحة الطعام الزكية.

فدخل الباب إلى المطبخ فلم يجد أحداً، ووجد طعاماً شهياً، فأخذ الملعقة وغمسها فيه، ثم لما رفعه إلى فمه انقبضت نفسه عن تناولها، إذ لم يؤذن له بتناوله، فتركها! وخرج بجوعه وسغبه إلى غرفته في رواق الأزهر.

ولم يمض عليه نحو ساعة إلا وأحد شيوخه ومعه رجل يدخلان عليه غرفته، ويقول له الشيخ: هذا الرجل الفاضل، جاءني يريد طالب علم صالح، أختاره لابنته زوجاً، وقد اخترتك له، فقم بنا إلى بيته ليتم العقد بينكما، وتكون من أهل بيته، فتحامل الشيخ إبراهيم على نفسه ممتثلاً أمر شيخه، وقام معهما، وإذا هما يذهبان به إلى البيت الذي دخله وغمس الملعقة في طعامه! .

ولما جلس عقد له والدها عليها وبادر الطعام، فكان الطعام الذي غمس الملعقة فيه ثم تركها، فأكل منه قائلاً في نفسه: امتنعت عنه بغير إذن الله، فأطعمنيه الله بإذنه مكرّماً معززاً زوجاً.

ثم قدمت معه تلك المرأة الصالحة إلى حلب بعد انتهائه من التحصيل، وكانت أم أبنائه الصالحين.

فسبحان من أغنى بالحلال عن الحرام، وقَسَم لكل مخلوق رزقه وطعامه وشرابه، فلا بد أنه آكله ونائله، وصدق القائل: ما قُدِّرَ لماضغيك أن يمضغاه، لا بد أن يمضغاه، فويحك كله بعز ولا تأكله بذل. [الفرج بعد الشدة:١/ ٢٢، نقلاً عن أعلام النبلاء بتاريخ حلب:٧/ ٢٣١].

* * *

القصة الثانية والثمانون
شلت يداه وعميت عيناه وجفت رجلاه سنة كاملة

عن أبي الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن البهلول التنوخي، قال: كان ينزل بباب الشام من الجانب الغربي من بغداد رجل مشهور بالزهد والعبادة، يقال له: لبيب العابد، لا يُعرف إلا بهذا.

وكان الناس ينتابونه، وكان صديقاً لأبي، فحدّثني لبيب، قال: كنت مملوكاً رومياً لبعض الجند، فربّاني، وعلّمني العمل بالسلاح، حتى صرت رجلاً، ومات مولاي بعد أن أعتقني.

فتوصلت إلى أن حصلت رزقه لي، وتزوجت بامرأته، وقد علم الله أنني لم أرد بذلك إلا صيانتها، فأقمت معها مدة.

ثم اتفق أني رأيت يوماً حيّة داخلة في جحرها، فأمسكت ذنبها، فانثنت عليّ، فنهشت يدي، فشلّت.

ومضى على ذلك زمان طويل، فشلّت يدي الأخرى، لغير سبب أعرفه، ثم جفّت رجلاي، ثم عميت، ثم خرست.

وكنت على ذلك الحال - ملقىً - سنة كاملة، لم تبقَ لي جارحة صحيحة، إلا سمعي، أسمع به ما أكره، وأنا طريح على ظهري، لا أقدر على الكلام، ولا على الحركة، وكنت أسقى وأنا ريّان، وأترك وأنا عطشان، وأهمل وأنا جائع، وأطعم وأنا شبعان.

فلما كان بعد سنة، دخلت امرأة إلى زوجتي، فقالت: كيف أبو علي، لبيب؟

فقالت لها زوجتي: لا حيَّ فيرجى، ولا ميت فيسلى.

فأقلقني ذلك، وآلمني ألماً شديداً، وبكيت، ورغبت إلى الله - عز وجل - في سري بالدعاء.

وكنت في جميع تلك العلل لا أجد ألماً في جسمي، فلما كان في بقية ذلك اليوم، ضرب عليَّ جسمي ضرباناً عظيماً كاد يتلفني، ولم أزل على ذلك الحال إلى أن دخل الليل وانتصف، فسكن الألم قليلاً، فنمت.

فما أحسست إلا وقد انتبهت وقت السحر، وإحدى يديّ على صدري، وقد كانت طول هذه السنة مطروحة على الفراش لا تنشال أو تشال.

ثم وقع في قلبي أن أتعاطى تحريكها، فحركتها، فتحركت، ففرحت بذلك فرحاً شديداً، وقوي طمعي في تفضّل الله - عز وجل - عليَّ بالعافية.

فحركت الأخرى فتحركت، فقبضت إحدى رجليّ فانقبضت، فرددتها فرجعت، ففعلت مثل ذلك مراراً.

ثم رمت الانقلاب من غير أن يقلبني أحد، كما كان يُفعل بي أولاً، فانقلبت بنفسي، وجلست.

ورمتُ القيام فأمكنني، فقمت ونزلت عن السرير الذي كنت مطروحاً عليه، وكان في بيت من الدار.

فمشيت ألتمس الحائط في الظلمة، لأنه لم يكن هناك سراج، إلى أن وقعت على الباب، وأنا لا أطمع في بصري.

فخرجت من البيت إلى صحن الدار، فرأيت السماء والكواكب تزهر، فكدت أموت فرحاً.

وانطلق لساني بأن قلت: يا قديم الإحسان، لك الحمد.

ثم صحت بزوجتي، فقالت: أبو علي؟

فقلت: الساعة صرت أبو علي؟ أسرجي، فأسرجت.

فقلت: جيئيني بمقراض، فجاءت به، فقصصت شارباً لي كان بزيّ الجند.

فقالت زوجتي: ما تصنع؟ الساعة يعيبك رفقاؤك.

فقلت: بعد هذا لا أخدم أحداً غير ربي.

فانقطعت إلى الله - عز وجل - وخرجت من الدار، وطلّقت الزوجة، ولزمت عبادة ربي.

وقال أبو الحسن، وخبر هذا الرجل معروف مشهور، وكانت هذه الكلمة: يا قديم الإحسان لك الحمد، صارت عادته، يقولها في حشو كلامه.

وكان يقال: إنه مجاب الدعوة، فقلت له يوماً: إن الناس يقولون: إنك رأيت النبي ﷺ في منام، فمسح يده عليك، فبرئت.

فقال: ما كان لعافيتي سبب غير ما عرّفتك. [الفرج بعد الشدة:١/ ٨٢٣ نقلاً عن نشوار المحاضرة:٢/ ٢٨٧].

* * *

الزمرة التاسعة

قصص العاشقين من الصالحين

تقديم:

يهجم العشق في بعض الأحيان على النفوس من غير استئذان، فيحل فيها ويلازمها، وكم من صاحب عقل راجح، وفكر ثاقب، ملكه العشق، وكان يظن أنه أبعد الناس عن أحوال العاشقين.

والعشق الفاسد هو الذي تصحبه الفاحشة بالمعشوق، أمّا العاشق العفيف الذي يأبى عليه إيمانه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، فهذا لا حرج عليه.

وهذه باقة من قصص العاشقين من الصالحين فيهم قدوة لمن ابتلي بمثل بلائهم، وأصابه ما أصابهم، فهذا النوع من العشق - كما يقول ابن القيم - «عشق الكرام والأئمة الأعلام» .

القصة الثالثة والثمانون

عشق الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز لجارية امرأته

قال ابن القيم في [الجواب الكافي:ص٣٠٩] : «هذا عمر بن عبدالعزيز عشق جارية امرأته فاطمة بنت عبدالملك بن مروان، وقصته مشهورة.

وكانت جارية بارعة الجمال، وكان معجباً بها، وكان يطلبها من امرأته، ويحرص على أن تهبها له فتأبى، ولم تزل الجارية في نفس عمر، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت، وكانت مثلاً في حسنها وجمالها، ثم دخلت على عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتي فلانة، فسألتني أن أهبها لك، فأبيت عليك، والآن فقد طابت نفسي لك بها. فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه، قال: عجّلي بها علي، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً. وقال لها: ألقي ثيابك، ففعلت. ثم قال لها: على رسلك، أخبريني لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟

فقالت: أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً، وكنت في رقيقه ذلك، قالت: فأخذني، وبعث بي إلى عبدالملك، فوهبني لفاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك. قال: وهل ترك ولداً؟ قالت: نعم. قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة. قال: شدي عليك ثيابك، واذهبي إلى مكانك.

ثم كتب إلى عامله على العراق: أن ابعث إليّ فلان بن فلان على البريد، فلما قدم قال له: ارفع إلي جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية، فدفعت إليه، ثم قال له: إياك وإياها، فلعل أباك قد وقع بها، فقال الغلام: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: لا حاجة لي بها.

قال: فابتعها مني، قال: لست إذاً ممن نهى نفسه عن الهوى، فلما عزم الفتى على الانصراف قالت: أين وجدُك بي يا أمير المؤمنين؟ قال: على حاله، ولقد زاد بي، ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه الله» .

* * *

القصة الرابعة والثمانون

عشق الفقيه داود الظاهري

أورد ابن القيم رحمه الله في كتابه [الجواب الكافي:ص٣١٠] قصة أبي بكر محمد بن داود الظاهري العالِم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب، وله قول في الفقه، وهو من أكابر العلماء، ليدلّ على أن من عشق مبتعداً عن الفاحشة في عشقه، فلا حرج عليه.

وذكر ابن القيم رحمه الله في قصة عشق داود أن نفطويه قال: دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف تجدك؟

قال: حبّ من تعلم أورثني ما ترى.

فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟

فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما: النظر المباح[١] والآخر: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة، فيمنعني منها ما حدثني أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «من عشق وكتم وعف، وصبر غفر الله له وأدخله الجنة»[٢] ثم أنشد:

---

(١) لا أدري كيف يكون النظر مباحاً، فإن النظر في مثل هذه الحال لا يكون مكرراً من غير ضرورة، وهذا لا يجوز شرعاً.

(٢) هذا الحديث لا يصح إسناده، وقد حكم بعدم صحته ابن القيم في زاد المعاد: (٤/ ٢٧٥)، تحقيق الأرنؤوط، وانظر سلسلة الضعيفة للألباني: (رقم: ٤٠٩) وانظر الجواب الكافي لابن القيم: (ص٣٥١).

انظر إلى السحر يجري من لواحظه   وانظر إلى دَعَجٍ في طرفه الساجي
وانظر إلى شعرات فوق عارضه   كأنهن نمال دَب في عاج

ثم أنشد:

ما لهم أنكروا سواداً بخديه   ولا ينكرون ورد الغصون؟
إن يكن عيب خده أن بدا شعر   فعيب العيون شعر الجفون

فقالت له: نفيت القياس في الفقه، وأثبته في الشعر؟ فقال: غلبة الوجد وملكة الوجه النفس دعت إليه، ثم مات من ليلته، وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة.

ومن كلامه فيه: «من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه. وذلك أن أول روعات اليأس تأتي القلب وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فإنها تأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى».

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير، فتناظرا في مسألة من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه. فقال: كان ذاك، أما الآن فإني أقول:

أنزه في روض المحاسن مقلتي   وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه   يصب على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري   فلولا اختلاسي وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم   فلست أرى وُداً صحيحاً مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج: تفخر علي؟ ولو شئت لقلت:

ومطـــاعِمَ كالـــشهد في نغماتـــه   قـــد بـــت أمنعـــه لذيـــذ ســـناته
بـــصبابة وبحـــسنه وحديثـــه   وأنـــزه اللحظـــات عـــن وجناتـــه
حتـــى إذا مـــا الـــصبح لاح عمـــوده   ولّـــى بخـــاتم ربـــه وبراتـــه

وقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقرّ به حتى يقيم شاهدين على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته، فقال ابن سريح: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك:

أنـــزه في روض المحاســـن مقلـــتي   وأمنـــع نفـــسي أن تنـــال محرمـــاً

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعهما لطفاً وظرفاً، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه.

* * *

القصة الخامسة والثمانون

لو ملكت منه ما ملك مني لم أبعه بالأموال الجزيلة

ذكر ابن كثير في [البداية والنهاية:١١/ ١٧٤] أن أحمد بن محمد المعروف بأبي حامد صاحب بيت المال اتفق في أيامه أن رجلاً من أهل العلم كانت له جارية يحبها حباً شديداً، فركبته ديون اقتضت بيع تلك الجارية في الدَّيْن، فلما أن قبض ثمنها ندم ندامة شديدة على فراقها، وبقي متحيراً في أمره، ثم باعها الذي اشتراها، فوصلت إلى ابن أبي حامد هذا، وهو صاحب بيت المال، فتشفع صاحبها الأول - الذي باعها في الدَّيْن - ببعض أصحاب ابن أبي حامد في أن يردها إليه بثمنها، وذكر له أنه يحبها، وأنه من أهل العلم، وإنما باعها في دَيْن ركبه لم يجد له وفاء.

فلما قال له ذلك لم يكن عند ابن أبي حامد شعور بما ذكر له من أمر الجارية، وذلك أن امرأته كانت اشترتها له، ولم تعلمه بعد بأمرها حتى تحل من استبرائها، وكان ذلك اليوم آخر الاستبراء، فألبستها الحلي والمصاغ وصنعتها له وهيأتها، حتى صارت كأنها فلقة قمر، وكانت حسناء، فحين شفع صاحبه وذكر أمرها بهت لعدم علمه بها.

ثم دخل على أهله يستكشف خبرها من امرأته، فإذا بها قد هيئت له، فلما رآها على تلك الصفة فرح فرحاً شديداً إذ وجدها كذلك من أجل سيدها الأول، الذي تشفع فيه صاحبه، فأخرجها معه، وهو يظهر السرور، وامرأته تظن أنه إنما أخذها ليطأها، فأتى بها إلى ذلك الرجل بحليها وزينتها، فقال له: هذه

جاريتك؟ فلما رآها على تلك الصفة في ذلك الحلي والزينة مع الحُسْن الباهر اضطرب كلامه، واختلط في عقله مما رأى من حسن منظرها وهيئتها. فقال: نعم. فقال: خذها بارك الله لك فيها.

ففرح الفتى بها فرحاً شديداً، وقال سيدي تأمر بمن يحمل ثمنها إليك؟ فقال: لا حاجة لنا بثمنها، وأنت في حلٍّ منه، أنفقه عليك وعليها، فإني أخشى أن تفتقر، فتبيعها لمن لا يردها عليك، فقال: يا سيدي وهذا الحلي والمصاغ الذي عليها؟ فقال: هذا شيء وهبناه لها لا نرجع فيه، ولا يعود إلينا أبداً، فدعا له واشتد فرحه بها جداً، وأخذها وذهب. فلما أراد أن يودع ابن أبي حامد قال ابن أبي حامد للجارية: أيما أحب إليك نحن أو سيدك هذا؟ فقالت: أما أنتم فقد أحسنتم إليّ وأعتنموني، فجزاكم الله خيراً، وأما سيدي هذا فلو أني ملكت منه ما ملك مني لم أبعه بالأموال الجزيلة، ولا فرطت فيه أبداً، فاستحسن الحاضرون كلامها، وأعجبهم ذلك من قولها، مع صغر سنها.

* * *

القصة السادسة والثمانون
ما في البصرة أقبح من أمهما ولا أحب إليَّ منها

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني أحمد بن أيمن كاتب أحمد بن طولون، قال: «دخلت بالبصرة إلى تاجر ذهَبَ عني اسمه، فرأيت بين يديه ابنين له في نهاية من النظافة، فلما رآني أُقبل بنظري إليهما، قال لي: «أحب أن تعوِّذهما» ، ففعلت، وقلت له: «استجدْتَ الأم فحسُنَ نسلك!» ، فقال: «ما بالبصرة أقبح من أمهما، ولا أحب إلي منها، ولها معي خبر عجيب» ، فسألته أن يحدِّثنيه، فقال:

«كنت أنزل الأُبُلَّة وأنا متعيش، فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت، وحملت من البصرة إلى الأُبُلَّة فربحت، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه، فأربح ولا أخسر، حتى كثر مالي، وتعالم الناس إقبالي، وآثرت السكنى بالبصرة، وعلمت أنه لا يحسن بي المقام بها بغير زوجة، ولم يكن بها أجل قدراً من جدِّ هذين الغلامين. وكانت له بنت قد عضلها، وتعرّض لعداوة خُطّابها، فحدّثتني نفسي بلقائه فيها، فجئته على خلوة، وقلت له: «يا عم! أنا فلان بن فلان التاجر» ، فقال: «ما خَفِيَ عني محلك ومحل أبيك!» .

فقلت: «قد جئتك خاطباً لابنتك» ، فقال: «والله ما بي عنك رغبة، ولقد خطبها إليَّ جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم، وإني لكاره من إخراجها عن حضني إلى من يقوِّمها تقويم العبيد» .

فقلت: «قد رفعها الله عن هذا الموضع، وأنا أسألك أن تُدخلني في عددك، وتخلطني بشملك» ، فقال: «ولابد من هذا!» ، قلت: «لابد، وهو زائد في فضلك عليَّ، واصطناعك إياي» ، فقال: «اغدُ عليَّ برجالك» .

فانصرفت عنه إلى ملأٍ من التجار ذوي أخطار، فسألتهم الحضور معي في غد، فقالوا: «إنك لتُحرّكنا إلى سعي ضائع»، قلت: «لابد من ركوبكم معي» فركبوا على ثقة من أنه يردهم، وغدونا عليه، فأحسن الإجابة وزوّجني، وأطعم القوم ونحر لهم، وانصرفوا.

ثم قال لي: «إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل، فليس لها ما يحتاج إلى التلوم عليه».

فقلت: «هذا يا سيدي ما أحبه». فلم يزل يحدثني بكل حَسَن حتى كانت المغرب، فصلاّها بي، ثم سبَّح وسبَحت، ودعا ودعوت، إلى أن كانت العتمة فصلاّها بي، وأخذ بيدي، فأدخلني إلى دار قد فُرشت بأحسن فرشة، بها خدم وجوارٍ في نهاية من النظافة، فما استقر بي الجلوس حتى نهض، وقال: «أستودعك الله، وقدّم الله لكما الخيرة، وأحرز التوفيق».

واكتنفني عجائز من شمله، فجلون ابنته عليّ، فما تأملت طائلاً وأرْخت الستور علينا، فقالت: «يا سيدي! إني سرٌّ من أسرار والدي، كتمه عن سائر الناس، وأفضى به إليك، ورآك أملاً لستره عليه، فلا تُخْفِر ظنّه فيك، ولو كان الذي يُطلب من الزوجة حُسْنُ صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها، لعظُمَت مِحْنتي. وأرجو أن يكون معي منهما أكثر مما قصّر بي في حُسْن الصورة» ثم وثبت فجاءت بمال في كيس، فقالت: «يا سيدي! قد أحل الله لك معي ثلاث حرائر، وما آثرته من الإماء، وقد سوّغتك تزوج الثلاث، وابتياع الجواري من مال هذا الكيس. فقد أوقفته على شهواتك، ولست أطلب منك إلا ستري فقط».

فقال لي أحمد: فحلف لي التاجر: «إنها ملكت قلبي مِلْكاً لم تصل إليه حَسَنةٌ بحُسْنها، فقلت لها: جزاءُ ما قدّمتيه ما تسمعيه مني: «والله لا أصبت من غيرك أبداً، ولأجعلنك حظّي من دنياي فيما يؤثره الرجل من المرأة!»، وكانت

أشفق النساء، وأضبطهم، وأحسنهم تدبيراً فيما تتولاه بمنزلي، فتبيّنت وقوع الخِيرة في ذلك، ولحقتني السِّنّ، فصارت حاجتي إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع. وشكر الله لي ما تلقيّت به جميل قولها، وحُسْن فعلها، فرزقني منها هذين الابنين الرائعين لك، ونحن منقطعون إلى جودِه فينا، وإحسانه إلينا» [المكافاة وحُسْن العقبى:ص٥٨].

❊ ❊ ❊

القصة السابعة والثمانون
هذا عندي أعزُّ من قومي ومن جاري

جلس «معاوية بن أبي سفيان» بمجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتَّح الجوانب، يدخل منه النسيم، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات، وكان يوماً شديد الحرّ؛ لا نسيم فيه، وكان وسط النهار، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه، وهو يتلظى من حر التراب، ويحجل في مشيه حافياً، فتأمله معاوية، وقال لجلسائه: هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة؟

فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين.

فقال: والله، إن كان هو قاصدي لأعطينّه، أو مستجيراً لأجيرنّه، أو مظلوماً لأنصرنّه، يا غلام، قف بالباب، فإن طلبني هذا الأعرابي، فلا تمنعه الدخول.

فخرج الغلام، فوافى الأعرابي، فقال: ما تريد؟

قال: أمير المؤمنين. قال: ادخل، فدخل وسلّم على «معاوية». فقال: ممن الرجل؟ فقال: من «تميم» .

قال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ قال: جئت إليك مشتكياً، وبك مستجيراً.

قال: ممن؟

قال: من عاملك: «مروان بن الحكم» . وأنشد:

معاويَ يا ذا الجود والحلم والفـضل ... ويا ذا الندى والعلم والرُشْد والبَذْل
أتيتك لَمّا ضـاق في الأرض مـذهبي ... فيا غوثُ لا تقطع رجائي من العَذْل
وجُدْ لي بإنصافِ من الجـائر الـذي ... بلانـي بـشيء كـان أيـسَرُهُ قتلـي
سباني (سُعْدَى) وانـبرى لخـصومتي ... وجـارَ ولم يَعْـدلْ وغاصَـبَني أهلـي
وهـــمَّ بقتلـــي غـــيرَ أنّ منـــيَّتي ... تأنّت ولم أستكمل الرزق من أجلـي

فلما سمع معاوية إنشاده، والنار تتوقد من فيه.

قال: مهلاً يا أخا العرب، اذكر قصتك، وافصح عن أمرك.

فقال: يا أمير المؤمنين، كانت لي زوجة، وهي ابنة عمي، وكنت لها محبّاً، وبها كلفاً، وكنت بها قرير العين، طيّب العيش، وكان لي صِرْمَة من الإبل؛ أستعين بها على قيام حالي، وكفاف أودي، فأصابتني سَنَة ذات حطمة، شديدة، اذهبت الخُفّ والظُلْف، وبقيت لا أملك شيئاً.

فلما قلّ ما بيدي، وذهب مالي، وفسد حالي، صِرْتُ مُهاناً ثقيلاً على وجه الأرض، قد أبعدني من كان يشتهي القُرْب مني، وَازوَرَّ عني من كان يرغب في زيارتي، فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، وشرّ المآل، اخذها مني وجحدني، وطردني، وأغلظ عليّ، فأتيت إلى عاملك، «مروان بن الحكم» مستصرخاً به، راجياً نصرته، فأحضر أباها، وسأله عن حالي.

فقلت: أصلح الله الأمير!! إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فليفعل.

فبعث إليها مروان، وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وعليّ منكراً، فانتهرني، وأظهر لي الغضب، وبعث بي إلى السجن.

فبقيت كأنما خررت من السماء إلى مكان سحيق، ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار لها، وعشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من الأعرابي.

فرغب أبوها، في البذل وأجابه إلى ذلك، فلما كان من الغد، بعث إليّ وأخرجني من السجن، وأوقفني بين يديه، ونظر إليّ كالأسد الغضبان، وقال: يا أعرابي، طلّق «سُعْدَى» ، قلت: لا أطلقها.

فسلَّط عليّ جماعة من غلمانه، فأخذوا يعذبونني بأنواع العذاب، فلم أجد بدّاً من ذلك؛ ففعلت، ثم أعادني إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدّتها، فتزوجها، ودخل بها، وأطلقني بعد ذلك، وقد أتيتك راجياً، وبك مستجيراً، وأنشد:

في القلـــب مـــني نـــارُ والنـــار فيهـــا اســـتعارُ
والجـــسم منّـــي ســـقيمٌ فيـــه الطبيـــبُ يحـــارُ
وفي فـــؤادِيَ جَمْـــرٌ والجمـــر فيـــه شـــرارُ
والعـــينُ تهطـــل دمعـــاً فـــدمعها مـــدرارُ
ولـــيس إلا بربـــيَ وبـــالأمير انتـــصارُ

فاضطرب وخرّ مغشياً عليه، وصار يتلوى كالحيّة المقتولة، فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده، قال: تعدّى وظلم «ابن الحكم» في حدود الدين، واجترأ على حُرَم المسلمين، ثم قال: والله، يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى مروان بن الحكم: «قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك، وانتهكت حُرمةً من حُرَم المسلمين، وتعدّيت في حدود الدين، وينبغي لمن يكون والياً أن يغضّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته» .

ثم كتب إليه بعدُ كلاماً اختصرته، يقول فيه:

وَلَيتَ ويحك أمراً لست تدركه ... فاستغفر الله من فعل امرئ زانِ
وقد أتانا الفتى المسكين منتحباً ... يشكو إلينا ببَثٍ ثمَّ أحزانِ
أُعطِي الإلهَ يميناً لا أكفِّرُهَا ... نعم وأبرأ من ديني وديّاني
إنْ أنت خالفتني فيما كتبتُ به ... لأجعلنّك لحماً بين عُقبان
طلّقْ سعادَ وجهِّزها معجّلة ... مَعَ «الكميت» ومعْ «نضْر بن ذيْبان»

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت، ونضر بن ذيبان وكان يستنهضهما في الحوائج لأمانتهما.

قال: فأخذاه، وسارا حتى قدما المدينة، فدخلا على «مروان بن الحكم» فسلّما إليه الكتاب، واعلماه بصورة الأمر، فجعل مروان يقرؤه ويبكي، وقام إلى «سُعْدَى» فطلّقها بحضرة «الكميت» و«نضْر بن ذيبان» ، وجهزّها إليه مع الرسولين المذكورين، وكتب «مروان» كتاباً اختصرت منه فصلاً، قال فيه:

لا تعجَلَنَّ أمير المؤمنين فقد ... أوفى بنذرك في رفق وإحسان
وما أتيت حراماً حين أعجبني ... فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
اعْذِرْ فإنَّك لو ابصرتها لجرت ... منك الأماني على تمثال إنسان
فسوف تأتيك شمس ليس يعدلها ... عند الخليفة من إنس ولا جان

وبقية من هذه القصيدة أبيات أعرضت عن ذكرها.

وختم الكتاب، ودفعه إلى الرسولين، وسلّمهما الجارية، وسارا حتى وصلا إلى أمير المؤمنين، فسلّما إليه كتاب مروان، فقرأه معاوية، فقال: أحسن في

الطاعة، وأطنب في ذكر الجارية، وحسنها، ثم طلب الجارية، فلما رآها دُهِشَ لحسنها وجمالها، وعجب من هيئتها، وقدّها، واعتدالها، فخاطبها، فوجدها أفصح النساء، بعذوبة منطق، فقال: عليّ بالأعرابي.

فأتى إليه، وهو في غاية من سوء الحال.

فقال: يا أعرابي، هل لك عن «سُعْدى» من سلوة، وأنا أعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكار، مع كل واحدة ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال ما يكفيك في كل سنة، ويعينك على صحبتهن؟ فلما سمع الأعرابي كلام معاوية، شهق شهقة ظنّ معاوية أنه قد مات.

فقال له معاوية: ما بالُك؟

قال: شرُّ بالٍ، وأسوأ حال، استجرت بعَدْلك من جور «ابن الحكم» ، فبمن أستجير من جورك، وأنشد:

لا تجعلنّي فَدَاك الله من مَلِكٍ ... كالمستجير من الرَّمَضاء بالنار

ارْدُدْ سعاد على حيرانَ مكتئبٍ ... يمسي ويصبح في همّ وتذكار

أطلق وثاقي ولا تبخلْ عليَّ بها ... فإن فعلتَ فإني غير كفّار

ثم قال: والله يا أمير المؤمنين، لو أعطيتني ما حوته الخلافة، ما اعتضته دون «سُعْدَى» وأنشد:

أبي القلب إلاّ حبَّ «سعدى» وَبُغِّضت ... إليَّ نساءٌ ما لهنَّ ذنوبُ

فقال معاوية: يا أعرابيّ، أنت مقرّ أنك طلقتها، ومروان أقرّ أنه طلقها، ونحن نخيّرها؛ فإن اختارت سواك زوّجناها منه، وإن اختارتك رجعناها إليك.

قال: افعل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقال لها معاوية: ما تقولين يا سعدى؟ أيُّنا أحبّ إليك: أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه وقصوره، وما تصيرين عنده، أو «مروان بن الحكم» في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابي؛ في جوعه وفقره وسوء حاله؟

فانشدت:

هـذا وإن كـان ذا جـوع وإضـرار	أعزّ عندي من قـومي ومـن جـاري
وصـاحبِ التـاج أو مـروانَ عامِلِـه	وكـلٌّ ذي درهـم عنـدي وديـنـار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته من أجل حادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، وإن لي معه صحبةً قديمةً لا تُنسى، ومحبةً لا تُبلى، وأنا أحق من صبر معه على الضراء، كما تنعّمت معه في السراء.

فتعجب معاوية من عقلها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وكسوة، وللأعرابي بمثل ذلك، وردّها بعقد صحيح. [المختار من نوادر الأخبار:ص٩٥].

❊ ❊ ❊

القصة الثامنة والثمانون
عشق خالد بن يزيد بن معاوية

حج عبدالملك بن مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد هذا من رجالات قريش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبدالملك بن مروان، فبينما هو يطوف بالبيت، إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام، فعشقها عشقاً شديداً، ووقعت بقلبه وقوعاً متمكناً، فلما أراد عبدالملك الرجوع، همّ خالد بالتخلف عنه.

فوقع بقلب عبدالملك تهمةٌ، فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أمير المؤمنين، رَمْلةُ بنت الزبير، رأيتها تطوف بالبيت، فأذهلت عقلي، واللهِ ما أبديتُ إليك ما بين جوانحي حتى عيل صبري، ولقد عرضت النوم على عيني فلم تقبله، والسلوَّ على قلبي، فامتنع منه.

فأطال عبدالملك التعجب من ذلك، وقال: ما كنت أقول إن الهوى يستأسر مثلك، قال: فإني لأشدُّ تعجباً من تعجّبك مني، ولقد كنت أقول: إن الهوى لا يتمكَن إلا من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب. أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء، ووصفهنَّ، والتغزُّل، فمال طبعهم إلى النساء، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى، فاستسلموا إليه منقادين.

وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبّه لها، ولا يشغله عنه شيء، فضعُفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم، فما رأيت نظرةً حالت بيني وبين الحزم، وحسنت عندي ركوب الإثم، مثل نظرتي هذه.

فتبسّم عبدالملك فقال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتني هذه البلية قبل وقتي هذا.

فوجّه عبدالملك إلى الزبير يخطب رملة على خالد، فذكروا لها ذلك، فقالت: لا والله أو يطلّق نساءه! .

فطلق امرأتين كانتا عنده، ورحل بها إلى الشام. [دكانة الكتب:ص١٢٦].

* * *

القصة التاسعة والثمانون

عشق عتبة بن الحباب ريّا بنت الغطريف

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [الجواب الكافي:ص٣١٤] قصة عشق عتبة هذا، وكيف قام عبدالله بن معمر القيسي وجماعة من أبناء الأنصار في السعي حتى زوّجوه بمن يحب.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قال عبدالله بن معمر القيسي: حججتُ سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة النبي ﷺ ، فبينما أنا جالس ليلة بين القبر والمنبر إذ سمعت أنيناً فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

أشجاك نوح حمائم السدر ... فأهجنَ منك بلابلَ الصدرِ

أم عزَّ نومَك ذكرُ غانيةٍ ... أهدت إليك وساوسَ الفكرِ

يا ليلةً طالت على دَنِفٍ ... يشكو السهاد وقلة الصبرِ

أسلمتَ مَن تهوَى لحرِّ جوًى ... متوقِّداً كتوقُّدِ الجمرِ

فالبدرُ يشهدُ أنني كَلِفٌ ... أصلَى بحب شبيهةِ البدرِ

ما كنتُ أحسبني أهيم بها ... حتى بُليتُ وكنتُ لا أدري

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين، ثم أنشد يقول:

أشـجاكَ مـن ريَّـا خيـالٌ زائـرُ ... والليـلُ مـسوَدُّ الـذوائبِ عـاكِرُ
واغتـالَ مهجتَـكَ الهـوى برَسِيسِهِ ... واهتـاجَ مقلتَـكَ الخيـالُ الزائـرُ
ناديـتُ ريَّـا والظـلامُ كأنَّـهُ ... يَـمٌّ تلاطـمَ فيـه مـوجٌ زاخـرُ
والبـدرُ يـسري في الـسماءِ كأنَّـهُ ... مَلِـكٌ تُرَجِّـلَ والنجـومُ عـساكِرُ
وترى به الجوزاءَ ترقُصُ في الدُّجَى ... رَقْـصَ الحبيـبِ عـلاهُ سُكرٌ ظـاهرُ
يـا ليـلُ طُلتَ علـى مُحِـبٌّ مالَـهُ ... إلا الـصباحُ مـساعدٌ ومُـؤازرُ
فأجابني: مُتْ حتفَ أنفِكَ واعلمَنْ ... أن الهـوى لهـوَ الهـوانُ الحاضِـرُ

قال: وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده، فرأيت شاباً مقتبلاً شبابه، قد خرق الدمعُ في خَدِّه خرقين، فسلمتُ عليه، فقال: اجلس من أنت؟ فقلت: عبدالله بن معمر القيسي. قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، كنت جالساً في الروضة فما راعني إلا صوتك، فبنفسي أفديك، فما الذي تجده؟

فقال: أنا عتبة بن الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوتُ يوماً إلى مسجد الأحزاب، فصليت فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال، كاملة الملاحة، فوقفت علي وقالت: يا عتبة، ما تقول في وصل من يطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً، ولم أقف لها على أثر. فأنا حيران أنتقل من مكان إلى آخر، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس، ثم أنشد يقول:

أراكـم بقلـبي مـن بـلادٍ بعيـدةٍ ... فيا هل تُرَوني بالفؤادِ على بُعدِي؟
فـؤادي وطـرفي يأسـفانِ عليـكُم ... وعنـدكم روحـي وذكـرُكم عنـدِي
ولـستُ أَلَـذَّ العـيشَ حتـى أراكُـم ... ولو كنتُ في الفردوسِ من جنةِ الخُلـدِ

فقلت: يا ابن أخي تُبْ إلى ربك واستغفره من ذنبك، فبين يديك هول المطلع، فقال: ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارظان، فلم أزل معه حتى طلع الصباح، فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتك، فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طلعتك، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب، فسمعته يقول:

يـا للرجـالِ ليـومِ الأربعـاءِ أمَـا ... ينفَكُّ يُحدِثُ لي بعـدَ النُّهَـى طربَـا
مـا إن يَـزالُ غـزالٌ فيـك يقلقـني ... يـأتي إلى مـسجدِ الأحـزابِ منتقِبـا
يخـبر النـاسَ أن الأجـرَ هِمَّتُـهُ ... ومـا أتـى طالبـاً للأجـر محتـسبا
لو كان يبغـي ثوابـاً مـا أتـى صَـلِفاً ... مُـضَمَّخاً بفتيـتِ المـسكِ مُختـضِبا

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر، فإذا بالنسوة قد أقبلن، وليست الجارية فيهن. فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة، فسألتهن عن الجارية، فقُلْن: هي ريا بنت الغطريف السلمي، فرفع عتبة إليهن رأسه، وقال:

خليلـيَّ ريَّـا قـد أجـدَّ بُكورُهـا ... وسارت إلى أرضِ الـسماوةِ عيرُهـا
خليليَّ إنـي قـد عَـشيتُ مـن البُكَـا ... فهل عنـدَ غـيري مقلـةٌ أسـتعيرُها؟

فقلت له: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضا، فقم بنا إلى مسجد الأنصار، فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فسلمت، فأحسنوا الرد، فقلت: أيها الملأ ما تقولون في عتبة وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب.

قلت: فإنه قد رمى بداهية من الهوى، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة، فقالوا: سمعاً وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على

منازل بني سليم، فأعلم الغطريف بنا، فخرج مبادراً فاستقبلنا، وقال: حُيِّيتم يا كرام، فقلنا: وأنت فحياك الله، إنا لك أضياف.

فقال: نزلتم أكرم منزل، فنادى: يا معشر العبيد أنزلوا القوم، ففرشت الأنطاع والنمارق، وذبحت الذبائح، فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا، فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر.

فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها، وإني أدخل أخبرها، ثم دخل مغضباً على ابنته، فقالت: يا أبت ما لي أرى الغضب في وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني، فقالت: سادات كرام، واستغفر لهم الرسول ﷺ، فلمن الخطبة منهم؟ قال: لعتبة بن الحباب. قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا: أنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد. فقال: أقسمت لا أزوجك إياه أبداً، ولقد نُمي إليّ بعض حديثك معه. فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً، فأحسن لهم الرد، فقال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ عليهم المهر، فإنهم قوم يرجعون ولا يجيبون، فقال: ما أحسن ما قلت.

فخرج مبادراً عليهم، فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكني أريد لها مهر مثلها، فمن القائم به؟ فقال عبدالله بن معمر: أنا. فقل ما شئت، فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة من عنبر، فقال عبدالله: لك ذلك كله. فهل أجبت؟ قال: نعم.

قال عبدالله: فأنفذت نفراً من الأنصار إلى المدينة، فأتوا بجميع ما طلب، ثم صنعت الوليمة، فأقمنا على ذلك أياماً، ثم قال: خذوا فتاتكم، وانصرفوا مصاحبين، ثم حملها في هودج، وجهّزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه وسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرج علينا خيل

تريد الغارة أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة، فقتل منهم رجالاً، وجندل منهم آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دماً، فسقط إلى الأرض، وأتانا نجدة، فطردت الخيل عنا، وقد قضى عتبة نحبه، فقلنا: واعتبتاه، فسمعتنا الجارية، فالقت نفسها عن البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وأنشدت:

تَصَبَّرتُ لا أني صبرت وإنما أعلِّلُ نفسي أنها بكَ لاحقَةْ

فلو أنصفَتْ روحي لكانت إلى الردَى أمامَكَ من دون البريَّةِ سابقَةْ

فما أحدٌ بعدي وبعدَك مُنصِفٌ خليلاً ولا نفسٌ لنفسٍ موافِقَةْ

ثم شهقت، وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبراً واحداً، ودفناهما فيه، ثم رجعت إلى المدينة، فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز، ووردت المدينة، فقلت: والله لآتين قبر عتبة أزوره، فأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر، فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين».

* * *

الزمرة العاشرة

قصص عجائب الله في خلقه

تقديم:

هذه الباقة من القصص تتحدث عن عجائب الله في خلقه، وعجائب الله في خلقه كثيرة، ومن تأمل فيها بعناية زادته إيماناً، وهدته طريقاً مستقيماً.

القصة المتممة للتسعين
قام من قبره بعد دفنه

ذكر العلاّمة ابن كثير رحمه الله في كتابه [البداية والنهاية:١١/١١٨] أن أبا سعيد محمد بن يحيى، وكان يدعى «بحامل كفنه» توفي، فغُسل، وكُفِّن، وصلي عليه ودُفن، فلما كان الليل جاء نباش ليسرق كفنه ففتح عليه قبره، فلما حل عنه كفنه استوى جالساً وفر النباش هارباً من الفزع، ونهض محمد بن يحيى هذا فأخذ كفنه معه، وخرج من القبر، وقصد منزله، فوجد أهله يبكون عليه، فدق عليهم الباب، فقالوا: من هذا؟ فقال: أنا فلان. فقالوا: يا هذا لا يحل لك أن تزيدنا حزناً إلى حزننا. فقال: افتحوا، والله أنا فلان، فعرفوا صوته، فلما رأوه فرحوا به فرحاً شديداً، وأبدل الله حزنهم سروراً، ثم ذكر لهم ما كان من أمره وأمر النباش، وكأنه قد أصابته سكتة، ولم يكن قد مات حقيقة، فقدّر الله بحوله وقوته أن بعث له هذا النباش، ففتح عليه قبره، فكان ذلك سبب حياته، فعاش بعد ذلك عدة سنين.

القصة الحادية والتسعون
من عجائب النمل

النملة حيوان ضعيف، ولكن الله أعطاها أمراً عظيماً من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادخاره ودفع الآفة، وذكر ابن القيم رحمه الله قصة فيها عجب وغرابة في كتابه [مفتاح دار السعادة:٢/ ١٥٠].

قال: «أخبر بعض الصادقين أنه شاهد منهن - يوماً - عجباً، قال: رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة، فزاولته فلم تطق حمله من الأرض، فذهبت غير بعيد، ثم جاءت معها بجماعة من النمل، قال: فرفعتُ ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودُرْن معها، فلم يجدن شيئاً فرجعن، فوضعتُه، ثم جاءت فصادفته فزاولته، فلم تطق رفعه من الأرض فذهبتْ غير بعيد ثم جاءت بهنَّ فرفعتُه، فدُرْن حول مكانه فلم يجدن شيئاً، فذهبن، فوضعتُه فعادت، فجاءت بهن فرفعتُه، فدُرْن حول المكان فلما لم يجدن شيئاً تحلّقن حلقةً، وجعلن تلك النملة في وسطها، ثم تحاملن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر» .

❊ ❊ ❊

القصة الثانية والتسعون
ألقى الرخ الحسكة في فم الحية

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٦٤] عجيبة من عجائب الرخ، فقال: «لقد أخبر بعض من شُهد بصدقه أنه رأى رُخّاً – وهو طائر معروف – قد عشش في شجرة، فنظر إلى حيّة عظيمة قد أقبلت نحو عُشّه فاتحة فاهاً لتبتلعه، فبينما هو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العشّ فحملها، فألقاها في فم الحية، فلم تزل تلتوي حتى ماتت» .

❊ ❊ ❊

القصة الثالثة والتسعون
آيات الله في خلقه

كان من آيات الله التي أيّد بها موسى عليه السلام على فرعون وقومه: الجراد والقمل والضفادع، ولا يزال مثل هذه الآيات يمر على بني البشر عبر الزمان والمكان، وقد جمعت إحدى الصحف جملة من الوقائع التي هي بمثابة الآيات المعاصرة لمن رزق النظر والاتعاظ.

فمن ذلك ما وقع في كامبردج بولاية ميرلاند الأمريكية في أواخر السبعينات من القرن الماضي، إذ قامت طيور النورس بمهاجمة السيارات بقذف صدف المحار عليها، وأحدثت بها خسائر واضحة، والسبب أن السيارات احتلت موقع أعشاشها الطبيعية، وحولته إلى مواقف لها.

وقرب جزيرة «آيكي» اليابانية أجبرت حيوانات الدلفين زوارق الصيد على العودة إلى الميناء بعد أن قتل بحارتها مائتين من هذه الحيوانات البحرية الثديية.

وفي بنغلادش قامت ألف أفعى سامة بغزو إحدى القرى، مما دفع سكانها للهرب منها نجاة بأرواحهم، وكان أحد فرق إصلاح الطرق الخارجية قد أزعج سكينة تلك الأفاعي في جحورها.

وفي كل ربيع يتسبب نصف مليون من طيور الشحرور في خسائر تقدر بملايين الدولارات عن طريق التهام الذرة والعنب وغيرها من المحاصيل،

بالإضافة إلى النباتات البرية والمنزلية. وفي بنسلفانيا أحدثت غارات الطيور خسائر في المحاصيل قدرها (١٥) مليون دولاراً في عام (١٩٧٩) وحده.

وتقول الهيئة العالمية لحماية الحياة البرية، إن تجفيف الأراضي التي كانت غنية بموارد المياه، وقطع أشجار الغابات، أجبر الطيور على التماس الغذاء في المناطق التي اتخذها البشر مساكن لهم.

وربما نأخذ إشعاراً بالفكرة من «الفريد هتشكوك» ، الذي بيّن في فيلمه الشهير (الطيور) أن أكثر أنواع طيور الربيع ألفة، بما فيها «أبو الحناء والقبرة والغراب» سوف تشارك في «الهجوم» .

والإهانات الشخصية أيضاً تستدعي العقاب، ففي فرجينيا وضع أحد الأشقياء حيوان «الأبوسوم» داخل صندوق بريد، وكان رد فعل الحيوان هو مضغ (٤٠) رسالة.

وفي طوكيو اشتبك غراب في أسلاك الطاقة الكهربائية صاعقاً نفسه، مسبباً أيضاً تماساً في الدائرة الكهربائية عطل (٢٠) قطاراً طوال ساعة.

واليوم فزع العالم فزعاً كبيراً، لأن الطيور تحمل مرضاً خطيراً قاتلاً هو (أنفلونزا الطيور) حيث يوجد هذا المرض في المشارق والمغارب حيث توجد الطيور المصابة بهذا المرض.

* * *

القصة الرابعة والتسعون

سحابة ترابية تنقل مليون طن من الأتربة

فوجئ السكان بولاية فلوريدا الأمريكية بأمطار من الطين تهطل عليهم وعلى منازلهم وسياراتهم وتلوث كل شيء، وتفسير ذلك كما يقول علماء المناخ أن سحابة ترابية هائلة تكونت فوق الصحراء الإفريقية الكبرى على ارتفاع خمسة أميال، ثم انتشرت باتساع ١٥٠٠ ميل، ودفعتها الرياح عبر المحيط الأطلنطي لتختلط بمياه الأمطار مسببة سقوط أكثر من مليون طن من الطين فوق مدن ولاية فلوريدا وعاصمتها ميامي.

ويقول العلماء: إن هذه السحابة الترابية هي أكبر السحب التي رصدتها الأقمار الصناعية. منذ تكوّن سحابة شيلي عام (١٩٧٤).

ويرى (بروسبيرو) العالِم الذي عكف على دراسة الأتربة والغابر الجوي أن حوالي مليار طن من أتربة الكرة الأرضية تنتقل سنوياً من مكان لآخر بفعل الرياح، وفي خلال عملية الانتقال هذه تحدث تأثيرات كبيرة في مناخ الأرض، منها امتصاص الطاقة الحرارية لأشعة الشمس في مناطق، وتساعد على سقوط الأمطار في مناطق أخرى. وكذلك تكوين السحب، وتلك الأمور لم يكن علماء الأرصاد يفهمونها قبل اليوم.

ويقول (بروسبيرو): إن السحب الترابية الضخمة لا تأتي بالضرورة من الصحراء، ولكن من قاع البحيرات التي تعرضت للجفاف منذ زمن طويل، ومن مستودعات الطمي التي جفت من أحقاب طويلة.

وتتكون السحب الترابية فقط من حبيبات التراب التي يتراوح قطرها من (١٠ إلى ٢٠) ميكرون، ويمكن لمثل هذه السحب أن تقطع آلاف الأميال في طبقة الغلاف الجوي التي تبعد عن الأرض مسافة من (٦) إلى (١٢) ميلاً.

ويثير (بروسبيرو) سؤالاً مهماً، وهو هل تستطيع الرياح نقل أتربة القارة الإفريقية كلها عبر الأطلنطي؟

طبقاً للدراسات التي أجراها بروسبيرو نفسه مع زملائه منذ عام (١٩٦٠) فقد وجد أن معظم الأتربة الموجودة في هواء ولاية فلوريدا أثناء الصيف مصدرها إفريقيا، وتبين وفقاً للدراسات، أن الرياح تعيد توزيع الأتربة في العالم على مساحات أوسع بكثير مما كان يُعتقد، ووجد أن التربة الحمراء التي تعلو سطح جزر (برامودا) وجزر (البهامى) يحتمل أن يكون مصدرها إفريقيا أيضاً، وكذلك اكتشف العلماء أن حوالي مليون طن من الأتربة تحملها الرياح من الأراضي الصينية عبر المحيط الباسيفيك سنوياً. [خاص للأهرام من الـ (نيويورك تايمز)].

* * *

الزمرة الحادية عشرة

قصص من أوتي الحجة

تقديم:

في هذه الزمرة قصص أقوام أوتوا الحجة في خصامهم، وظهروا على من يجاورنوهم، وقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فيما أوتيه من الحجاج ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣].

القصة الخامسة والتسعون
فقه إياس وبصيرته

قال الحافظ ابن أبي الدنيا: حدثنا هاشم بن الوليد، قال: حدثنا عبدالله بن حشرج البصري، قال: حدثني المستنير بن أخضر، عن إياس بن معاوية بن قُرَّة قال: جاءه دهقان، فسأله عن السُّكْر أحرام هو أو حلال؟

فقال: هو حرام.

قال: كيف يكون حراماً؟ أخبرني عن التّمر أحلال هو أم حرام؟ قال: حلال.

قال: أخبرني عن الكشوث أحلال هو أم حرام؟ قال: حلال.

قال: فما خالف ما بينهما؟! قال: فأخبرني عن الماء أحلال هو أم حرام؟

قال: حلال.

قال: وإنما هو من التمر والكشوث والماء أنّى يكون هذا حلالاً وهذا حراماً؟!.

قال: فقال إياس للدهقان: لو أخذت كفاً من تراب فضربتُك به أكاد يوجعك؟

قال: لا.

قال: لو أخذت كفاً من ماء فضربتك به أكان يوجعك؟! .

قال: لا.

قال: لو أخذت كفاً من تبن فضربتك به أكان يوجعك؟

قال: لا.

قال: فإذا أنا أخذت هذا الطين فعجنته بالتبن والماء، ثم جعلته كُتلاً، ثم تركته حتى يجف، ثم ضربتك به أيوجعك؟ قال: نعم، وتقتلني.

قال: فكذاك هذا التمر والماء والكشوث إذا جُمع ثم عُتّق حَرُم، كما جُفّف هذا، فأوجع أو قتل، وكان لا يوجع ولا يقتل. [الإشراف في منازل الأشراف: ص٢٦٤].

* * *

القصة السادسة والتسعون
هم والله أعقل منا

كل أمة تدعي أنها الأفضل والأكمل، وغيرها أهل حمق وجهل، فاليهود يدّعون ذلك، والنصارى كذلك، والذين لا يعلمون وهم العرب في الجاهلية يدعون هذه الدعوى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

وقد أورد ابن القيم في كتابه [مفتاح دار السعادة:١/ ٣٦٦] قصة في هذا المعنى، فقال: «يُحكى أن جماعة من النصارى تحدّثوا بينهم، فقال قائل منهم: ما أقلّ عقول المسلمين! يزعمون أن نبيهم كان راعي الغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة؟ فقال له آخر من بينهم: أما هم فوالله أعقل منا، فإن الله بحكمته يسترعي النبي الحيوان البهيم، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق؛ حكمة من الله وتدريجاً لعبده، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل، ويشرب، ويبول، ويبكي، فقلنا: هذا إلهنا الذي خلق السموات والأرض! فأمسك القوم عنه» .

* * *

الزمرة الثانية عشرة

قصص أصحاب الفراسة

تقديم:

الفراسة: «المهارة في تعرُّف بواطن الأمور من ظواهرها، والفراسة: الرأي المبني على التفرس، يقال: فراستي في فلان: الصلاح» [المعجم الوسيط:٢/ ٦٨١].

ومن تأمل فيما أوردته من قصص في الفراسة يجد أصحابها أقواماً يحسنون التدقيق والنظر، حتى يعرفوا حقائق الأمور ببصيرة نافذة ورأي صحيح.

القصة السابعة والتسعون

فراسة الإمام الشافعي رحمه الله

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن الشافعي رحمه الله تعالى من أفرس الناس، وكان قد قرأ كتب الفراسة، وكانت له فيها اليد الطولى» [مفتاح دار السعادة:٣/ ٢٥٠].

وقد أكذب ابن القيم من ادعى أن الشافعي كان عالِماً بالنجوم التي تنسب إلى المنجمين الكذابين المفترين، وقد ذكر ابن القيم بعض ما نسب من ذلك إلى الشافعي، ثم قال: «هذا كذب مختلق، وإفك مفترى على الشافعي» [مفتاح دار السعادة:٣/ ٢٤٧].

وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى قصة حيرت الشافعي في فراسته في أول أمرها، ولكن خاتمة القصة جلبت له الطمأنينة والراحة، قال ابن القيم في كتابه: [مفتاح دار السعادة:٣/ ٢٥١].

«ذكر عبدالرحمن بن أبي حاتم والحاكم وغيرهما عن الحُميدي، قال: قال الشافعي: خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتها وجمعتها، ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي برجل، وهو مُحْتَبٍ بفناء داره أزرق العين ناتئ الجبهة سِناط، فقلت له: هل من منزل؟ قال: نعم، قال الشافعي: وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة، فأنزلني، فرأيت أكرم رجل؛ بعث إليّ بعشاء، وطيب، وعلف لدوابي، وفراش، ولحاف، وجعلت أتقلب الليل أجمع، ما أصنع بهذه الكتب؟

فلما أصبحت، قلت للغلام: أسرج، فأسرَج، فركبت، ومررت عليه، وقلت له: إذا قَدِمت مكّة، ومررت بذي طُوَى، فاسأل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي، فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا؟ قلت: لا، قال: فهل كانت لك عندي نعمة؟ قلت: لا، قل: فأين ما تكلّفت لك البارحة؟ قلت: وما هو؟ قال: اشتريت لك طعاماً بدرهمين، وأدماً بكذا، وعِطْراً بثلاثة دراهم، وعَلَفاً لدوابك بدرهمين، وكِرى الفراش واللحاف درهمان، قال: قلت: يا غلام! فهل بقي شيء؟ قال: كِرى المنزل، فإني وسّعت عليك، وضيّقت على نفسي! فغبطت نفسي بتلك الكتب، فقلت له بعد ذلك: هل بقيَ شيء؟ قال: امضِ أخزاك الله، فما رأيت شراً منك» .

وأورد ابن القيم رحمه الله في كتابه السابق [٣/٢٥٢] بعضاً مما كان عليه الشافعي من الفراسة، فقال: «قال الربيع: اشتريت للشافعي طيباً بدينار، فقال لي: ممّن اشتريتَه؟ فقلت: من ذلك الأشقر الأزرق، فقال: أشقرُ أزرق! اذهب فرُدّه.

وقال الربيع: مرّ أخي في صحن الجامع، فدعاني الشافعي، فقال لي: يا ربيع، انظر إلى الذي يمشي، هذا أخوك؟ قلت: نعم، أصلحك الله، قال: اذهب، ولم يكن رآه قبل ذلك.

قال قتيبة بن سعيد: رأيت محمد بن الحسن والشافعي قاعدين بفناء الكعبة، فمرّ رجل، فقال أحدهما لصاحبه: تعال نـُزْكِنُ (أي نتفرس) على هذا المار، أي حِرْفة معه؟ فقال أحدهما: هذا خياط، وقال الآخر: هذا نجار، فبعثا إليه فسألاه، فقال: كنت خياطاً واليوم أنجر، أو: كنت نجاراً واليوم أخيط.

وقال الربيع: سمعت الشافعي وقدم عليه رجل من أهل صنعاء، فلما رآه قال له: من أهل صنعاء؟ قال: نعم، قال: فحدادٌ أنت؟ قال: نعم.

وقال: كنت عند الشافعي، إذ أتاه رجل، فقال له الشافعي: أنسّاج أنت؟ قال: عندي أُجراء.

وقال: كنا عند الشافعي إذ مر به رجل، فقال الشافعي: لا يخلو هذا أن يكون حائكاً أو نجّاراً! قال: فدعوناه، فقال: ما صنعتك؟ فقال: نجار، فقلنا: أو غير ذلك؟ قال: عندي غلمان يعملون الثياب» .

* * *

القصة الثامنة والتسعون
فراسة كعب بن سور

ومن أهل الفراسة كعب بن سور، فقد تنبه إلى ما لم يتنبه إليه عمر بن الخطاب ﷺ ، ذكر ابن القيم في «الطرق الحكمية:ص٢٤» «أنه جاءت عمر بن الخطاب ﷺ امرأةٌ، فشكرت عنده زوجها وقالت: «هو من خير أهل الدنيا، يقول الليل حتى الصباح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم أدركها الحياء، فقال: جزاك الله خيراً، فقد أحسنت الثناء» .

فلما ولّت قال كعب بن سور: «يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت في الشكوى إليك، فقال: وما اشتكت؟ قال: زوجها. قال: عليّ بهما. فقال لكعب: اقض بينهما، قال: أقضي وأنت شاهد؟ قال: إنك قد فطنت إلى ما ألم أفطن له، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣] صم ثلاثة أيام، وأفطر عندها يوماً. وقم ثلاث ليال، وبت عندها ليلة، فقال عمر: هذا أعجب إليّ من الأول» فبعثه قاضياً لأهل البصرة. فكان يقع له في الحكومة من الفراسة أمور عجيبة، وكذلك شريح في فراسته وفطنته. [الطرق الحكمية:ص٢٤].

* * *

القصة التاسعة والتسعون
فراسة القاضي إياس

كان القاضي إياس بن معاوية بن قرة المزني اللسن البليغ والألمعي المطيب والمعدوم مثلاً في الذكاء والفطنة ورأساً لأهل البيان والفصاحة، كان صادق الظن لطيفاً في الأمور، مشهوراً بفرط الذكاء، وإياه عنى الحريري بقوله في المقامة السابعة: فإذا ألمعيتي ألمعية ابن عباس، وفراستي فراسة إياس، أحد من يضرب به المثل في الذكاء، وهو المشار إليه في قول أبي تمام:

إقـدام عمـرو في سماحـة حـاتم   في حلـم أحنـف في ذكـاء إيـاس

ولي قضاء البصرة في خلافة عمر بن عبدالعزيز ﷺ ، وقيل لوالده معاوية ابن قرة: كيف ابنك لك؟ قال: نعم الابن كفاني أمر دنياي، وفرغني لآخرتي، وكان إياس المذكور أحد العقلاء الفضلاء الدهاة.

١- ويحكى من فطنته أنه كان في موضع، فحدث فيه ما يقتضي الخوف، وهناك ثلاث نسوة لا يعرفهن، فقال: ينبغي أن يكون هذه حاملاً، وهذه مرضعاً، وهذه عذراء، فكشف عن ذلك، فكان كما تفرس، فقيل له: من أين لك هذا؟ فقال: عند الخوف لا يضع الإنسان يده إلا على أعز ما له، ويخاف عليه، فرأيت الحامل وضعت يدها على جوفها، فاستدللت بذلك على حملها، والمرضع وضعت يديها على ثديها، فعلمت أنها مرضع، والعذراء وضعت يدها بين رجليها أو كما قال، فعلمت أنها بكر.

٢- وسمع يهودياً يقول: ما أحمق المسلمين يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون، فقال له: أفكلما تأكله تحدثه؟ قال: لا، لأن الله تعالى يجعله غذاء، قال: فلم تنكر أن الله تعالى يجعل كل ما يأكله أهل الجنة غذاء.

٣- ونظر يوماً إلى آجرة بالرحبة، وهو بمدينة واسط، فقال: تحت هذه الآجرة دابة، فرفعوا الآجرة، فإذا تحتها حية منطوية، فسألوه عن ذلك، فقال: إني رأيت ما بين الآجرتين ندياً من بين تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس.

٤- وقال رأيت في المنام كأني وأبي على فرسين، فجريا معاً، فلم أسبقه ولم يسبقني، وعاش أبي ستاً وسبعين سنة، وها أنا فيها، فلما كانت آخر لياليه، قال: هذه ليلة استكمل فيها عمر أبي، ونام، فأصبح ميتاً رحمه الله تعالى.

٥- وله من ذا غرائب وعجائب يعجز عن حصرها الكاتب، وكتب عمر ابن عبدالعزيز إلى نائبه بالعراق عدي بن أرطاة أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجرشي، فولّ قضاء البصرة أنفذهما، فجمع بينهما، فقال إياس: أيها الأمير سلْ عني وعنه فقيهي المصر الحسن وابن سيرين، وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال: لا تسأل عنه ولا عني، فوالله الذي لا إله إلا هو إنه أفقه وأعلم بالقضاء مني، فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي، فقال له إياس: إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم، فنحى نفسه عنها بيمين كاذبة، يستغفر الله تعالى منها، وينجو مما يخاف، فقال عدي بن أرطاة: أما إذ فهمّتنا فأنت لها، فاستقضاه.

٦- وروي عن إياس إنه قال: ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء، فدخل علي رجل شهد عندي أن البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك فلان، فقلت له: كم عدد شجره؟ فسكت، ثم قال لي:

منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت: الحق معك، وأجزت شهادته.

٧- وكان يوماً في برية، فأعوزهم الماء، وسمع نباح كلب، فقال: هذا على رأس بير، فاستقرؤوا النباح، فوجدوه كما قال، فقيل له في ذلك فقال: لأني سمعت الصوت كالذي يخرج من بير، أو قال: كأنه يخرج من بير. [مرآة الجنان:١/ ٢٠٢].

٨- وقال المدائني عن روح: استودع رجل من أبناء الناس مالاً، ثم رجع فطلبه فجحده، فأتى إياساً فأخبره، فقال له إياس: انصرف واكتم أمرك، ولا تعلمه أنك أتيتني، ثم عد إليّ بعد يومين، فدعا إياس المُودع، فقال: قد حضر مال كثير، وأريد أن أسلمه إليك، أفحصينٌ منزلك؟ قال: نعم. قال: فأعد له موضعاً وحمالين، وعاد الرجل إلى إياس، فقال: انطلق إلى صاحبك، فاطلب المال. فإن أعطاك فذاك، وإن جحدك فقل له: إني أخبر القاضي، فأتى الرجل صاحبه فقال: مالي، وإلا أتيت القاضي، وشكوت إليه، وأخبرته بأمري، فدفع إليه ماله، فرجع الرجل إلى إياس، فقال: قد أعطاني المال، وجاء الأمين إلى إياس لموعده، فزجره وانتهره، وقال لا تقربني يا خائن.

٩- وأورد ابن القيم قصة شبيهة بهذه القصة قال: قال يزيد بن هارون رحمه الله: تقلد بواسط رجل ثقة، فأودع رجل بعض شهوده كيساً مختوماً، وذكر أن فيه ألف دينار، فلما طالت غيبة الرجل، فتق الشاهد الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة كما كانت، وجاء صاحبه، فطلب وديعته، فدفع إليه الكيس بختمه لم يتغير، فلما فتحه وشاهد الحال رجع إليه، فقال: إني أودعتك دنانير، والذي دفعت إليّ دراهم، فقال: هو كيسك بخاتمك، فاستعدى عليه القاضي، فأمر بإحضار المودع، فلما صارا بين يديه قال

له القاضي: منذ كم أودعك هذا الكيس؟ فقال: منذ خمس عشرة سنة، فأخذ القاضي تلك الدراهم وقرأ سكتها، فإذا فيها ما قد ضرب من سنتين أو ثلاث، فأمره بدفع الدنانير إليه، وأسقطه، ونادى عليه» .

واستودع رجل لغيره مالاً، فجحده، فرفعه إلى إياس، فسأله فأنكر؟ فقال للمدعي: أين دفعت إليه؟ فقال: في مكان في البرية، فقال: وما كان هناك، قال: شجرة، قال: اذهب إليها، فلعلك دفنت المال عندها ونسيت، فتذكر إذا رأيت الشجرة؛ فمضى، وقال للخصم: اجلس حتى يرجع صاحبك، وإياس يقضي، وينظر إليه ساعة بعد ساعة، ثم قال له: يا هذا، أترى صاحبك قد بلغ مكان الشجرة؟ قال: لا. قال: يا عدو الله، إنك خائن، قال: أقلني، قال: لا أقالك الله، وأمر أن يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: اذهب معه فخذ حقك.

قال ابن القيم: «جرى نظير هذه القضية لغيره من القضاة: ادعى عنده رجل أنه سلَم غريماً له مالاً وديعة فأنكره، فقال له القاضي: أين سلمته إياه؟ قال: بمسجد ناءٍ عن البلد، قال: اذهب فجئني منه بمصحف أحلفه عليه، واعتقل القاضي الغريم، ثم قال له: أتراه بلغ المسجد؟ قال: لا، فألزمه بالمال» [الطرق الحكمية:ص٢٥].

١٠- وقال إبراهيم بن مرزوق البصري: جاء رجلان إلى إياس بن معاوية؛ يختصمان في قطيفتين: إحداهما حمراء؛ والأخرى خضراء؛ فقال أحدهما: دخلت الحوض لأغتسل، ووضعت قطيفتي، ثم جاء هذا، فوضع قطيفته تحت قطيفتي، ثم دخل فاغتسل، فخرج قبلي، وأخذ قطيفتي فمضى بها؛ ثم خرجت فتبعته، فزعم أنها قطيفته؛ فقال: ألك بينة؟ قال: لا. قال: ائتوني بمشط؛ فأتى بمشط، فسرح رأس هذا، ورأس هذا. فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر، ومن رأس الآخر صوف أخضر؛ فقضى بالحمراء للذي خرج من رأسه الصوف الأحمر، وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر.

١١- وقال معتمر بن سليمان، عن زيد أبي علاء: شهدت إياس بن معاوية اختصم إليه رجلان؛ فقال أحدهما: إنه باعني جارية رعْناء؛ فقال إياس: وما عسى أن تكون هذه الرعونة؟ قال: شبه الجنون. فقال إياس: يا جارية، أتذكرين متى ولدت؟ قالت: نعم، قال: فأي رجليك أطول؟ قالت: هذه؛ فقال إياس: ردها؛ فإنها مجنونة.

١٢- وقال أبو الحسن المدائني، عن عبدالله بن مصعب: أن معاوية بن قُرّة شهد عند ابنه إياس بن معاوية – مع رجال عدّلهم – على رجل بأربعة آلاف درهم، فقال المشهود عليه: يا أبا واثلة، تثبّت في أمري، فوالله ما أشهدتهم إلا على ألفين. فسأل إياس أباه والشهود: أكان في الصحيفة التي شهدوا عليها فضل؟ قالوا: نعم، كان الكتاب في أولها والطيّة في وسطها، وباقي الصحيفة أبيض. قال: أفكان المشهود له يلقاكم أحياناً، فيذكركم شهادتكم بأربعة آلاف درهم؟ قالوا: نعم، كان لا يزال يلقانا، فيقول: اذكروا شهادتكم على فلان بأربعة آلاف درهم، فصرفهم، ودعا المشهود له. فقال: يا عدو الله، تغفلت قوماً صالحين مغفلين، فأشهدتهم على صحيفة جعلت طيّتها في وسطها، وتركت فيها بياضاً في أسفلها، فلما ختموا الطية قطعت الكتاب الذي فيه حقك ألفا درهم، وكتبت في البياض أربعة آلاف فصارت الطية في آخر الكتاب، ثم كنت تلقاهم فتلقنهم، وتذكرهم أنها أربعة آلاف، فأقر بذلك، وسأله الستر عليه، فحكم له بألفين، وستر عليه.

١٣- وقال نعيم بن حماد عن إبراهيم بن مرزوق البصري: كنا عند إياس ابن معاوية، قبل أن يُستقضى، وكنا نكتب عنه الفراسة، كما نكتب عن المحدث الحديث، إذ جاء رجل، فجلس على دكان مرتفع بالمِرْبَد، فجعل يترصد الطريق، فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلاً، فنظر في وجهه، ثم رجع إلى موضعه، فقال إياس: قولوا في هذا الرجل، قالوا: ما نقول؟ رجل طالب حاجة. فقال:

هو معلم صبيان، قد أبق له غلام أعور، فقام إليه بعضنا فسأله عن حاجته؟ فقال: هو غلام لي آبق. قالوا: وما صفته؟ قال: كذا وكذا، وإحدى عينيه ذاهبة، قلنا: وما صنعتك؟ قال: أعلّم الصبيان.

قلنا لإياس: كيف علمت ذلك؟ قال: رأيته جاء، فجعل يطلب موضعاً يجلس فيه، فنظر إلى أرفع شيء يقدر عليه، فجلس عليه، فنظرت في قَدْره، فإذا ليس قدره قدر الملوك، فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك، فلم أجدهم إلا المعلمين، فعلمت أنه معلم صبيان، فقلنا: كيف علمت أنه أبق له غلام؟ قال: إني رأيته يترصد الطريق، ينظر في وجوه الناس، قلنا: كيف علمت أنه أعور؟ قال: بينما هو كذلك إذ نزل، فاستقبل رجلاً قد ذهبت إحدى عينيه، فعلمت أنه اشتبه عليه بغلامه.

١٤- وقال الحارث بن مرة: نظر إياس بن معاوية إلى رجل، فقال: هذا غريب، وهو من أهل واسط، وهو معلم، وهو يطلب عبداً له أبق، فوجدوا الأمر كما قال. فسألوه؟ فقال: رأيته يمشي ويلتفت، فعلمت أنه غريب، ورأيته وعلى ثوبه حمرة تربة واسط، فعلمت أنه من أهلها، ورأيته يمر بالصبيان فيسلم عليهم، ولا يسلم على الرجال، فعلمت أنه معلم، ورأيته إذا مر بذي هيئة لم يلتفت إليه، وإذا مر بذي أسمال تأمله، فعلمت أنه يطلب آبقاً. [الطرق الحكمية:ص٣١].

* * *

القصة المتممة للمائة
فراسة الخليفة المنصور

ومن دقيق الفراسة: أن المنصور جاءه رجل، فأخبره أنه خرج في تجارة فكسب مالاً، فدفعه إلى امرأته، ثم طلبه منها، فذكرت أنه سرق من البيت، ولم يرَ نقباً ولا أمارة، فقال المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة، قال: بكراً أو ثيباً؟ قال: ثيباً، قال: فلها ولد من غيرك؟ قال: لا، قال: فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حادّ الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه، وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يُذهب غمك، فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن شمَّ منكم رائحة هذا الطيب من أحد فليأت به، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته، فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت إليه المال، فتطيب منه، ومر مجتازاً ببعض أبواب المدينة، فشم الموكل بالباب رائحته عليه؛ فأتى به المنصور، فسأله: من أين لك هذا الطيب؟ فلجلج في كلامه. فدفعه إلى والي الشرطة، فقال: إن أحضر لك كذا وكذا من المال فخل عنه، وإلا اضربه ألف سوط، فلما جرد للضرب أحضر المال على هيئته، فدعى المنصور صاحب المال، فقال: أرأيت إن رددت عليك المال تحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: هذا مالك، وقد طلقت المرأة منك. [الطرق الحكمية:ص٣٨].

* * *

القصة الواحدة ومائة
فراسة الخليفة المعتضد بالله

١- كان المعتضد بالله جالساً يشاهد الصناع، فرأى فيهم أسود منكر الخلقة، شديد المرح، يعمل ضعف ما يعمل الصناع، ويصعد مرقاتين مرقاتين، فأنكر أمره، فأحضره وسأله عن أمره؟ فلجلج، فقال لبعض جلسائه: أي شيء يقع لكم في أمره؟ قالوا: ومن هذا حتى تصرف فكرك إليه؟ لعله لا عيال له، وهو خالي القلب، فقال: قد خمّنت في أمره تخميناً، ما أحسبه باطلاً: إما أن يكون معه دنانير، قد ظفر بها دفعة، أو يكون لصاً يتستر بالعمل، فدعا به، واستدعى بالضرّاب فضربه، وحلف له إن لم يصدقه أن يضرب عنقه، فقال: لي الأمان، قال: نعم، إلا فيما يجب عليك بالشرع.

فظن أنه قد أمنه، فقال: قد كنت أعمل في الآجر، فاجتاز رجل في وسطه هِمْيان، فجاء إلى مكان فجلس، وهو لا يعلم مكاني، فحل الهميان وأخرج منه دنانير فتأملته، وإذا كله دنانير، فساورته وكتفته وشددت فاه، وأخذت الهميان، وحملته على كتفي وطرحته في الأتون وطينته، فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه فطرحتها في دجلة، فأنفذ المعتضد من أحضر الدنانير من منزله، وإذا على الهميان مكتوب: فلان ابن فلان، فنادى في البلد باسمه، فجاءت امرأة فقالت: هذا زوجي، ولي منه هذا الطفل، خرج وقت كذا وكذا، ومعه ألف دينار: فغاب إلى الآن، فسلم الدنانير إليها، وأمرها أن تعتد، وأمر بضرب عنق الأسود، وحمل جثته إلى ذلك الأتون.

٢- قام المعتضد ليلة، فإذا غلام قد وثب على ظهر غلام، فاندس بين الغلمان فلم يعرفه، فجاء فجعل يضع يده على فؤاد واحد بعد واحد، فيجده ساكناً، حتى وضع يده على فؤاد ذلك الغلام، فإذا به يخفق خفقاً شديداً، فركضه برجله، واستقره، فأقر، فقتله.

٣- رفع إلى المعتضد أن صياداً ألقى شبكته في دجلة، فوقع فيها جراب فيه كف مخضوبة بحناء، وأحضر بين يديه، فهاله ذلك، وأمر الصياد أن يعاود طرح الشبكة هنالك ففعل، فأخرج جراباً آخر فيه رجل، فاغتم المعتضد، وقال: معي في البلد من يفعل هذا ولا أعرفه؟ ثم أحضر ثقة له وأعطاه الجراب، وقال: طف به على كل من يعمل الجُرُب ببغداد، فإن عرفه أحد منهم فاسأله عمن باعه منه، فإذا دلك عليه، فاسأل المشتري عن ذلك ونقّر عن خبره، فغاب الرجل ثلاثة أيام، ثم عاد، فقال: ما زلت أسأل عن خبره حتى انتهى إلى فلان الهاشمي، اشتراه مع عشرة جُرُب، وشكا البائع شره وفساده، ومن جملة ما قال: إنه كان يعشق فلانة المغنية وأنه غيبها، فلا يعرف لها خبر، وادعى أنها هربت، والجيران يقولون: إنه قتلها، فبعث المعتضد من كَبَسَ منزل الهاشمي وأحضره، وأحضر اليد والرجل، وأراه إياهما، فلما رآهما امتقع لونه، وأيقن بالهلاك واعترف، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها، وحبس الهاشمي حتى مات في الحبس. [الطرق الحكمية:ص٣٩].

* * *

القصة الثانية ومائة
فراسة ابن طولون

١- من عجيب الفراسة ما ذكر عن أحمد بن طولون: أنه بينما هو في مجلس له يتنزه فيه، إذ رأى سائلاً في ثوب خلق، فوضع دجاجة في رغيف وحلوى، وأمر بعض الغلمان بدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يهش، ولم يعبأ به، فقال للغلام: جئني به، فلما وقف قدامه استنطقه، فأحسن الجواب، ولم يضطرب من هيبته، فقال: هات الكتب التي معك، واصدقني من بعثك، فقد صح عندي أنك صاحب خبر، وأحضر السياط، فاعترف، فقال بعض جلسائه: هذا والله السحر، قال: ما هو بسحر، ولكن فراسة صادقة، رأيت سوء حاله، فوجهت إليه بطعام يشره إلى أكله الشبعان، فما هش له، ولا مد يده إليه، فأحضرته فتلقاني بقوة جاش، فلما رأيت رثاثة حاله، وقوة جاشه، علمت أنه صاحب خبر، فكان كذلك.

٢- ورأى يوماً حمالاً يحمل صِناً - سلّة - وهو يضطرب تحته، فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال، وأنا أرى عنقه بارزة، وما أرى هذا الأمر إلا من خوف، فأمر بحط الصن، فإذا فيه جارية قد قُتلت، وقُطِّعت، فقال: اصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير، وأمروني بحمل هذه المقتولة، فضربه وقتل الأربعة.

٣- وكان يتنكر ويطوف بالبلد يسمع قراءة الأئمة، فدعا ثقته، قال: خذ هذه الدنانير، وأعطها إمام مسجد كذا، فإنه فقير مشغول القلب، ففعل، وجلس معه وباسطه، فوجد زوجته قد ضربها الطلق، وليس معه ما يحتاج إليه، فقال: صدق، عرفت شغل قلبه في كثرة غلطه في القراءة. [الطرق الحكمية:ص٤١].

القصة الثالثة ومائة
فراسة صاحب شرطة الخليفة المكتفي

ومن ذلك: أن اللصوص أخذوا في زمن المكتفي مالاً عظيماً، فألزم المكتفي صاحب الشرطة بإخراج اللصوص، أو غرامة المال؛ فكان يركب وحده، ويطوف ليلاً ونهاراً، إلى أن اجتاز يوماً في زقاق خال في بعض أطراف البلد، فدخله، فوجده منكراً، ووجده لا ينفذ، فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير، وعظام الصلب، فقال لشخص: كم يكون تقدير ثمن هذا السمك الذي هذه عظامه؟ قال: دينار، قال: أهل الزقاق لا تحتمل أحوالهم مشترى مثل هذا، لأنه زقاق بين الاختلال إلى جانب الصحراء، لا ينزله من معه شيء يخاف عليه، أو له مال ينفق منه هذه النفقة، وما هي إلا بلية، ينبغي أن يكشف عنها، فاستبعد الرجل هذا؟

وقال: هذا فكر بعيد، فقال: اطلبوا لي امرأة من الدرب أكلمها، فدق باباً غير الذي عليه الشوك، واستسقى ماء، فخرجت عجوز ضعيفة. فما زال يطلب شربة بعد شربة، وهي تسقيه، وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله، وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك، إلى أن قال لها: وهذه الدار من يسكنها؟ وأومأ إلى التي عليها عظام السمك.

فقالت: فيها خمسة شباب أعفار، كأنهم تجار، وقد نزلوا منذ شهر لا نراهم نهاراً إلا في كل مدة طويلة، ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعاً، وهم في طول النهار يجتمعون، فيأكلون ويشربون، ويلعبون بالشطرنج والنرد،

ولهم صبي يخدمهم، فإذا كان الليل انصرفوا إلى دار لهم بالكَرْخ، ويدعون الصبي في الدار يحفظها، فإذا كان سحراً جاؤوا، ونحن نيام لا نشعر بهم. فقالت للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ قال: بلى، فأنفذ في الحال، فاستدعى عشرة من الشرط، وأدخلهم إلى أسطحة الجيران، ودق هو الباب، فجاء الصبي ففتح، فدخل الشرط معه، فما فاته من القوم أحد، فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم.

[الطرق الحكيمة: ص٤٢].

* * *

القصة الرابعة ومائة
فراسة مكرم بن أحمد

قال مُكرَّم بن أحمد: كنت في مجلس القاضي أبي حازم، فتقدم رجل شيخ، ومعه غلام حدث، فادعى الشيخ عليه ألف دينار ديناً، فقال: ما تقول؟ قال: نعم. فقال القاضي للشيخ ما تريد؟ قال: حبسه؟ قال: لا، فقال الشيخ: إن رأى القاضي أن يحبسه فهو أرجى لحصول مالي، فتفرس أبو حازم فيهما ساعة، ثم قال: تلازما حتى أنظر في أمركما في مجلس آخر، فقلت له: لم أخرت حبسه؟ فقال: ويحك، إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجه المحق من المبطل، وقد صارت لي بذلك دراية لا تكاد تخطئ، وقد وقع إليّ أن سماحة هذا بالإقرار عين كذبه، ولعله ينكشف لي من أمرهما ما أكون معه على بصيرة، أما رأيت قلَة تقصيهما في الناكرة، وقلة اختلافهما، وسكون طباعهما مع عظم المال؟ وما جرت عادة الأحداث بفرط التورع حتى يقرّ مثل هذا طوعاً عجلاً، منشرح الصدر على هذا المال.

قال: فنحن كذلك نتحدث إذ أتى الآذن يستأذن على القاضي لبعض التجار، فأذن له، فلما دخل قال: أصلح الله القاضي، إني بليت بولد لي حدث يتلف كل مال يظفر به من مالي في القيان عند فلان، فإذا منعته احتال بحيل تضطرني إلى التزام الغرم عنه، وقد نصب اليوم صاحب القيان يطالب بألف دينار حالاً، وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقرّ له فيحبسه، وأقع مع أمه فيما ينكد عيشنا إلى أن أقضي عنه، فلما سمعت بذلك بادرت إلى القاضي، لأشرح له

أمره، فتبسم القاضي، وقال لي: كيف رأيت؟ فقلت: هذا من فضل الله على القاضي، فقال: عليّ بالغلام والشيخ، فأرهب أبو حازم الشيخ، ووعظ الغلام، فأقرا، فأخذ الرجل ابنه وانصرفا. [الطرق الحكمية:ص٢٦].

❊ ❊ ❊

الزمرة الثالثة عشرة

قصص أذكياء السفراء

تقديم:

السفير في العمل (الدبلوماسي) الذي يمثل الملك أو رئيس الدولة الذي يرسله لينوب عنه فيما يقوم به، وقد تكون مهمته طويلة أو قصيرة الأمد، وقد رصدت قصص ثلاثة علماء من أعلام المسلمين قاموا بمهمة السفارة، وقد أوتوا ذكاءً فذاً، وعقلاً راجحاً، وكان في قصة كل منهم عبرة لمن اعتبر.

القصة الخامسة ومائة
سفارة الغزال إلى الأندلس

الغزال هو أحمد بن المهدي الغزال، وقد قام برحلته إلى الأندلس في (١٥) ذي الحجة سنة ١١٧٩هـ/ مايو ١٧٦٦م بأمر من حاكم المغرب محمد بن عبدالله خليفة، وكان الهدف الأول لهذه الرحلة الاطلاع على أحوال الأسرى المغاربة وغير المغاربة الذين يرزحون تحت نير الأسر في إسبانيا.

وقد تجول الغزال والوفد الذين معه في المدن الأندلسية واطلع على أحوال الأندلس بعد قرنين من احتلاله من قِبَل الصليبيين، وحدثنا عما مرّ به من مدن،

منها: طريف، وصيدونة، ولابريجة، وإشبيلية، وقرمونة، وقرطبة، ومدريد، وقرطجنَّة، وغيرها.

وقد حققت السفارة هدفها، فتم تبادل الأسرى بين المغرب وإسبانيا، ثم بعد ذلك بين الجزائر وإسبانيا.

وقد حدثنا عن آثار الآباء والأجداد المسلمين الذين سكنوا تلك الديار، وحدثنا عن بقايا مدنهم وقراهم، وآثار قصورهم وقبورهم، وبيوتهم ومزارعهم، وحدثنا عن بقايا المسلمين في تلك الديار، كما حدثنا عن أهل تلك الديار وعاداتهم وأخلاقهم وسلاحهم ومزارعهم.

وأهم ما اعتنى بذكره الحديث عن المساجد والقصور الملكية والأسواق التي تركها المسلمون في تلك الديار.

ومما حدثنا عنه في مدينة سبتة باب المسجد الذي كان للمسلمين، فقد أبقوا الباب على حاله، مكتوب على آجرة فيه «بركة محمد ﷺ» ، وبداخل الباب خط مشرقي من عمل الجباس متلاش مكتوب فيه: «النعمة الشاملة، والعظمة الكاملة» ، وقد بنوا بإزاء هذا المسجد كنيسة متصلة به. وحدثنا الغزال عن أبواب المدنية، وبأحد الأبواب أثر كرة خرقت الباب، أصلها من رمي المسلمين في عهد الملك إسماعيل، ولم يصلحوا هذا الخرق تذكرة لهم، وتربية لأولادهم على عداوة الإسلام، فكل من عقل من أولادهم ذهبوا به إلى تلك البوابة، وأشاروا إلى الخرق، وقالوا هذا من عمل المسلمين.

وحدثنا الغزال عن مروره ومن معه بمدنية (طريفة) وعن أزقتها الضيقة التي هي من عمل المسلمين، لم يحدث فيها تغيير، وقد وجد قصبة المدينة على حالها التي تركها عليها المسلمون لم يحدث فيها تغيير.

ووجد على باب تلك القصبة رخامة مكتوب عليها بخط كوفي حسن: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً، أمر عبدالله بن عبدالرحمن الداخل أمير المؤمنين...» وما بعده ممحو.

وقد رأى الغزال في مدينة (خريز) على أحد أبوابها رخامة مكتوب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد، الله الصمد» .

وحدثنا أنه التقى بمدينة (بلافرنكا وبلاصيوص) رجلاً يدعى «بلاشكو» وهو من الأعيان العدول عندهم، وقد أظهر من الميل إليهم ما غلب على ظنهم أنه مسلم، وكان يشير بإشارة خفية، ويكثر من الالتفات حال مخاطبته لهم، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر، وجاءهم ببنت له، عليها أثر العربان، بعيدة عن الشبه بالروم خلقاً وخُلقاً.

وحدثنا عن نساء المدينتين السابقتين ونساء مدينة (وطريرة)، وأن دماءهن دم العرب، وأخلاقهن مباينة لأخلاق العجم، وميلهم للمسلمين، واستدل على أسفهم عند تشييعهن يقطع أنهن من بقايا المسلمين في الأندلس، وقد طال عليهم العهد، وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله، ووجدوا الكثير من ألقابهم موجود في ديار المغرب مثل: ابن بيدس (باديس)، وأولاد خويا، وراغون.

وفي إشبيلية سكنوا داخل قصبة أحد ملوك الإسلام، وقيل إنها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله، وتحدث عن فخامة تلك المساكن، وتعدد قبابها، والغرف والمقاعد والمنارة، والزينة المصنوعة بالخطوط في الجدران. وقد أطال في وصف تلك الدار التي سكنوها، وبديع صنعها، وفخامة بنيانها، وما فيها من الزينة والمسامير الذهبية، والمنارات البلورية، وهي كلها من عمل المسلمين، وليس لها نظير بالأندلس ولا غيرها.

وتحدث عن المسجد الجامع الأعظم في إشبيلية، وتحدث عن اتساعه وأبوابه، ومناراته، وما حلي به من الذهب المرصع باليواقيت، والأشجار التي بصحن الجامع.

وحدثنا الغزال عن أشجار النارنج في صحن منزل في مدينة (الراملة) من بقايا غرس المسلمين.

وعندما أشرف الغزال ومن معه على مدينة قرطبة امتلأ قلبه وقلوب أصحابه أسفاً على المجد الغابر الذي كان للمسلمين في هذه المدينة، فهي مدينة عظيمة هائلة، شيّدها المسلمون على شفير الوادي الجامع لأودية الأندلس، وبشرقها جبل غير شاهق معمور بالزياتين والأجنة التي لا حصر لها، وقد شاهدوا المدنية من ربوة عالية، فوجدوا المسجد الجامع أعلى مبانيها، وهو من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلو الفادح، وعندما مرّوا في المسجد ودخلوه خيل إليهم أن حيطان المسجد وسواريه تسلم عليهم، وتهش لهم، مع شدة ما وجدوه من الأسف، قال: «حتى صرنا نخاطب الجماد، ونعانق كل سارية، ونقبل سور المسجد وجدرانه» .

وحدثنا عن محراب المسجد، وأنه كان باقٍ على حاله، لم يحدث فيه تغيير، وقد صنع له الكفار شباك من نحاس بحيث لا يدخله أحد، وقد اشتملت قوائم المحراب على آيات من القرآن، وكذلك بناءاته، وذكر بعض الآيات التي لا تزال موجودة، زين بها المحراب وجدران المسجد.

وحدثنا الغزال أنه زار في مدينة طليطلة مسجدها، وديار أكابر المسلمين فيها، كديار القضاة والوزراء والقواد، ووصل إلى مقابر المسلمين في تلك الديار، وذكر لنا النصوص القرآنية المكتوبة في لوحات معلقة على سواري مشرفة على المقبرة، وذكر لنا أن المدينة يوم زارها لم تزل باقية على حالها إلا ما أحدثوه في مساجدها من التصاوير، والنواقيس.

وحدثنا الغزال عن مدينة (شتينية) مبنية بقنة جبل، وقصبتها لها اثنا عشر برجاً من عمل المسلمين، وللمدينة سور في غاية الإتقان محيط بها، لم يستطيعوا دخولها لكثرة المطر، وعدم إمكان الصعود إليها بالكداش، لكونها بقنة الجبل.

ووجدوا أهل مدينة (إيلشي) بهم ميل للمسلمين بالقلب والقالب، الظاهر دال على الباطن، ولا شك أن فيهم عرقاً عريقاً في الإسلام، حيث كان أسلافهم على الدين القويم، فهم يستأنسون بذلك، ويقرون بأنَ الدين الإسلامي أشرف الأديان، وأن المسلمين على الحق، ومن سواهم على الباطل، ومن جهر بذلك فلا يستتاب، ويحكم عليه بالقتل.

ولما اقترب الغزال ومن معه من مدينة (قرطجنة) برز لملاقاتهم جماعة من المسلمين رجال ونساء وصبيان، ولهم ضجيج، يعلنون بكلمة الإخلاص، ثمّ يتبعونها بقولهم: «الله ينصر ولد سيدي رسول الله، سيد محمد بن عبدالله» فسلموا عليهم، ورحبوا بهم، وسألوهم عن حالهم، فإذا هم مسرحون، وحكمهم حكم الأسير، لا يستطيعون الخروج من البلاد إلا إذا أدوا ما أوجبه النصارى على المسرَّح، وهؤلاء قوم ضعفاء، لا معين لهم ولا ناصر.

وذكر الغزال أنه وجد في بعض البلاد بقايا من المسلمين، منهم امرأة مملوكة، والتقى بها، فكانت تقول: «إني لا أريد إلا دين حبيبي محمد ﷺ» ، وقد حررها الغزال مما ألم بها» .

هذا قليل من كثير مما حكاه الغزال في رحلته قبل (٢٤٠) عاماً إلى الفردوس الذي سكنه المسلمون قرابة خمسمائة عام، فعصفت به رياح النصارى عندما تفرق المسلمون أيدي سبأ، فقاتل الله الفرقة كيف ضيعتنا في الماضي، وها هي تعصف بنا في الحاضر.

* * *

القصة المائة وستة
سفارة الباقلاني إلى ملك الروم في القسطنطينية

أرسل الخليفة عضد الدولة أبا بكر الباقلاني سفيراً عنه إلى ملك الروم، ليظهر به رفعة الإسلام، ويغض من النصرانية، وتهيأ للخروج، قال له وزير الدولة: «أأخذت الطالِع لخروجك؟» فسأله أبو بكر، فلما فسّر مُراده، قال: لا أقول بهذا، لأن السعد والنحس والخير والشرّ بيد الله! ليس للكواكب هاهنا مثقال ذرة من القدرة؛ وإنما وُضعت كتب النجوم، ليتمعّش بها الجاهلون من العامة؛ ولا حقيقة لها» .

فقال الوزير: «احضروا إليّ ابن الصوفيّ!» وقد كان له تقدم في هذا الباب، فلما حضره، دعاه الوزيرُ إلى مناظرة القاضي، ليصحّح ما أبطله بزعمه، فقال ابن الصوفي: «ليست المناظرة من شأني، ولا أنا قائم بها، وإنما أحفظ علم النجوم وأنا أقول: إذا كان من النجوم كذا، يكون كذا! وأما تعليله، فهو من علم أهل المنطق وأهل الكلام» .

وجرت له في ذلك الوجه بالقسطنطينية بين يدي مَلِكها، مع بطارقته ونبلاء ملّته، مناظرات ومحاورات:

١- منها أن الملك قال له: «هذا الذي تدعونه في معجزات نبيّكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟» قلت: «هو صحيح عندنا، وانشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ ! حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحضور ومن اتفق نظره له في تلك الحال» .

فقال الملك: «وكيف لم يره جميع الناس؟» قلت: «لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره». فقال: «وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة لأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟» .

قلت: «فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة؛ وأنتم رأيتموها دون اليهود، والمجوس، والبراهمة، وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم؛ فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن!» .

فتحير الملك وقال في كلامه: «سبحان الله!» وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلِّمني، وقال: «نحن لا نطيقه» . فلم أشعر إذ جاؤوا برجل كالدب أشقر الشعر؛ فقعد، وحُكيت له المسألة؛ فقال: «الذي قال المسلم لازم، ما أعرف له جواباً، إلا الذي ذكره» .

فقلت له: «أتقول: إن الكسوف، إذا كان، أيراه جميع أهل الأرض، أم يراه أهل الإقليم الذي في محاذاته؟» قال: «لا يراه إلا من كان في محاذاته». قلت: «فما أنكرت من انشقاق القمر، إذا كان في ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية، ومن تأهَب للنظر له، فأمّا من أعرض عنه أو كان في الأمكنة التي لا يُرى القمر منها، فلا يراه!» .

فقال: «هو كما قلت! ما يدفعك عنه دافع! وإنما الكلام في الرواة الذين نقلوا، وأما الطعن في غير هذا الوجه، فليس بصحيح!» .

فقال الملك: «وكيف يطعن في النقلة؟» فقال النصراني: «تنبيه هذا من الآيات: إذا صحَ وجه أن ينقله الجمّ الغفير، حتى يتصل بنا العلم به؛ ولو كان كذلك، لوقع لنا العلم الضروري به، فلما لم يقع، دلّ على أن الخبر مفتعل باطل» . فالتفت الملك إليّ وقال: «الجواب؟» قلت: «يلزمه في نزول المائدة ما لزمني في انشقاق القمر؛ ويقال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً، لوجب أن ينقله

العدد الكثير؛ فلو نقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني، إلا ويعلم هذا بالضرورة؛ ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة، دلّ على أن الخبر كذب!» فبهت النصراني والملك ومن ضمّه المجلس. وانفصل المجلس على هذا.

٢- قال القاضي: سألني الملك في مجلس آخر فقال: «ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ؟!» قلت: «روح الله، وكلمته، وعبده، ونبيه، ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]. وتلوت عليه النص. فقال: «يا مسلم! تقولون: المسيح عبد؟» فقلت: «نعم؟ كذا نقول وبه ندين!» قال: «ولا تقولون إنه ابن الله؟» قلت: «معاذ الله! ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] الآيتان. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:٤٠]. فإذا جعلتم المسيح ابن الله، فمن كان أبوه، وأخوه، وجدّه وخاله، وعمّه؟» وعددت عليه الأقارب.

فتحيّر، وقال: «يا مسلم! العبد يخلق ويحيي ويميت، ويبرئ الأكمه والأبرص؟» فقلت: «لا يقدر العبد على ذلك، وإنما ذلك كله من فضل الله تعالى!» قال: «وكيف يكون المسيح عبدالله، وخلقاً من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟» .

قلت: «معاذ الله! ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص!» فتحيّر، وقلّ صبره، وقال: «يا مسلم! تنكر هذا، مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول!» فقلت: «ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة: إن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم؛ وإنما هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم، تصديقاً لهم، يجري مجرى الشهادة!» فقال: «قد حضر عندي جماعة من أولى دينكم والمشهورين فيكم، وقالوا إن ذلك في كتابكم». فقلت: «في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى!» وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح ﴿بِإِذْنِي ...﴾[المائدة:١١٠]

وقلت: إنما فعل المسيح ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح. ولو كان المسيح يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته وقوّته، لجاز أن يقال إن موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته! وليس معجزات الأنبياء - عليهم السلام! - من ذاتهم دون إرادة الخالق! فلما لم يجز هذا، لم يجز أن تُسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح، للمسيح!» .

٣- وذكر ابن حيان عمن حدّثه أن الطاغية وعد القاضي أبا بكر بالاجتماع معه في محفل من محافل النصرانية، ليوم سماه، فحضر أبو بكر، وقد احتفل المجلس، وبولغ في زينته، فأدناه الملك، وألطف سؤاله، وأجلسه على كرسي دون سريره بقليل، والملك في أبّهته؛ وخاصته ورجال مملكته على مراتبهم، وجاء البطرك، قيِّم ديانتهم، آخر الناس، وحوله أتباعه يتلون الأناجيل، ويبخرون بالعود الرطب، في زيّ حسن، فلما توسّط المجلس، قام الملك ورجاله، تعظيماً له؛ فقضوا حقه، ومسحوا أعطافه، وأجلسه الملك إلى جنبه.

وأقبل على القاضي أبي بكر؛ فقال له: «يا فقيه! البطرك قيِّم الديانة، وولي النحلة!» فسلَم القاضي عليه أحفل سلام، وسأله أحفى سؤال، وقال له: «كيف الأهل والولد؟» فعظم قوله هذا عليه، وعلى جميعهم وطبقوا على وجوههم، وأنكروا قول أبي بكر عليه.

فقال: «يا هؤلاء! تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتُرْبون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم - عز وجهه - فتضيفون إليه ذلك سُدَةً لهذا الرأي! ما أبْين غلطه!» .

فسُقط في أيديهم، ولم يردوا جواباً، وتداخلتهم له هيبة عظيمة، وانكسروا، ثم قال الملك للبطرك: «ما ترى في أمر هذا الرجل؟» قال: «تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه، وتُخرج هذا العراقي عن بلدك، من يومك إن قدرت؛ وإلا لم

تأمن الفتنة على النصرانية منه!» ففعل الملك ذلك، وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه، وعجّل تسريح الرسول، وبعث معه عدة من أسرى المسلمين، ووكّل به من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه.

قال غيره: وكان سير القاضي إلى ملك الروم سنة نيّف وثمانين وثلاثمائة. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٣٧].

* * *

القصة السابعة ومائة
سفارة الشعبي إلى ملك الروم

وحكى الشعبي: عمرو بن شراحيل قال: أنفذني عبدالملك بن مروان إلى ملك الروم، فلما وصلت جعل لا يسألني إلا أجبت، وكانت الرسل لا تطيل عنده، فحبسني أياماً كثيرة، حتى استحببت خروجي، فلما أردت الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا، ولكنني رجل من العرب في الجملة، فهمس بشيء، فرفعت إلي رقعة، وقال: إذا أديت الرسائل إلى صاحبك، فأوصل إليه هذه الرقعة.

قال: فأديت الرسالة عند وصولي إلى عبدالملك، ونسيت الرقعة، فلما صرت في بعض الدار أريد الخروج تذكرتها، فرجعت فأوصلتها إليه، فقرأها، وقال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ .

قلت: نعم. قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكني من العرب في الجملة، ثم خرجت من عنده، فلما بلغت الباب رُددت، قال لي: أتدري ما في الرقعة؟ قلت: لا. قال: فاقرأها، فقرأتها، فإذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره، فقلت: والله لو علمت ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك. قال: أفتدري لم كتبها؟ قلت: لا. قال: حسدني عليك، وأراد أن يغريني بقتلك، فتأدى ذلك إلى ملك الروم، وقال: ما أردت إلا ما قال. [مرآة الجنان:١/ ١٧١].

* * *

الزمرة الرابعة عشرة

قصص المكافأة وحُسْن العقبى

تقديم:

هذه ثلاثة قصص أحسن أصحابها لغيرهم، ثم دارت الأيام فارتقى المحسن إليهم، وقاموا بمكافأة من أحسنوا إليهم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

القصة الثامنة ومائة
والله للثلاثة دنانير أحسن عندي مما رددته عليه

قال أحمد بن يوسف الكاتب: نزل في حارتنا غلام أمرد تأخذه العين، وكنت أسلّم عليه إذا اجتزت به، كما أفعل هذا بغيره من جيرتي، فانصرفت يوماً إلى منزلي، فوجدته قائماً على بابه، فدفع إليّ رقعة يذكر فيها أنه عباسيّ من ولد المأمون، ويسألني فيها بِرَّه، ودخل من كان معي بدخولي، فقضيت شغلي بالجماعة حتى انصرفوا، ووضعت المائدة بيني وبين العباسي، فأكلنا، وهو يتأملني فلا يجد فيّ شيئاً قدّره، فلما غسل يده، دفعت إليه ثلاثة دنانير، واعتذرت إليه من تقصيري في حقه، وانصرف، وقد رأيت تبجيلي في حماليق عينيه.

فلما كان بعد ذلك بسُنيّات، وأنا في ضياع تَقبَّلتُ بها - التزمتها بعقد - ولي فيها غلّة، بمال جسيم، فخفت أن أدخل الفسطاط فتخربَ الضياع، وتتعطّل

عمارتها؛ فكنت أكمن نهاراً في بعض منازل الفلاّحين، وأظهر ليلاً، فأعقد منها ما تهيأ لي عقده.

فإني لكامن في يوم من الأيام حتى سمعت رجّة شديدة، فدخل إليّ بعض غلماني. فقال: «دخل أصحاب دُميانة الضيّعة، وعملوا على نقل الغلاّت» ، وأيقنت بتلف أكثر ما أملكه، ثم سكنت أصواتهم.

ودخل إليّ غلام لي فقال لي: «يا مولاي، كانت هذه الضياع قد أشفت على نقل ما فيها، حتى نظر إليّ العباسي الذي كان في جوارنا، فقال لي: «ألست غلام أحمد بن يوسف؟» قلت: «نعم!»، قال: «فهذه ضياعه؟» ، قلت: «نعم!»، فصاح بالجماعة التي دخلت من أصحاب دُميانة: «اخرجوا بأسركم عنها»، فخرجوا. ثم قال لي: «قل لمولاك: يا سيدي! محلّي عند الأمير دميانة محل الأخ، فاظهر واركب إليه، فقد آمنك الله على نفسِك ومالِك». فسألت الغلام: «ما كان زيُّه؟»، فقال: «كان عليه كساء صوف مما ينام فيه؛ وتحته خُفّتان» .

فأحضرت بعض مشايخ الضيعة، وحملت معه إليه دُرّاعة خزٍّ كحلية، ومطرف خز، وخمسين ديناراً، وسألته أن يقبل ما يحتاج إليه من ناحيتي، فقبل الدراعة الخز، وردّ المطرف والدنانير، وقال لرسولي: «والله للثلاثة الدنانير - التي وهبها لي لشرفي لا لشيء مما ظننته به - أحسن موقعاً عندي مما رددته إليه، فكثّر الله في الناس مثله!» .

فلم يزل عضداً لي وسِتراً عليّ، حتى انصرف دميانة عن الناحية. [المكافاة وحُسْن العقبى:ص٢٤].

* * *

القصة التاسعة ومائة
تيقنت أنه لم يبقَ له حيلة في المدافعة

قال أحمد بن يوسف الكاتب: «سمعت أبا العباس أحمد بن بسطام يُحدِّث أبا الطيب أحمد بن علي، قال: «لما سَخِط الموفّق على صاعد، وكّل به من يطالبه، وأقرّني والطائيَّ على ما كنا نتقلّده له، وكان صاعد محسناً إلينا، جميل العِشْرة لنا، فلم نترك شيئاً نصل إليه مما خفف عنه إلا بلغناه، وكانت بيني وبين الطائي إحْنة، فدعاني الموفق في يوم من الأيام ونحن بواسط، وقد بَلَح - أفلس - صاعد، واستنزل المستخرج جميع ما وصل إليه منه، فقال لي: «أحمدُ! ادخل إلى صاعد فقل له: أظنك أرضيتَ المستخرج حتى فَتَر في مطالبتك، وتالله لئن لم تخرج مُحتجبَك، لأتولّين تعذيبك بنفسي!» .

فدخلت إليه، وأدّيت الرسالة، فقال لي: «يا أحمد، والله ما بقى لي شيء، ما ملكت قط ما هو أحب إليّ من نفسي، فتقول له: يا سيدي! والله ما أملك على الأرض ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا جوهراً، وأنت أولى بالتطول على خادمك» .

فانصرفت من عنده وأنا أخاف أن يغريه ذلك الجواب، ودخلت إليه، وقلت له: يقول لك: «يا سيدي! ما أملك على وجه الأرض ولا بطنها غير مائة ألف دينارٍ عند الطائي» . فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه، قال له: «المائة الألف الدينار التي لصاعد عندك، قد بعث إليّ يحلف أنه لا يملك غيرها» .

فقال له: «وهي بمدينة السلام، فيُنظرني الأمير مسافة الطريق، وأنا استسلف له ما تيسر منها من التجار هاهنا؟» . فقال له: «اكتُب خطَّك بها» . فكتبه، وسلّمه إلى الموفق، فسلّمه إلى غلام من خاصته، وانصرف الطائي.

فاستقبحت ما صدر مني فيه، وعظُم في نفسي لتصديقه صاحبَه، وترك معارضته بما يدفع به المرء عن نفسه، فدنوت من الموفق وقلت له: «أيها الأمير! جميع ما أديته إليك عن صاعد مني تقوُّلته، وقد قَبُح في عيني، وسيدي الأمير مخيّر بين الصفح عنه والعقوبة عليه. فقال: «أحسنت! بارك الله عليك» .

ثم أمر بردَ الطائي، فقال: «لِمَ لم تتقرّب إليّ بذكر هذا المال؟» فقال: «أيها الأمير! يمنعني من ذلك ما تولاّه من اصطناعي» فقال له: «ليس يُقنعني إلا أن تحلف برأسي على هذا المال، وفي أيٍّ وقت دفعه إليك». فقال: «يعفيني الأمير من ذلك» . فقال: «والله لا فعلت» .

فقال: «وحق رأس الأمير ما له عندي درهم واحد فضلاً عنه، ولكني لما رأيته قد عاذ بالدعوى عليّ، تيقّنت أنه لم يبقَ له حيلة في المدافعة عن نفسه، فعملت على تحمّل هذا المال، ووالله ما أملكه، ورجوت أن أصل إليه بجاهي ولطيف حيلتي» .

فاستحضر الموفق الخط، ودفعه إلى الطائي، فقال له: «خرّقه» . ثم تقدم بإعفاء صاعد من المطالبة» [المكافاة وحسن العقبى:ص٣١].

* * *

القصة العاشرة ومائة
ليس يحسن بنا أن نغرك من أنفسنا

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني أحمد بن أبي يعقوب عن أبيه، قال: «كان يحيى بن خالد بن برْمَك قد تبنّى الفضل بن سهل، وأجراه مُجرَى الولد، ونظر إليه ولده بعين الأخ لهم، فضمّه إلى المأمون، وكان يحيى بن خالد حَسَن المعرفة بالنجوم، والفضلُ بارعاً فيها، فاتّفقا على ما توجبه النجوم في مُدَد البرامكة، وتبينا سعادةً تنتهي إليها حالُ الفضل، وكان كل واحد منهما كالمشاهد لما انتهى إليه.

وأوقع الرشيد بالبرامكة، فاعتصم الفضل بمحلّه من خدمة المأمون؛ وكانت يده تعجِز عما يُصلح يحيى وولدَه عند الرشيد، فوجه إليه: «سيدي! قد كربني أمرك، ولست أصل إلى حُسْن الدفاع عنك، فأحِلّ ذِمامه في هذه المحنة؛ فإني أرجو أن أقضيه عنك عند انتهائي إلى سعادتي» .

قال ابن أبي يعقوب: فحدثني أحمد بن أبي خالد الأحول، قال: «اتصل بي من ضيق يحيى ما كدّر عيشي، وذكرت إحسانه إليّ، وحُسْنَ صنيعه بي، فضاق بي العريض، ووجدت ما أملكه أربعة آلاف دينار، فقسمتها قسمين، وحملت أحدهما، وتوصّلت إلى الدخول إليهم في محبسهم، فوضعتها بين يدي يحيى بن خالد.

فقال لي: «ليس يحسن بنا أن نُغرّك من أنفسنا، ولا أن نعدك عنا ما لا تفي به الأيام لك، وقد انتهى أمرنا، فإن كنت تُقدِّر أن أحوالنا تصلح، فأمسك عليك مالك» ، فقلت: «ما ذهبت في ذلك إلا لقضاء بعض الحق عني» .

فأخذ بيضاء فكتب فيها: «يا أبا العباس أيّدك الله! هذا رجل خلص على تجربتنا، وأحسن بنا مع استحكام يأسه منا، وأنا أذكرك العهد، وأرغب إليك في قضاء حقه عني، وتخفيف ثقله عليّ، أحسن الله عونك، وكفاك ما أعجزك» . ثم ثناها وقطعها عرضاً بقطعتين، وقال لي: «احفظ هذا النصف معك، ولا تفرط فيه، فيفوتك حظ كبير» .

ثم فرق ذلك المال في قوم ضعُفت أحوالهم بما لحقه، وانصرفت من عنده، وقد آيسني من رجوع حاله، وأعطاني نصف رقعة لا أقف على ما توصل إليه، وتقضّى أمرُهم، ومات الرشيد بطوس، وغلب الفضلُ بن سهل على المأمون بخراسان، وخلَفه على جميع أمره، وشجر الأمرُ بين الأمين والمأمون، فظهر المأمون عليه، وصحّت وزارة الفضل بن سهل للمأمون، ووردت بادرةُ المأمون بذلك إلى سائر النواحي، وطالت عطلتي، واشتدت فاقتي، وفقدت من كان يؤثرني وينحاش إليّ.

فإني لجالس في منزلي، في يوم قد أعوزني فيه قوت يومي، وعليّ ثوب خلَق، وليس لي إلا خِلْعة أركب فيها، حتى دخل إليّ غلامي فقال: «بالباب جماعة من أصحاب طاهر بن الحسين!» ، فلبست ثياب ركوبي، وأذنت لهم، وتقدّمهم رئيس لهم تبيّنت إعظامي في نفسه، فقال: «الأمير طاهر يسألك المسير إليه» . فنهضت، فلما دخلتُ قدّمني وأعظمني، وقال: «ورد كتاب الوزير أيّده الله عليّ في حملك إلى حضرته على حال تكْرِمة، ومعك نصف الرقعة التي دفعها إليك يحيى بن خالد، وأمرني بدفع ألفي دينار إليك لحمولتك ومخلّفيك» .

فقويت نفسي، وانفسح رجائي، وخرجت بعد قبض المال مع رسول طاهر، فلما دخلت إلى الفضل بن سهل، لقيني بأجمل لقاء، وسألني عن نصف الرقعة فأحضرتها، ثم أسرّ إلى بعض خاصّته شيئاً، فمضى، وجاء برقعة فوصلها

بها فكملت، فلما استتمّ قراءتها بكى، ثم قال: «رحم الله أبا العباس! فما كان أعرفه بتصرف الأيام، واستدعاء الشكر فيها، والتحيز من الذم بها!».

ثم أدخلني إلى المأمون، وواكد أمري عنده، حتى بلغت معه إلى أخص أحوال كتّابه، ومن وثق به في مهم أمره» [المكافاة وحسن العقبى:ص٤٥].

* * *

الزمرة الخامسة عشرة

قصص سوء الخاتمة

تقديم:

هذه قصص حيل بين أصحابها وبين الخاتمة الطيبة عند الموت عقوبة لأصحابها على ما ارتكبوه من أعمال سيئة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن العبد يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شهد الناس كثيراً من المحتضرين من أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: (لا إله إلا الله) فقال: شاه ورخ. أي غلبك. ثم قضى» [الجواب الكافي:ص٧٠].

القصة الحادية عشرة ومائة

يا رب قائلة يوماً وقد تعبت أين الطريق إلى حمام منجاب

أورد ابن القيم رحمه الله في سوء الخاتمة ما سطره الحافظ أبو محمد بن عبدالرحمن الأشبيلي: «أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول له: قل لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي، فأعاد عليه القول، فقال مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له:

«قل: لا إله إلا الله» قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل» [الجواب الكافي:ص٢٣٦].

ونقل الأشبيلي عن أبي طاهر السِّلَفي فيما أذن له أن يحدث به عنه «أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب حمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت له – خدعة منها له وتحيلاً، لتتخلص مما أوقعها فيه، وخوفاً من فعل الفاحشة - : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل، وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطريق والأزقة، ويقول:

يـا ربَّ قائلـةٍ يومـاً وقـد تَعِبـتْ   أيـن الطريـق إلى حمـام مِنجَـابِ؟

فبينما هو يقول ذلك وإذا بجاريه أجابته من طاق تقول:

هَلاّ جعلـت سـريعاً إذ ظفـرتَ بهـا   حِرزاً على الدارِ أو قُفلاً على البابِ؟

فازداد هيمانه، واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا. [الجواب الكافي:ص٢٣٦].

* * *

القصة الثانية عشرة ومائة
تنصر المؤذن ليتزوج نصرانية فمات قبل الزواج

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [الجواب الكافي:ص٢٣٨] قصة ختم لصاحبها بخاتمة سيئة، قال: «يروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك، وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: قد سلبت لبي، وأخذت بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً.

قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك. قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها وفاته دينه» .

❋ ❋ ❋

الزمرة السادسة عشرة

قصص في التفاؤل والتشاؤم

تقديم:

كان الناس ولا يزالون يمتنعون عما عزموا عليه من الأعمال إن هم قوبلوا بما يكرهون فعله أو سماعه ورؤيته، ويستبشرون بما يسرهم من الأقوال والأفعال، وقد علمنا الإسلام أن نستبشر بالخير، ونعرض عن الشرّ، فلا يمنعنا عن قصد قصدناه، أو سفر عزمنا على المصير إليه.

القصة الثالثة عشرة ومائة

تطير إبراهيم بن مهدي

قال أبو الحسن محمد بن عمران العبدي المعروف بالرقام: «حدثنا ابن زكويه قال: حدثنا محمد بن راشد الخنّاق، قال: حدثني إبراهيم بن المهدي، قال: كنت نازلاً مع المخلوع في مدينة المنصور أبي جعفر في قصره بباب الذهب لما حصره طاهر بن الحسين، فخرج ذات ليلة من القصر يريد أن يتفرّج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر في قرن الصّراة أسفل من قصر الخُلْد في جوف الليل.

ثم أرسل إليّ فصرت إليه، فقال لي: يا إبراهيم! أما ترى طيب هذه الليلة، وحُسْن هذا القمر في السماء، وصورة نوره في الماء؟! ونحن حينئذ على شاطئ دجلة، فهل لك في الشراب؟

فقلت: شأنك جعلني الله فداك، فدعا برطل من نبيذ فشربه، ثم إني سُقيتُ مثلَه، فابتدأت أغنية من غير أن يأذن لي لما أعلم من سوء خلقه بما أعلم أنه يحب أن يسمعه.

فقال لي: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ قلت: ما أحوجني إلى ذلك! قال: فدعا بجارية من جواريه مقدمة عنده، يقال لها: ضَعْفُ. قال: فتطيرت من اسمها للحال التي هو عليها، فلما صارت بين يديه قال لها: غنّي. فغنّت بشعر للنابغة الجعدي:

كُليبٌ لعمري كان أكثر ناصِراً وأيسر جُرْماً منك ضُرِّج بالدمِ

فاشتد عليه ما غَنَت به، وتطيّر منه، وقال لها: غنّي غير هذا. فغنّت:

أبكى فِراقُهُمُ عيني وأرّقني إن التفرّق للأحباب بكّاءُ
ما زال يغدو عليهم صرفُ دهرِهُمُ حتى تفانَوْا وصرْفُ الدهر عدّاءُ
فاليوم أبكيهم جُهْدي وأندُبهم حتى أؤوبَ وما في مقلتي ماءُ

فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غير هذا؟ فقالت: يا سيدي! ما قصدت إلا ما ظننت أنك تحب أن تسمعَه، وما أردت ما تكرهه، وما هو إلا شيء جاءني، ثم أخذت في غناء آخر فغنّت:

أما وربِّ السكون والحَرَكِ إن المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك
إلا بنقل السلطانِ عن مَلِكٍ عاتٍ يُحبُّ الدُّنيا إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذي العرشِ دائمٌ أبداً ليس بفانٍ ولا بمشترَكِ

فقال لها: قومي عليك غضب الله.

وكان له قدح من بلّور حسن جداً، كان يسميه محمداً من حبه إياه موضوعاً بين يديه، فعثرت بالقدح فكسرته.

فقال إبراهيم: ولم نجلس مع هذه الجارية قط إلا رأينا في مجلسنا ذلك ما نكره. فقال لي: ويحك يا إبراهيم! ما ترى ما جاء من هذه الجارية؟ ثم ما كان من كسر القدح؟ ما أظن أمرنا إلا قد قَرُب.

فقلت: بل يطيل اللهُ عمرَك، ويُعِزُّ ملكَكَ، ويديم دولتك، ويكبتُ عدوَّك. فلم يتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة يقول: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف:٤١] فقال: يا إبراهيم! سمعت ما سمعتُ؟ قلت: لا والله ما سمعت شيئاً، وقد كنت سمعت الذي سمع، فقال لي: تسمّع حسناً. فدنوت من الشط فلم أرَ شيئاً، ثم عاودنا الحديث، فعاودنا القول، ثم قمت عن مجلسه مغيّراً، فركب فرجع إلى موضعه بالمدينة، فلما كان بعد هذه الليلة بليلتين حدث من قتله ما حدث، وذلك يوم الأحد لست خلون من صفر سنة ثمانٍ وتسعين ومائة. [العفو والاعتذار:١/ ٢٦٠].

❊ ❊ ❊

القصة الرابعة عشرة ومائة
تفاؤل ابن القيم في العثور على ولده

يعلم الفقيه العالِم بدينه أن الإسلام نهى عن الطيرة، وحبب إلى العباد التفاؤل والاستبشار الذي يشرح الصدر، ويقوي القلب، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه [مفتاح دار السعادة:٣/ ٣١١]. حادثة وقعت له في إحدى حجاته إلى البيت العتيق، ضاع فيها ولد له صغير، وبعد تعب شديد تفاؤل بالعثور عليه، بعد أن سمع كلاماً تفاءل به، وفي ذلك يقول: «وأخبرك عن نفسي بقضية من ذلك، وهي أني أضللت بعض الأولاد يوم التروية بمكة وكان طفلاً، فجهدت في طلبه والنداء عليه في سائر الركب إلى وقت يوم الثامن، فلم أقدر له على خبر، فأيست منه، فقال لي إنسان: إن هذا عجز، اركبْ، وادخل الآن إلى مكة، فتطلبه فيها، فركبت فرساً، فما هو إلا أن استقبلت جماعةً يتحدّثون في سواد الليل في الطريق، وأحدهم يقول: ضاع له شيء فلقيه، فلا أدري انقضاء كلمته كان أسرع أو وجداني الطفل مع بعض أهل مكة في محملةٍ، عرفته بصوته» .

* * *

القصة الخامسة عشرة ومائة
تطير أهل الجاهلية بالعطاس

كان أهل الجاهلية يتشاءمون بالعطاس، ويكون تشاؤمهم به أشد إذا كان العطاس شديداً، ذكر ذلك ابن القيم في كتابه: [مفتاح دار السعادة:٣/ ٣٥٦] فقال: كان أهل الجاهلية إذا عطس من يحبونه قالوا له: عُمراً وشباباً، وإذا عطس من يبغضونه قالوا له: وَرْياً وقُحاباً (الوَرْيُ: كالرّمي؛ داء يصيب الكبد فيُفسدها، والقُحاب: السعال؛ وزناً ومعنى) فكان الرجل إذا سمع عطاساً يتشاءم به يقول: بك لا بي، إني أسال الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي.

وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد كما حُكي عن بعض الملوك أن سامراً له عطس عطسة شديدة راعتْهُ، فغضب الملك، فقال سميره: والله ما تعمّدت ذلك، ولكن هذا عُطاسي، فقال: والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك.

فقال: أخرجني إلى الناس لعلي أجد من يشهد لي، فأخرجه، وقد وكّل به الأعوان، فوجد رجلاً، فقال: يا سيدي ناشدتك بالله، إن كنت سمعت عُطاسي يوماً، فلعلك تشهد لي به عند الملك! فقال: نعم، أنا أشهد لك، فنهض معه، وقال: يا أيها الملك أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس من أضراسه، فقال له الملك: عُد إلى حديثك ومجلسك.

فلما جاء الله سبحانه بالإسلام، وأبطل برسوله ﷺ ما كان عليه الجاهلية من الضلالة نهى أمته عن التشاؤم والتطير، وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء

على العاطس بالمكروه الدعاء له بالرحمة، كما أمر العائن أن يدعو بالتبريك للمَعين.

ولما كان الدعاء على العاطس نوعاً من الظلم والبغي جُعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافي للظلم، وأُمِرَ العاطسُ أن يدعوَ لسامعه ويشمِّته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال، فيقول: «يغفر الله لنا ولكم» أو: «يهديكم الله ويصلح بالكم» ؛ فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى إلى طاعة الرسول، ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية، فدعا له أن يثبّته الله عليها، ويهديه إليها.

وكذلك الدعاء بإصلاح البال؛ وهي حكمة جامعة لصلاح شأنه كله، وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة، فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال.

وأما الدعاء بالمغفرة، فجاء بلفظ يشمل العاطس والمشمّت كقوله: «يغفر الله لنا ولكم» .

* * *

الزمرة السابعة عشرة

قصص الحمقى والمغفلين

تقديم:

بعض العقلاء يأتون بأمور تقربهم من الحمقى، وبعض الحمقى يأتون بالأقوال والأفعال التي تجعل الناس يظنون أنهم عقلاء متحامقون، وفريق ثالث يتحامق لينجو من خطر داهم، أو بلاء لا طاقة له به.

القصة السادسة عشرة ومائة
اذهب فقد سقطت عنك الصلاة

كثير من الموسوسين يوقعون أنفسهم في البلاء، ويضحكون منهم العقلاء، فالواحد منهم يغتسل مراراً كثيرة، أو يتوضأ عشراً، وهو يشك في حصول الوضوء، وقد وقفت مرة على واحد منهم يريد أن يتوضأ، ومعي جمع من طلبة العلم، فأخذنا جميعاً نعد له كلما غسل عضواً من أعضائه، فلما أنهى وضُوءه سريعاً بشهادة هذا الجمع الذي حضره لم يُصدِّق أن وضُوءه قد اكتمل، وأخذ يعجب أشدّ العجب من وضوء تم بهذه السرعة.

وقد أورد ابن القيم في كتابه [إغاثة اللهفان: ١/ ١٣٤] قصة حكاها أبو الفرج ابن الجوزي عن أبي الوفاء ابن عقيل، فقد قال له رجل: «أنغمس في الماء

مراراً كثيرة وأشك: هل صحَّ لي الغسل أم لا، فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ اذهب، فقد سقطت عنك الصلاة. قال: وكيف؟ قال: لأن النبي ﷺ قال: «رُفِع القلم عن ثلاثة: المجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يبلغ» ومن ينغمس في الماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا، فهو مجنون.

قال: وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما فوّت عليه ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا، ثم يكذب.

قلت: وحكى لي من أثق به عن موسوس عظيم رأيته أنا يكرر عقد النية مراراً عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة، فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة، فلم يدعه إبليس حتى زاد، ففرق بينه وبين امرأته، فأصابه لذلك غمٌّ شديد، وأقاما متفرقين دهراً طويلاً، حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر، وجاءه منها ولد، ثم إنه حنث في يمين حلفها ففرق بينهما، وردت إلى الأول بعد أن كاد يتلف لمفارقتها.

وبلغني عن آخر أنه كان شديد التنطع في التلفظ بالنية والتقعّر في ذلك، فاشتد به التنطع والتقعر يوماً إلى أن قال: أصلى، أصلي، مراراً، صلاة كذا وكذا. وأراد أن يقول: أداء، فأعجم الدال، وقال: أذاء لله. فقطع الصلاة رجل إلى جانبه، فقال: ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين.

قال: ومنهم من يتوسوس في إخراج الحرف حتى يكرره مراراً.

قال: فرأيت منهم من يقول: الله أككككبر. قال: وقال لي إنسان منهم: قد عجزت عن قول: «السلام عليكم» فقلت: له: قل مثل ما قد قلت الآن، وقد استرحت» .

* * *

القصة السابعة عشرة ومائة

أجالس قوماً لا يؤذونني وإن غبت عنهم لا يغتابونني

١- كان بهلول من عقلاء المجانين، قال: محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، سمعت بهلولاً في بعض المقابر، وقد دلى رجله في قبر، وهو يلعب في التراب، فقلت له: ما تصنع هاهنا؟ فقال أجالس أقواماً لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني، فقلت: قد غلا السعر، فهلا تدعو الله فيكشف، فقال: والله لا أبالي ولو حبة بدينار، إن الله تعالى أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا، ثم صفق بيديه وأنشأ يقول:

يـــا مـــن تمتـــع بالـــدنيا وزينتهـــا ... ولا تنـــام عـــن اللـــذات عينـــاه

شغلت نفسك فيمـا لـست تدركـه ... تقـــول لله مـــاذا حـــين تلقـــاه

٢- حَدَّث علي بن ربيعة الكندي قال: خرج الرشيد إلى الحج، فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولاً المجنون على قصبة وخلفه الصبيان، وهو يعدو فقال من هذا؟ قالوا بهلول المجنون، قال: كنت أشتهي أن أراه، فادعوه من غير ترويع، فقالوا له: أجب أمير المؤمنين، فعدا على قصبته، فقال الرشيد: السلام عليك يا بهلول، فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: كنت إليك بالأشواق، قال: لكني لم أشتق إليك.

قال: عظني يا بهلول، قال: وبم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم، قال: زدني فقد أحسنت، قال يا أمير المؤمنين: «من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفَّ في جماله وواسى في ماله كُتب في ديوان الأبرار» .

فظن الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دَيْنك، فقال: لا يا أمير المؤمنين، لا يُقضى الدَّيْن بدَيْن، أردد الحق على أهله، واقض دَيْن نفسك من نفسك، قال: فإنا قد أمرنا أن يجرى عليك، فقال: يا أمير المؤمنين، أترى الله يعطيك وينساني؟ ثم ولى هارباً.

٣- وروي بإسناد آخر أنه قال للرشيد: يا أمير المؤمنين، فكيف لو أقامك الله بين يديه، فسألك عن النقير والفتيل والقطمير، قال: فخنقته العبرة، فقال الحاجب: حسبك يا بهلول، قد أوجعت أمير المؤمنين، فقال الرشيد: دعه.

فقال بهلول: إنما أفسده أنت وأضرابك، فقال الرشيد: أريد أن أصلك بصلة، فقال بهلول: ردَها على من أخذت منه، فقال الرشيد فحاجة، قال: أن لا تراني ولا أراك، ثم قال: يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل، عن قدامة بن عبدالله الكلابي، قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي جمرة العقبة على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد، ثم ولى بقصبته وأنشأ يقول:

فعـدَّك قـد مـلأت الأرض طـراً ... ودان لـك العبـاد فكـان مـاذا

ألـست تمـوت في قـبر ويحـوي ... تراثـك بعـدُ هـذا ثـم هـذا

٤- وقال عبدالرحمن الأسلمي: قال أبي لبهلول: أي شيء أولى بك؟ قال: العمل الصالح.

٥- قال بعض الكوفيين: حج الرشيد فذكر بهلولاً حين دخل الكوفة، فأمر بإحضاره، وقال: ألبسوه سواداً، وضعوا على رأسه قلنسوة طويلة، وأوقفوه في مكان كذا، ففعلوا به ذلك، وقالوا: إذا جاء أمير المؤمنين فادع له، فلما حاذاه الرشيد رفع رأسه إليه، وقال: يا أمير المؤمنين، اسأل الله أن يرزقك، ويوسع عليك من فضله، فضحك الرشيد، وقال: آمين، فلما جازه الرشيد دفعه صاحب

الكوفة في قفاه، وقال: أهكذا تدعو لأمير المؤمنين يا مجنون، قال بهلول: اسكت ويلك يا مجنون، فما في الدنيا أحب إلى أمير المؤمنين من الدراهم، فبلغ ذلك الرشيد فضحك، وقال: والله ما كذب.

٦- قال الحسن بن سهل بن منصور سمعت بهلولاً وقد رماه الصبيان بالحصى، وقد أدمته حصاة فقال:

حـــسبي الله توكلـــت عليـــه ونواصـــي الخلـــق طـــراً بيديـــه

[عقلاء المجانين:ص٦٧].

* * *

القصة الثامنة عشرة ومائة
من تحامق لينجو من بلاء وآفة

١- قال محمد بن أحمد المقري: حدثنا أبو أحمد بن قريش بن سليمان سنة ثمان وثلاثين بمروالروذ، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن عباس الديري، قال: حدثنا عبدالرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أبي طاوس، عن أبيه قال: «لما وقعت الفتنة زمن عثمان ﷺ قال رجل لأهله: أوثقوني، فإنني مجنون كيلا أوذيكم، فأوثقوه، فلما قُتل عثمان ﷺ ، قال: خلوا عني، فقد صحوت، والحمد لله الذي عافاني من قتل عثمان» .

٢- سمعت الحسن بن عمران الحنظلي بهراة، يقول: حدثنا أبو عبدالله محمد بن حفص الفارسي، حدثنا منصور بن سعيد الرازي، حدثنا قاسم بن محمد بن عريب من ولد أبي أيوب الأنصاري ﷺ ، قال: «أُدخل عبادة المخنث على الواثق، والناس يُضربون، ويُقتلون في الامتحان، قال: فقلت: والله لئن امتحنني قتلني، فبدأته فقلت: أعظم الله أجرك أيها الخليفة، فقال: فيمن؟ فقلت: في القرآن، قال: ويحك والقرآن يموت؟ قلت: نعم كل مخلوق يموت، فإذا مات القرآن في شعبان، فبإيش يصلي الناس في رمضان؟ فقال: أخرجوه، فإنه مجنون».

٣- أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمود بن عبدالله قراءة عليه، قال: حدثنا عبدالله بن محمود البغدادي، قال: حدثنا محمد بن يحيى البصري، قال: دعا المنصور أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكاً ليوليهم القضاء، فقال أبو حنيفة: أنا اتحامق فيكم فأقال واتخلص، وأما مسعر فيتجانّ ويتخلص، وأما سفيان فيهرب، وأما شريك فيقع، فلما دخلوا عليه، قال أبو حنيفة رحمه الله: أنا رجل

مولى، ولست من العرب، ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى، ومع ذلك فإني لا أصلح لهذا الأمر، فإن كنت صادقاً في قولي فلا أصلح له، وإن كنت كاذباً فلا يجوز لك أن تولي كاذباً دماء المسلمين وفروضهم.

وأما سفيان فأدركه المُشخِص في طريق، فذهب لحاجته، فانصرف المشخص ينتظر فراغه، فبصر سفيان سفينة، فقال للملاح: إن مكنتني من سفينتك، وإلا ذبحت بغير سكين، تأول قول النبي ﷺ «من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين» فأخفاه الملاح تحت السارية.

وأما مسعر بن كدام، فدخل على المنصور، فقال له: هات يدك، كيف أنت وأولادك ودوابك؟ فقال: أخرجوه، فإنه مجنون.

وأما شريك، فقال المنصور: تقلد، فقال أنا رجل خفيف الدماغ، فقال تقلد وعليك بالمعصيد والنبيذ الشديد حتى يرجح عقلك، فتقلد، فهجره الثوري، وقال: أمكنك الهرب، فلم تهرب» .

٤- حدثنا أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى، واللفظ له، قال: حدثنا محمد ابن المسيب بن إسحاق الأرغياني، قال: حدثنا يونس بن عبدالأعلى الصدفي، قال: كتب الخليفة إلى عبدالله بن وهب في قضاء مصر، فتجنن نفسه ولزم بيته، فاطلع عليه راشد بن سعد، وهو يتوضأ في صحن داره، فقال: أبا محمد الا تخرج إلى الناس، فتقضي بينهم بكتاب الله وسنّة رسول الله، فقد جننت نفسك ولزمت بيتك، فرفع إليه رأسه وقال: إلى ههنا انتهى عقلك؟ أما علمت «أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين؟» .

٥- حدثنا أبو القاسم منصور بن العباس الفقيه ببوشنج، قال: حدثنا أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن السلمي، قال: دعا الخليفة أيام المحنة محمد ابن مقاتل الرازي، وأبا الصلت عبدالسلام بن صالح الفهندري، فقال لمحمد بن مقاتل: ما تقول في القرآن؟ قال: أقول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فإن هذه الأربعة مخلوقة، أشار إلى أصابعه الأربع، فنجا» [عقلاء المجانين:ص٣٨].

القصة التاسعة عشرة ومائة
تصرفات المغفلين

١- كان عبدان الأسدي الشاعر أحمق: فيقال: إنه كان يأتي ابن بشر فيقول له: أخمسمائة اليوم أحب إليك أم ألف في القابل! فيقول: ألف في قابل، فإذا أتاه قابلاً قال له: ألف أحب إليك أم ألفان في القابل! فلم يزل كذلك حتى مات.

٢- وعن أبي الحسن الدامغاني - حاجب معز الدولة - قال: كنت في دهليز معز الدولة، فصاح صائح، نصيحة، فاستدعيته، وقلت: ما نصيحتك؟ قال: لا أذكرها إلا للأمير، فدخلت فعرفته، فقال: هاته، فأحضرته بين يديه فقال: ما عندك؟ قال: أنا رجل صياد بناحية المدائن، وكنت أصيد فعلقت شبكتي بأسفل جرف، فاجتهدت في تخليصها فتعذر عليّ ذلك حتى نزلت، وغصت في الماء، فإذا هي معلقة بعروة حديد، فحفرت فإذا قمقم مملوء مالاً فرددته مكانه، وناديت لأعرِّف الأمير، قال الدامغاني: فانحدرت معه في الوقت إلى المدائن العتيقة، وقصدنا الجرف، فوجدنا القمقم وقلعناه، وسعيت بنفسي في تتبع الموضع، فتقدمت إلى الصياد استقصاء الحفر، فوجدنا سبعة قماقم أُخر مملوءة مالاً، فحملنا الجميع إلى معز الدولة فسرّ به، فأمر للصياد بعشرة آلاف درهم، فامتنع من قبولها، وقال: الذي أريده غيرها، قال: ما هو! قال: تجعل لي صيد تلك الناحية، وتمنع كل أحد غيري من الصيد، فضحك الأمير، وعجب من جهله وحمقه: وأمر بما سأل.

٤- عن المدائني عن عمرو بن الحسن قال: خرج أهل بيت من اليمن من منازلهم حتى صاروا إلى شعب من الجبل، فاختفوا فيه، وقالوا: نهرب من شهر رمضان لا يدخل علينا.

٥- قال أبو علي الداراني: كان الطالقاني من أصحاب أبي حنيفة، وكان شديد الغفلة، فقال يوماً لابن عقيل: كيف مذهبكم في المرأة، هل يجوز أن يزوجها ابنها؟ قال له ابن عقيل: في ذلك تفصيل، إن كانت بكراً جاز، وإن كانت ثيباً لا يجوز، فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط. [اخبار الحمقى والمغفلين: ص١٥٣].

* * *

القصة العشرون ومائة
تصرفات حمقاء تتعلق بالبيض

لا يعرف المؤرخون العصور التي ابتدأ البشر فيها بأكل البيض، وقد أثبتت البحوث العلمية على مرّ التاريخ أن في أكل البيض فوائد كثيرة، والأمم المعتدلة تقبل على أكل البيض بأعداد كبيرة، فالفرد الواحد قد يصل تناوله للبيض في العام الواحد إلى ثلاثمائة أو أربعمائة بيضة، لكن يوجد في تلك المجتمعات من لا يأكل إلا القليل منه، وبعض الناس لا تشتهيه نفسه، ولا ترغب فيه، ولكن بعض الشعوب لها في البيض اعتقادات فاسدة، ومواقف منحرفة، فقد ذكر أحمد قدامة في كتابه: [الغذاء والتداوي بالنبات:ص٩٥] أن: «الاعتقادات لعبت دوراً مع البيض، فقد كان في الهند محرماً على الطبقات العليا لاعتقادهم أنه من المآكل التي تنجس آكليها! .

واليونانيون القدماء كانوا يحرمون على أنفسهم أكل البيض، ولحوم الحيوانات التي تنتج البيض! .

وحتى اليوم في أمريكا وآسيا وإفريقية وجزر المحيط الهادي أناس لا يأكلون البيض، وفي بلاد أستراليا يحرّم البيض على الفتيات حتى سن البلوغ، وأحياناً تُقتل البنت إذا مسّت بيضة أو كسرتها! .

والخرافات لعبت دورها في تقدير قيمة البيضة؛ فبعض الشعوب يعتقدون أن أخذ البيض من العش أو الحظيرة ليلاً يكون شؤماً على آخذه، ورؤية البيض

في المنام تنذر بخطر، واللصوص - في أمم أخرى - يعتقدون أن البلاء يصيبهم مدة سبع سنوات عن كل بيضة يسرقونها! .

وفي إنكلترا يعتقدون أن إحضار البيضة إلى البيت في يوم الأحد شؤم عليهم، ورمي قشر البيض في النار يجعل الدجاج لا يبيض، ونقل البيض معهم وهم يجتازون ماءً جارياً يجعل البيض فاسداً! .

وفي الحب والعواطف كان للبيض دوره أيضاً، فالفتيات العاشقات في بعض بلدان أوروبا وغيرها يضعن في كأس كمية من النبيذ الأبيض وبيضة نيئة، ويكرعن جرعة من هذا المزيج قبل الخروج في نزهة، وأول اسم شاب يسمعنه يتكلم سيكون الزوج المنشود!» .

* * *

الزمرة الثامنة عشرة

قصص مضحكة

تقديم:

لا يملك الرائي أو القارئ في بعض الأحيان إلا أن يرفع صوته بالضحك مما يراه أو يقرؤه أو يسمعه، وقد يكون الضاحك خليفة ورعاً، أو عالِماً تقياً، ولكن القصة لا تدعه حتى تنفرج أساريره، وتعلو قهقهته.

القصة الحادية وعشرون ومائة

دعوت الله أن لا يريني وجهك فلم يستجب لي

قال الشيخ زين الدين مرعي بن يوسف الكرمي: ذكر كثير من المؤرخين أن المنصور كان يدخل البصرة في أيام بني أمية مستتراً، فيجلس في حلقة أزهر السمّان المُحدِّث، فلما أفضت الخلافة إليه قَدِمَ عليه أزهر الكوفة، فرحّب به، وقرّب منزله، وقال له: ما الذي أقدمك علينا؟ قال: جئتك طالباً، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فأخذها وانصرف.

ثم عاد إليه في قابل، فلما رآه، قال له: ما جاء بك؟ قال: جئت مسلّما عليك. فأمر له بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانصرف.

ثم عاد إليه في قابل، فقال له: ما الذي أقدمك؟ قال: جئت عائداً، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: لا تأتنا طالباً ولا مسلّماً ولا عائداً؛ فأخذها وانصرف.

ثم عاد في العام القابل، فلما رآه، قال له: ما الذي أتى بك؟ فقال له: دعاءٌ كنت سمعته من أمير المؤمنين، جئت لأكتبه، فضحك المنصور، وقال: إنه غير مستجاب، لأني دعوت الله أن لا يريني وجهك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وتعال متى شئت، فقد أعيتنا فيك الحيلة. [غذاء الأرواح:ص٥١].

* * *

القصة الثانية والعشرون ومائة
قصة ديك مُزَبِّد

ذكر محمد خير رمضان أنه كان لرجل يدعى مُزَبِّد ديكٌ قديم الصحبة، نشأ في داره، وعُرف بجواره، فأقبل عيد الأضحى، ووافق من مزبِّد رقّة الحال، وخلوّ بيته من كل خير ومَيْر.

فلما أراد أن يغدو إلى المصلّى، أوصى امرأته بذبح الديك، واتخاذ الطعام لإقامة رسم العيد، فعمدت المرأة لتمسكه، فجعل يصيح، ويثب من جدار إلى جدار، ومن دار إلى دار، حتى أسقط على هذا من الجيران لبنة، وكسر لذلك غضّارة، وقلب للآخر قارورة.

فسألوا المرأة عن القصة في تعرُّضها له، فأخبرتهم، فقالوا: والله ما نرضى أن يبلغ حال أبي إسحاق (مزبِّد) إلى ما نرى، وكانوا أجواداً، فبعث بعضهم إلى داره بشاة، وبعضهم بشاتين، وأنفذ بعضهم بقرة، وتغالوا في الإهداء، حتى غصّت الدار بالشِّياه والبقر! وذبحت المرأة ما شاءت، ونصبت القِدْر، وسجرت التنور، وكرّ مزبِّد راجعاً إلى منزله، فرأى روائح الشواء قد امتزجت بالهواء، فقال للمرأة: أنّى لك هذا الخير؟ فقصّت عيه قصة الديك، وما ساق الله إليهم ببركته من الخيرات، فامتلأ سروراً، وقال لها: احتفظي بهذا العِلْق النفيس، وأكرمي مثواه... [دكانة الكتب:ص٨٤].

* * *

القصة الثالثة والعشرون ومائة
قصص المغفلين من القضاة

قال أبو فرح ابن الجوزي:

١- عن ابن الأعرابي قال: خاصم أبو دلامة رجلاً إلى عافية فقال:

لَقَـدْ خاصَـمَتْني غُـواةُ الرِّجـالِ وخاصَـمْتُهُمْ سَـنَةً وافِيَـهْ
فمـا أدْحَـضَ اللهُ لـي حجّـة ومـا خيّـب اللهُ لـي قَافِيَـهْ
فمَـن كنـتُ مِـنْ جَـوْرِهِ خائِفـاً فلسـتُ أخافَـكَ يـا عَافِيَـهْ

فقال له عافية: لأشكونك لأمير المؤمنين، قال: لِمَ تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني، قال: والله لئن شكوتني إليه ليعزلنك، قال: لم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجو من المدح. (عافية هذا هو ابن زيد القاضي، ولاه المهدي القضاء على بغداد).

٢- حدث عبدالرحمن بن مسهر قال: ولآني القاضي أبو يوسف القضاء (بجبل)، وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة، فسألت أهل جبل أن يثنوا عليّ، فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرقوا، فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي، وخرجت فوقفت له، فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين، نِعْمَ القاضي قاضي جبل، قد عدل فينا وفعل وصنع، وجعلت أثني على نفسي، فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك، فقال هارون: مم تضحك؟ فقال: إن

المثني على نفسه هو القاضي، فضحك هارون حتى فحص برجليه، وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلني.

٣- عن علي بن هشام أنه قال: كان للحجاج قاض بالبصرة من أهل الشام، يقال له أبو حمير، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال له: يا أبا حمير فأين تذهب؟ قال: إلى الجمعة، فقال ما بلغك أن الأمير قد أخر الجمعة اليوم؟ فانصرف راجعاً إلى بيته، فلما كان من الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حمير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: لقيني بعض أهل العراق، فأخبرني أن الأمير أخّر الجمعة فانصرفت، فضحك الحجاج، وقال: يا أبا حمير، أما علمت أن الجمعة لا تؤخَّر.

٤- قال المدائني: استعمل حيان بن حسان قاضي فارس على ناحية (كرمان)، فخطبهم فقال: يا أهل كرمان تعرفون عثمان بن زياد، هو عمي أخو أمي، فقالوا فهو خالك إذن.

٥- قال ابن خلف: قال بعض الرواة، تقدم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حران فقال أحدهما: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكاً لي، فخذ لي بحقي، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة، فإنه ينظر في الدماء. [اخبار الحمقى والمغفلين:ص٩٥].

* * *

الزمرة التاسعة عشرة

قصص المصائب العِظام في تاريخ أمة الإسلام

تقديم:

مرت على الأمة الإسلامية أهوال عظام، لولا حفظ الله ورعايته لزالت أمة الإسلام، ولكن الله حفظها ليبقى هذا الدين، وليبقى القرآن محفوظاً بحفظ الله، فقد أقام العبيديون الفاطميون دولة تُظهر غير ما تُبطن، وجاء الصليبيون ليدمروا معاقل الإسلام، واجتاح التتار الدولة الإسلامية وخرّبوها، وزال كل هؤلاء، وبقي الإسلام غضاً طرياً، وبقيت أمة الإسلام حيّة نضرة، والحمد لله رب العالمين.

القصة الرابعة والعشرون ومائة
دولة العبيديين الفجرة

من البلاء العظيم الذي ابتليت به أمة الإسلام قيام دولة العبيديين بالحكم في مصر، وقد استمرت دولتهم مئتين وثمانين سنة، وآخر حكامهم العاضد، واسمه عبدالله بن يوسف، وكان شيعياً خبيثاً، لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنّة، وكان صلاح الدين الأيوبي والياً على مصر في ذلك الوقت، فعمل على إزالة دولتهم، وهدم باطلهم، فصاروا كأمس الذاهب.

وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حداداً اسمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة بعد الأربعمائة، والمقصود أن هذا الدعيَّ الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووازره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبةً إليه، وصار ملكاً مطاعاً، يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض.

ثم كان من بعده ابنه القائم محمد، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه المعز معد، وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة المعزية والقصران، ثم ابنه العزيز نزار، ثم ابنه الحاكم منصور، ثم ابنه الطاهر علي، ثم ابنه المستنصر معد، ثم ابنه المستعلي أحمد، ثم ابنه الآمر منصور، ثم ابن عمه الحافظ عبدالمجيد، ثم ابنه الظافر إسماعيل، ثم الفائز عيسى، ثم ابن عمه العاضد عبدالله وهو آخرهم، فجملتم أربعة عشر ملكاً، ومدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك عدة خلفاء بني أمية أربعة عشر أيضاً؛ ولكن كانت مدتهم نيفاً وثمانين سنة.

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أجبر الخلفاء وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقلّ عندهم الصالحون من العلماء العُبّاد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وإنطاكية وجميع ما والى ذلك، وإلى بلاد إياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين وبلاد شتى غير ذلك.

وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيهم إلا الله، سبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحتها وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلّم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته. [البداية والنهاية:١١/ ٢٦٧].

* * *

القصة الخامسة والعشرون ومائة
هجوم القرامطة على الحجيج بمكة يوم التروية

من الوقائع الكبار التي أصابت الأمة الإسلامية عبر تاريخها ما ذكره ابن كثير في [البداية والنهاية:١١/ ١٦٠] من هجوم القرمطي في جماعته على الحجيج الذين اجتمعوا في مكة من كل فجٍّ عميق في يوم التروية في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، «فانتهب أموالهم، واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً.

وجلس أميرهم أبو طاهر لعنه الله على باب الكعبة، والرجال تُصرع حوله، والسيوف تُعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام في يوم التروية، الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول: أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا.

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً، بل يُقتلون وهم كذلك، ويطوفون ويُقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فلما وجب أنشد، وهو كذلك:

ترى المحبّينَ صَرعى في ديارِهمُ   كفِتْيةِ الكهفِ لا يدرُونَ كم لبثوا

فلما قضى القرمطي لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن تُدفن القتلى في بئر زمزم، ودُفن كثير منهم في أماكنهم من

الحرم، وفي المسجد الحرام، ويا حبذا تلك القتلة وتلك الضجعة، وذلك المدفن والمكان، ومع هذا لم يغسلوا، ولم يكفنوا، ولم يصلَّ عليهم، لأنهم محرمون شهداء في نفس الأمر.

وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلاً أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات إلى النار، فعند ذلك انكف الخبيث عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، فجاءه رجل فضربه بمثقّل في يده وقال: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة، حتى ردوه في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما رجع القرمطي إلى بلاده ومعه الحجر الأسود تبعه أمير مكة هو وأهل بيته وجنده، وسأله وتشفع إليه أن يرد الحجر الأسود، ليوضع في مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال، فلم يلتفت إليه، فقاتله أمير مكة فقتله القرمطي، وقتل أكثر أهل بيته، وأهل مكة وجنده، واستمر ذاهباً إلى بلاده، ومعه الحجر وأموال الحجيج.

وقد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد، ولا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنيع أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنة ببلاد إفريقية من أرض المغرب، ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح. وقد كان صباغاً بسلمية، وكان يهودياً، فادعى أنه أسلم ثم سافر من سلمية، فدخل بلاد إفريقية، فادعى أنه شريف فاطمي، فصدّقه على ذلك طائفة كثيرة من البربر وغيرهم من

الجهلة، وصارت له دولة، فملك مدينة سجلماسة، ثم ابتنى مدينة وسماها المهدية، وكان قرار ملكه بها، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويدعون إليه، ويترامون عليه، ويقال: إنهم إنما كانوا يفعلون ذلك سياسة ودولة لا حقيقة له.

وقد أسر بعض أهل الحديث في أيدي القرامطة، فمكث في أيديهم مدة، ثم فرّج الله عنه، وكان يحكي عنهم عجائب من قلة عقولهم وعدم دينهم، وأن الذي أسره كان يستخدمه في أشق الخدمة وأشدها، وكان يعربد عليه إذا سكر، فقال لي ذات ليلة وهو سكران: ما تقول في محمدكم؟ فقلت: لا أدري. فقال: كان سائساً، ثم قال: ما تقول في أبي بكر؟ فقلت: لا أدري، فقال: كان ضعيفاً مهيناً، وكان عمر فظاً غليظاً، وكان عثمان جاهلاً أحمق، وكان علي ممخرقاً ليس كان عنده أحد يعلمه ما ادعى أنه في صدره من العلم، أما كان يمكنه أن يعلم هذا كلمة وهذا كلمة؟ ثم قال: هذا كله مخرقة، فلما كان من الغد قال: لا تخبر بهذا الذي قلت لك أحداً، ذكره ابن الجوزي في منتظمه.

وروي عن بعضهم أنه قال: كنت في المسجد الحرام يوم التروية في مكان الطواف، فحمل على رجل كان إلى جانبي فقتله القرمطي، ثم قال: يا حمير - ورفع صوته بذلك - أليس قلتم في بيتكم هذا ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران:٩٧] فأين الأمن؟ قال: فقلت له: اسمع جوابك. قال: نعم، قلت: إنما أراد الله فأمنوه. قال: فثنى رأس فرسه وانصرف. وقد سأل بعضهم ههنا سؤالاً. فقال: قد أحل الله سبحانه بأصحاب الفيل - وكانوا نصارى - ما ذكره في كتابه، ولم يفعلوا بمكة شيئاً مما فعله هؤلاء، ومعلوم أن القرامطة شر من اليهود والنصارى والمجوس، بل ومن عبدة الأصنام، وأنهم فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، فهلا عوجلوا بالعذاب والعقوبة، كما عوجل أصحاب الفيل؟

وقد أجيب عن ذلك بأن أصحاب الفيل إنما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت، ولما يراد به من التشريف العظيم بإرسال النبي الكريم، من البلد الذي فيه البيت

الحرام، فلما أرادوا إهانة هذه البقعة التي يراد تشريفها وإرسال الرسول منها أهلكهم سريعاً عاجلاً، ولم يكن شرائع مقررة تدل على فضله، فلو دخلوه وأخربوه، لأنكرت القلوب فضله.

وأما هؤلاء القرامطة فإنما فعلوا ما فعلوا بعد تقرير الشرائع وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة، وكل مؤمن يعلم أن هؤلاء قد ألحدوا في الحرم إلحاداً بالغاً عظيماً، وأنهم من أعظم الملحدين الكافرين، بما تبين من كتاب الله وسنّة رسوله، فلهذا لم يحتج الحال إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخرهم الرب تعالى ليوم تشخص فيه الأبصار، والله سبحانه يمهل ويملي، ويستدرج، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، كما قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم:٤٢] وقال: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧] وقال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤].

* * *

الزمرة المتممة للعشرين

قصص الأجوبة المسكتة

تقديم:

الأجوبة بين المتحاورين كثيرة الأغراض، متنوعة المقاصد، وبعض هذه الأجوبة تكون كالسيف القاطع، فلا يمكن ردّه أو التعقيب عليه، ومع كونه قاطعاً كالسيف، لا يملك السائل له مدفعاً، فإنه قد يكون مؤلماً موجعاً، وقد يعظم المجيب فيه نفسه، وقد يرفع سائله، وقد يكون قاطعاً لأنه جلّى الحقيقة، وكشف اللثام عنها، وقد يكون في الجواب اعتذار لا يمكن ردّه، وقد يسأل المحاور سؤالاً يريد به إحراج المسؤول، فيكون في الجواب ما يرفع الحرج، ويفخر بما يعاب منه.

وبعض الأجوبة ترفع القتل، وتوقف العقوبة، وقد يكون في الجواب علم يجلي الحقائق، ويبرز الحكم ويظهرها.

وقد أورد أبو عمر بن عبدالبر في كتابه [بهجة المجالس:١/ ٩٤] جملة من الأجوبة المسكتة، التي تعجب السامع، وتخلب لب صاحب العقل البارع، وسأختار بعضاً منها في هذه الباقة.

القصة السادسة والعشرون ومائة
نماذج من قصص الأجوبة المسكتة

١- قال الأعمش: احذروا الجواب، فإن عمرو بن العاص قال لعدي بن حاتم: متى فقئت عينك يا أبا طريف؟ قال: يوم طُعنت في استك، وأنت مولٍّ يوم صفين.

٢- شهد أعرابيّ بشهادة عند معاوية على شيء، فقال: كذبت. فقال: الكذاب والله مزمل في ثيابك، فتبسم معاوية، وقال: هذا جزاء من عجل.

٣- أنشد ابن الرِّقاع قصيدة يذكر فيها الخمر، فقال له معاوية: أما إني قد ارتبت فيك في جودة وصف الشراب، فقال: وأنا قد ارتبت بك في معرفته.

٤- قال تميم بن نصر بن سيّار لأعرابي: هل أصابتك تخمة قط؟ قال: أما من طعامك وشرابك فلا.

٥- قيل لأعرابي: صف لنا النخلة، فقال: صعبة المرتقى، بعيدة المهوى، مهولة المجتنى، رهيبة السلاح، شديدة المؤونة، قليلة المعونة، خشنة الملمس، ضئيلة الظل.

٦- دخل معن بن زائدة على المنصور، فأسرع المشي، وقارب الخطو، فقال له المنصور: كبرت سنُّك يا معن؟ قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك مع ذلك لجلد. قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. قال: وإن فيك لبقية. قال: هي لك يا أمير المؤمنين.

٧- قال المهدي لجرير بن زيد: يا جرير! إني لأعِدُّك لأمر. قال جرير: إن الله قد أعدّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة بطاعتك، وسيفاً مشحوذاً على عدوك، إذا ما شئت.

٨- قالت جارية ابن السمّاك له: ما أحسن كلامك إلا أنك تردده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يكن فهمه. قالت: فإلى أن يفهمه من لم يكن فهمه يمله من فهمه.

٩- قال الحسن لابن سيرين: تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب. فقال ابن سيرين: وأنت تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل.

١٠- مرت أمة بسعيد بن المسيب، وقد أقيم ليُضرب، فقالت: يا شيخ! لقد أقمت مقام الخِزي، فقال: بل من مقام الخزي فررت.

١١- لقي الحسين الفرزدق في حين خروجه إلى العراق، فسأله عن الناس، فقال: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من الله.

١٢- قيل للأصمعي: لماذا لا تقول الشعر؟ قال: الذي أريده لا يواتيني، والذي يواتيني لا أريده، أنا كالمِسنّ أشحذ ولا أقطع.

١٣- ونعي إلى أعرابية ابن لها، فقالت: لقد نعيتموه كريم الجدّين، ضحوكاً إذا أقبل، كسوباً إذا أدبر، يأكل ما وجد، ولا يسأل عما فقد.

١٤- قال أبو الزناد لابن شبرمة في مناظرته له: من عندنا خرج العلم، فقال ابن شبرمة: ثم لم يعد إليكم.

١٥- قال معاوية لابن عباس: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم.

١٦- قال الرشيد لشريك القاضي: يا شريك! آية في الكتاب ليس لك ولا لقومك فيها شيء. قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ

لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤]، فقال: آية أخرى ليس لي ولا لقومي فيها شيء. قال: وما هي؟ قال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام:٦٦].

١٧- قال المنذر بن الجارود لعمرو بن العاص: أي رجل أنت لو كانت أمك من عز قريش؟ قال عمرو: أحمد الله إليك، لقد عرضت قبائل العرب على نفسي أتمنى من أيهم تكون أمي في طول ليلتين، فما خطرت عبدالقيس على بالي.

١٨- جُعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص، وهو على المنبر، عن أمه، فسأله، فقال: هي سلمى بنت حرملة، تلقب النابغة، من بني عنزة، ثم أحد بني جلاَن، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكِهُ ابن المغيرة، ثم اشتراها منه عبدالله بن جُدْعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت وأنجبت. فإن كان لك جُعل فخذه.

١٩- جلس معاوية يأخذ البيعة على أهل العراق بالبيعة له، والبراءة من علي، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين! إنا نبايع أحياءكم، ولا نتبرأ من موتاكم، فنظر معاوية إلى المغيرة بن شعبة، فقال: رجل، فاستوص به خيراً.

٢٠- ظفر الحجاج بأصحاب ابن الأشعث، فجلس يضرب أعناقهم، فأُتي في آخرهم برجل من تميم، فقال له: يا حجاج! لئن كنا أسأنا في الدنيا، فما احسنت في العقوبة. فقال الحجاج: أفّ لهذه الجِيَف، ما كان فيهم من يحسن هذا؟ وأمر بتخلية سبيل من بقي.

٢١- لما مات الحسن أرادوا أن يدفنوه في بيت رسول الله ﷺ ، فأبت ذلك عائشة، وركبت بغلة وجمعت إليها الناس، فقال لها ابن عباس: كأنك أردت أن يقال: يوم البغلة كما قيل يوم الجمل؟! قالت: رحمك الله، ذاك يوم نُسي. قال: لا يوم أذكر منه على الدهر.

٢٢- قيل لمعاوية بن أبي سفيان، يوم صفين: إنك تتقدم حتى نقول: إنك تقبل، وإنك أشجع الناس، وتتأخر حتى نقول: إنك تفر، وإنك أجبن الناس. قال: أتقدم إذا كان التقدم غُنماً، وأتأخر إذا كان التأخر عزماً.

٢٣- قال أبو جعفر المنصور لأبي جَعْوَنة العامريّ من أهل الشام: ألا تحمدون الله بأنا قد ولينا عليكم، ورفع عنكم الطاعون؟! قال: لم يكن ليجمعكم الله علينا والطاعون.

٢٤- قال معاوية لرجل من أهل اليمن: ما كان أحمق قومك حين قالوا: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبا:١٩] أما كان جمع الشمل خيراً لهم؟ فقال اليماني: قومك أحمق منهم، حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، أفلا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

٢٥- قال رجل للرقاشي: ما يجعل المؤمن في حق الله؟ قال: التعظيم له، والشكر لنعمِهِ، قال: فما يجب عليه في حق السلطان؟ قال: الطاعة والنصيحة. قال: فما يجب عليه في حق نفس؟ قال: الاجتهاد في العبادة، واجتناب الذنوب. قال: فما يجب عليه في حق العامة؟ قال: كف الأذى وحُسْن المعاشرة. قال: فما يجب عليه في حق الخليط؟ قال: الوفاء بالمودة وحُسْن المعونة.

٢٦- تفاخر أهل الكوفة وأهل البصرة، فقال ابن شبرمة - وكان كوفياً - : لنا أحلام ملوك المدائن، وسخاء أهل السواد، وظرف أهل الحيرة، ولكم سفه السند، وبخل الخزر، وحمق أهل غسان.

٢٧- سمع إياس بن معاوية - رحمه الله - يهودياً يقول: ما أحمق المسلمين! يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ولا يُحدثون. فقال له إياس بن معاوية: أوَ كل ما

تأكله تُحدثه؟ قال: لا. لأن الله يجعل أكثره غذاء. قال: فلم تنكر أن يجعل الله جميع ما يأكله أهل الجنة غذاء.

٢٨- جمع المأمون بين العتّابي وبين أبي قُرَّة النصراني، فقال لهما: تناظرا وأوجزا. فقال العتابي لأبي قرة: أسألك أم تسألني؟ فقال: سلني. قال: ما تقول في المسيح؟ قال: أقول إنه من الله عز وجل. فقال العتابي: إن (من) تجيء على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل، والخلُّ من الحلو على سبيل الاستحالة، والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة؟ قال: لا، ولكني لو قلت واحدة من هذه ما كنت تقول؟ فقال العتابي: إن قلت: إنه كالبعض من الكل جزّأته، والباري لا يتجزأ، وإن قلت: إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد وثالثاً ورابعاً إلى ما لا نهاية، وهذا لا يجوز على الباري عز وجل، وإن قلت على سبيل الاستحالة، أوجبت فساداً، والباري لا يستحيل، ولا ينتقل من حال إلى حال، وإن قلت: إنه كالخلق من الخالق، كان قولاً حقاً، وهو الحق الذي لا شك فيه.

٢٩- وُصف إبراهيم النظام لأبي عبيدة معمر بن المثنى باليقظة وسرعة الجواب، فمرّ به يوماً ومعه قارورة زجاج، فأراد أن يختبره، فقال: يا أبا إسحاق! ما عيب هذه؟ فقال سريعة الانكسار، بطيئة الانجبار، فأعجب ذلك أبا عبيدة.

٣٠- دخل المعتصم على خاقان عائداً فقال للفتح بن خاقان: أيُّما أحسن، دار أمير المؤمنين أم دار أبيك؟ فقال: ما دام أمير المؤمنين في دار أبي فدار أبي أحسن.

٣١- قال مالك بن أنس: قدم على عمر بن العزيز فَتَيان، فقالا: إن أبانا توفي، فترك مالاً عند عمّنا حُمَيْد، فأمر عمر بإحضاره، فلما دخل عليه، قال له عمر: يا حميد! أنت القائل:

حميــــدُ الّــــذي أمَــــجّ دَارُهُ أخــو الخَمْــرِ ذو الــشَّيْبَةِ الأصْــلَعُ
أئـــانِي المَــشيبُ عَلَــى شُــرْبِهَا وكَـــان كَرِيمـــاً فَمَـــا يَنْـــزِعُ

فقال: نعم. قال: أما إذ أقررت، فأني ساجلدك؟ قال: ولم؟ قال: لأنك أقررت بشرب الخمر، وزعمت أنك لم تنزع عنها. فقال: هيهات، أين يُذهب بك؟ ألم تسمع قول الله يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦]؟ قال عمر: أولى لك يا حميد، لقد أفلت.

ثم قال: ويحك يا حميد، كان أبوك صالحا، وأنت رجل سوء، قال: أصلحك الله، وأنت رجل صالح، وكان أبوك رجل سوء، وما كلّ الناس يشبه أباه، فقال: إذن هؤلاء يزعمون أن أباهم توفي، وترك عندك مالاً، قال: صدقوا، وأنا أحضره الآن، فأحضره بخواتيم أبيهم، ثم قال: إن هؤلاء توفي أبوهم منذ كذا وكذا، وأنا أنفق عليهم من مالي، وهذا مالهم. فقال عمر: ما أحدٌ أحقّ أن يكون عنده منك، قال: ما كان ليعود إليّ وقد خرج من عندي.

* * *

الزمرة الحادية والعشرون

قصص الذين خطبوا فأرتج عليهم

تقديم:

بعض الذين يتسنمون المنابر يظنون الخطابة أمراً سهلاً، فما يكادون يواجهون الناس حتى يرتج عليهم، ويحصروا، وقد يكون بعض هؤلاء ممن يحسن الخطابة، ولكنه يحصر في بعض الخطب دون بعض.

وبعض الذين يحصرون يعتذرون للمخاطبين فيحسنون الاعتذار، وبعضهم يسيء في اعتذاره، وبعضهم لا ينبس ببنت شفة، وقد يقع صريعاً مغشياً عليه. وقد أورد أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري جملةً من أخبار الذين أرتج عيهم في خطبهم في كتابه [بهجة المجالس:١/ ٧٣].

القصة السابعة والعشرون ومائة

نماذج من قصص الذين خطبوا فأرتج عليهم

١- صعد عثمان بن عفان ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم أرتج عليه، فقال: أما بعد، فإن أول كُلِّ مركبٍ صعب، وما كنا خطباء، وسيعلم الله، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حيٌّ لموعوظ.

٢- ويُروى أن عثمان بن عفان ﷺ صعد المنبر فأُرتج عليه، فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال.

٣- ورُوى أن عثمان لما بويع، قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم أُرتج عليه، فقال: وَلِيناكم وعَدَلْنا فيكم، وعدلُنا عليكم خيرٌ من خطبتنا فيكم، فإن أعِشْ يأتكم الكلام على وجْهه.

٤- وروى أن عبدالرحمن بن جابر بن الوليد، خطب الناس على منبر حمص، فأُرتج عليه، فقال: يا أهل حمص! أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب مصقع، ثم نزل.

٥- وارتج على معن بن زائدة، وهو على المنبر، فضرب بيده ثم قال: فتى حرب لا فتى منابر.

٦- صعد عبدالله بن عامر منبر البصرة، فحُصر، فشقّ ذلك عليه، فقال له زياد: أيها الأمير! إنك إن أقمتَ عامة من ترى أصابهم أكثر مما أصابك.

٧- صعد عليّ بن أرطاة المنبر، فقال: الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم.

٨- أرتج على خالد بن عبدالله القسري على منبر الكوفة، فقال: إن هذا الكلام يجيء أحياناً ويَعزُبُ أحياناً، ويسْهُل عند مجيئه، ويعسُر عند عُزوبه، وربما طُلب فأبى، وكُوبِر فعصى، فالتأنيّ لمجيئه أيسر من التعاطي لأبيّه، وهو يختلج من الجريء جنانه، وينقطع من الذرب لسانه، فلا ينظره القول إذا اتسع، ولا يكسره النطق إذا امتنع، وسأعود فأقول إن شاء الله.

٩- خطب رجل من الأزد أقامه زياد للخطبة على منبر البصرة، فلما رقى المنبر، وقال الحمد لله، أرتج عليه، فقال: قد والله هممتُ ألاّ أحضر اليوم،

فقالت لي امرأتي: نشدتك الله إن تركت الجمعة وفضْلها، فأطعتها، فوقفت هذا الموقف، فاشهدوا أنها طالق. فقالوا له: انزل قبحك الله، وأنزل إنزالاً عنيفاً، وقد قيل: إن هذه القصة لوازع اليشكري، وفي ذلك قال الشاعر:

ومـــا ضَـــرَّنِي ألاّ أقُـــومَ لِخُطْبَـــةٍ ... ومَـا رَغْبَتِـي في مِثْـلِ مَـا قَـالَ وَازِعُ

٩- وذكر القَهرَميّ عن أبيه، قال: قام القُلاَّخُ بن حَزْن يوم عيد خطيباً، فقال: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض في ستة أشهر. فقيل له: إنما خلقها في ستة أيام فقال: أقيلوني، فوالله لقد ظننت أني أقللتُ، وكنت أريد أن أقول في ست سنين.

١٠- صعد رَوْح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد فتحوا أسماعهم، وشقّوا أبصارهم، قال: نكّسوا رؤوسكم، وغُضوا أبصاركم، فإن أول كل مركب صعب، وإذا يسّر الله فتح قفل يُسِّر.

١١- خطب مصعب بن حيان خطبة نكاح فحُصر، فقال: لقّنوا موتاكم شهادة ألا إله إلا الله، فقالت أم الجارية: عجّل الله موتك، ألهذا دعوناك؟! .

١٢- قيل لرجل من الوجوه: قم فاصعد المنبر فتكلم، فقام، فلما صعد المنبر حُصر، فقال: الحمد لله الذي يرزق هؤلاء، وبقي ساكتاً فأنزلوه، واصعدوا آخر، فلما استوى قائماً وقابل وجوه الناس بوجهه، وقعت عينه على رجل أصلع وحُصر، فقال: اللهم العن هذه الصّلعة.

١٣- صعد عَتّاب بن ورقاء منبر أصبهان فحصر، فقال: والله لا أجمع عليكم عيّاً وبخلاً، ادخلوا سوق الغنم، فمن أخذ شاة فهي له، وثمنها عليّ.

١٤- وقد روي أن هذا إنما عرض لعبدالله بن عامر على منبر البصرة، وأن عتّاب بن ورقاء هو الذي قام على المنبر، فحمد الله، ثم أرتج عليه، فجعل

يقول: أما بعد أما بعد... ، وقبالة وجهه شيخ أصلع فقال: أما بعدُ يا أصلع، فوالله ما غلَطني غيرك، عليَّ به، فأتي به فضربه أسواطاً.

١٥- وصعد آخر المنبر فقال: إن الله لا يرضى لعباده المعاصي، وقد أهلك أمة من الأمم بعقرهم ناقة لا تساوي مائتين وخمسين درهماً، فسمّى مُقَوِّم الناقة.

* * *

الزمرة الثانية والعشرون

قصص فيها دعابة

تقديم:

بعض الفضلاء من الخلفاء والعلماء والقضاة فيهم دعابة، وأصل ذلك موجود في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، وينبغي أن لا تكون الدعابة في باطل، ولا تخرج بالمرء عن حدود الأدب والكياسة.

القصة الثامنة والعشرون ومائة

دعابة المنذر بن سعيد

١ - كان القاضي المنذر بن سعيد البلوطي على متانته وشدّة جزالته، حَسَنَ الخلق، خفيفَ الوطأة، سهْل الجانب، كثير الدعابة، منطلِقَ البشر، حتى إنه ربما استراب بباطنه من لا يعرفه إذا شاهد استرساله؛ فإذا رام أحد أن يصيب من دينه، ثار ثورة الليث، ومن ذلك ما حكاه عنه أبو عمر بن لبيب، أنه حضر عند الخليفة الحَكَم المستنصر بالله يوماً، في خلوة له، وهو في البستان على بِركة، في زمان صيف شديد الحر والوهج، وذلك منصرفَ القاضي من صلاة الجمعة؛ فشكا إلى الخليفة من قوة الحر جهداً؛ فأمره بخلع ثيابه، والتخفيف عن جسمه؛ ففعل؛ فلم يُطْفِ ذلك ما به؛ فقال له الحَكَم: «من الصواب أن تنغمس في هذا

الصهريج انغماسة تبرد جسمك وتعدِّله، فقُم! فليس هاهنا من تحتشمه!» وإنما كان معهما جعفر الصقلبي أثير الخلافة، لا رابع لهم؛ فكأنه استحيا من ذلك، وانقبض عنه وقاراً، فأمر الحَكَم حاجبه جعفراً بسبقه إلى النزول في الصهريج، ليسهل الأمر فيه على القاضي؛ فبادر جعفر إلى ذلك، واتزر، وألقى بنفسه في الماء؛ وكان يُحسن السباحة، فلم يسع القاضي عند ذلك إلا إنفاذ أمر الخليفة؛ فقام، واتزر وتجرّد، وألقى بنفسه خلف جعفر، ولاذ بالقعود في درج الصهريج متبرِّداً؛ فلم ينشط في السباحة، وجعفر يجول فيه مجاله، مصعِّداً في الصهريج ومصوِّباً، فدّسه الحَكَم على القاضي، فهو يدعوه إلى المساجلة في العوم، ويعجزه في إخلاده إلى القعود، ويباغيه بإلقاء الماء عليه، والرشّ له، والآخر لا ينبعث، ولا يفارق مكانه إلى أن كلّمه الحكم وقال له: «ما لك أيها القاضي؟ لا تساعد الحاجب في فعله وتعوم معه! فمن أجلك تبذَّلَ فيما تبذَّل فيه!» .

فقال له: «يا سيدي، الحاجب – سلّمه الله – مطلق، لا هَوْجَلَ معه! وأنا بالهوجل الذي معي، يعقلني ويمنعني من الأعماق في الصهريج! يريد بمقالته أنثيَيْه وأن جعفراً مجبوب. فاستفرغ الحكم ضحكاً من نادرته، ولطف تعريضه، فخجل الحاجب من قوله، وسبّه سبَّ الأشراف. وخرجا عن الماء، فأمر لهما الخليفة – رحمه الله! – بكسوة تشاكِلُ كلاًّ منهما، ووصلهما بصلة سنيّة.

٢- قال الحسن بن محمد في كتابه: وذكِر أن الخليفة الحَكَم قال لقاضيه منذر يوماً، في بعض ما جاوبه: «بلغني أنك لا تجتهد للأيتام، وأنك تقدِّم عليهم أوصياء سوء، يأكلون أموالهم!» قال: «نعم! وإن أمْكَنَهم نيكُ أمَّهاتهم، لم يعفُوا عنهنَّ!» فقال له: «وكيف تقدِّم مثل هؤلاء؟» فقال: «لست أجد غيرهم، ولكن أحِلْني على الفقيه اللؤلؤي، وأبي إبراهيم، وأمثالهما لأقدِّمهم، فإن أبوا، أجبرتهم بالسجن والضرب، ثم لا تسمع إلا خيراً، وإلا، فدع الأمور تمضي كما هي! فالله «بالمرصاد!» [تاريخ قضاة الأندلس:ص٧٢].

القصة التاسعة والعشرون ومائة
كان في القاضي سليمان دعابة تستحسن وتستظرف

كانت في القاضي سليمان بن الأسود دعابة تستحسن وتُستظرف، منها أنه كان يعلم شدة شهوة إبراهيم بن يزيد في الصلاة بالناس، وترشيحه نفسه لها؛ وتربُّصه به الدوائر ليثبت عليها، فلم يشعر سليمان غداة يوم من بعض الجُمَع، وقد أحبَّ الدعة في بيته، إذ استأذن عليه إبراهيم المذكور، فذهب إلى المداعبة به، وقال لغلامه: «اخرج إليه متباكياً، وأظهِر الإشفاق عليّ، وقل له: أحسب مولاي في الموت! ثم أدخِله!» فدخل، وقد اضطجع سليمان، وسجى على نفسه، وجعل يتنفّس تنفس الهالك، فلما نظر إليه؛ ترجّع واستغفر، ثم خرج عنه، فمضى من فوره إلى هاشم بن عبدالعزيز قيِّم الدولة؛ فعرّفه حال سليمان: «وأنه يعالج الموت، وما أظنه يبلغ وقت صلاة الجمعة؛ وإن بلغ دماؤه، فإنه لا يُصلّيها!» . وحمله على إعلام الأمير محمد بذلك، والكتب إليه، ليرتاد الصلاة قبل الضيعة.

فقال له هاشم: «انظر ما تحكيه! فليست له عندنا مقدمة، أنت رأيته بعينك الساعةَ على هذه الحالة؟» قال: «نعم! هذا خروجي من عنده إليك» . فقال هاشم: «ما بعد هذا شيء!» .

ثم وضع يده، وكتب إلى الأمير يُخبره بما حكاه ابن يزيد، من شدة مرض القاضي سليمان، ويأسه من قيامه للصلاة، وتحرُّكه للنظر فيمن يَلي مكانه.

فلما قرأ الأمير كتابه، استراب فيه، وفكر في الأمر، فوقف على أن إبراهيم شديد الشهوة في الصلاة، واستحال عنده أن لم يسمع بأول مرض قاضيه ولا

بانتهائه؛ فعلم بجودة نظره أن في الخبر خللاً، فقال لخادم من خدّامه، من وجوه صقالِبَته: «انطلق الساعة، وادخل على القاضي سليمان بن الأسود، وانظر حاله وما تجده عليه، فإن وجدته متخففاً، يتكلم، ويبين عن نفسه، فتسأله إن كانت به طاقة على الصلاة والخطبة أم لا؟» .

فأتى الفتى إلى سليمان، ودخل عليه؛ فوجده جالساً جلوس صحيح؛ فروى له عن بعض الخبر، وألطف مسألته: فأنكرها سليمان وقال: «ها أنا رائح بحمد الله!» ، ودعا بوضوئه بحضرة الرسول؛ فتوضأ، ولبس ثيابه، وخرج مع الرسول، ساعياً على قدميه، إلى المسجد الجامع، فرجع الفتى إلى الأمير، وأعلمه بالقصة على وجهها، وبخروجه معه، فضحك منه، وقال: «لقد طيّب سليمان في ابن يزيد، ولعب به لعب الصبا، وحرّك منه ساكناً!» وصار يضحك مع هاشم بذلك عدة أيام، حتى شاع ذكره في العامة. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٥٨].

* * *

القصة الثلاثون ومائة
مزاح شريح القاضي

ولي أبو أمية شريح بن الحارث الكندي القاضي قضاء الكوفة لعمر فمن بعده، وعاش أكثر من مائة سنة، وولي القضاء خمساً وسبعين سنة، واستعفى من القضاء قبل موته بعام، فأعفاه الحجاج، وكان فقيهاً شاعراً محسناً صاحب مزاح، وكان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء، ومعرفة وعقل وإصابة، وهو أحد السادات الطلس، وهم أربعة: عبدالله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الكندي الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح المذكور، والأطلس: الذي لا شعر في وجهه.

ومن مزاح شريح أنه دخل عليه عدي بن أرطاة، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال بينك وبين الحائط، قال: اسمع مني، قال: قل أسمع، قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: وتزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط لها دارها، أو قال: المؤمنون عند شروطهم، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: من حكمت؟ قال: فعلى ابن أمك، قال بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

* * *

الزمرة الثالثة والعشرون

قصص في كذب المنجمين

تقديم:

يدعي المنجمون في كل عصر أنهم يعلمون الغيب، فتراهم يأمرون وينهون زاعمين أن السعادة والسؤدد في اتباع ما يرشدون إليه، وهم كاذبون فيما يزعمون، فالغيب كله لله تعالى، وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى عدة قصص أظهر الله فيها لعباده كذب المنجمين في الوقائع العِظام.

القصة الحادية والثلاثون ومائة

نماذج من قصص المنجمين الكذابين

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [مفتاح دار السعادة:٣/ ٦٠]:

١- لما خرج علي بن أبي طالب ﷺ سنة سبع وثلاثين عام صِفِّين اتفق حذاق المنجمين على أنه يُقتل ويُقهر جيشه، فظهر كذبهم، وانتصر جيشه على أهل الشام، ولم يقدروا على التخلص منهم، إلا بالحيلة التي وضعوها من نشر المصاحف على الرماح، والدعاء إلى ما فيها.

وقد قيل: إن هذا الاتفاق منهم إنما كان في حرب المؤمنين للخوارج، فإنهم اتفقوا على أنه من خرج في ذلك الطالع قُتل وهُزم جيشه، فإن القمر كان إذ

ذاك في العقرب! فخالفهم عليّ، وقال: بل نخرج ثقةً بالله، وتوكلاً عليه، وتكذيباً لقول المنجم، فما غزا بعد رسول الله ﷺ اتمّ منها، قتل عدوّه، وأيّده الله عليهم بالنصر والظفر بهم، ورجع مؤيداً منصوراً مأجوراً، والقصة معروفة في السير والتواريخ.

٢- وكذلك اتفق ملأ من حذاق المنجمين في سنة ست وستين على غلبة عبيد الله بن زياد للمختار بن أبي عبيد، وأنه لابد أن يقتله أو يأسره، فسار إليه في نحو من ثمانين ألف مقاتل، فلقيه إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار بأرض نصيبينَ وهو فيما دون سبعة آلاف مقاتل، فانهزم أصحابُ ابن زياد بعد أن قُتل منهم خلق لا يحصيهم إلا الله، حتى إنه قيل: إنهم قُتل منهم ثلاثة وسبعون ألفاً، ولم يُقتل من أصحاب ابن الأشتر سوى عدد لا يبلغون مئة، وفيهم يقول الشاعر:

بَـرَزُوا نَحْـوَهم بـسبعَةِ آلافِ ... أرَتْهُـمُ عَجائبـاً في اللقـاءِ
فتَعـشَّوْا مـنهمُ بـسبعينَ ألفـاً ... أو يزيـدونَ قبـلَ وقـتِ العِـشاءِ
فجـزاكَ ابـنَ مالـكٍ وأبـا إسـحاقَ ... عنَّـا الإلـهُ خَـيرَ جـزاءِ

يريدُ بابن مالك إبراهيم بن مالك بن الأشتر، وأبو إسحاق كنية المختار، وقتل ابنُ الأشتر عبيدالله بن زياد في المعركة ، ولم يعلم به حتى إذا هدأ الليل، قال لأصحابه: لقد ضربت على شاطئ هذا النهر رجلاً، فرجع إليّ سيفي، وفيه رائحة المسك، ورأيت إقداماً وجُراةً، فصرعته، فذهبت رجلاه قِبَل المشرق، ويداهُ قِبَلَ المغرب، فانظروه، فأتوه بالنيران، فإذا هو عبيدالله بن زياد.

ذكر ذلك المبرِّد في «الكامل» .

فانظر حكمة الله في انعكاس ما قال الكاذبون المنجمون.

٣- وقيل: لما علم عبيدالله بن زياد أن أمر القتال قد تيسّر، وسأل منجّمه عن قوة نجمه ونجم ابن الأشتر، وقال: والله إني لأعلم أنه ليس بشيء، إلا أني كنت أنا وهو صغيران وقعت بيني وبينه خصومة بسبب حَمَام كنا نلعب به، فضربني إلى الأرض، وقعد على صدري، وقال: والله إني قاتلك، ولا يقتلك أحد غيري، إن شاء الله، وأنا من استثنائه بالمشيئة خائف، فذهب به منجّمه إلى ما قرره المنجمون له من قوة نجمه، وأن هذا وهم منه، وحكم النجوم يقضي على وهمه، فحقق الله سبحانه ذلك الوهم، وأبطل حُكم الطالع والنجم.

٤- ومن ذلك اتفاقهم - يعني المنجمين - عندما تم بناء بغداد سنة ست وأربعين ومائة أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة، وشاع ذلك حتى هنّأ الشعراء به المنصور، حتى قال بعض شعرائه:

يَهْنيكَ منها بلدَةٌ تَقْضي لنا ... أنَّ المماتَ بها عليكَ حرامُ
لَمّا قَضَتْ أحكامُ طالِعِ وَقْتِها ... أنْ لا يُرى فيها يموتُ إمامُ

وأكّد هذا الهذيان في نفوس العوام موتُ المنصور بطريق مكة، ثم المهديُّ بماسبذان، ثم الهادي بعيساباذ، ثم الرشيد بطوس، فلما قُتل بها الأمين بشارع باب الأنبار، انخرم الأصل الباطل الذي أصّلوه، وظهر الزور الذي لفّقوه، حتى رُجع إلى الحق الأول، فقال:

كذب المُنَجِّمُ في مقالته الّتي ... نطَقَتْ به كَذِباً على بَغْدانِ
قَتْلُ الأمينُ بها لَعَمري يَقْتَضي ... تكذيبَهم في سائرِ الحُسْبانِ

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغير هؤلاء.

٥- ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين ومئتين في قصة عمورية أن المعتصم إن خرج لفتحها كانت الدائرة عليه، وأن النصر لعدوّه، فرزقه الله التوفيق في مخالفتهم، ففتح الله على يديه ما كان مُغلقاً، وأصبح كذبهم وخَرْصُهم - بعد أن كان موهوماً عند العامة - محققاً، ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة، وكان ذلك من أعظم الفتوحات المعدودة.

وفي ذلك الفتح قال أبو تمام الطائي منشداً له على رؤوس الأشهاد:

السَّيفُ أصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ
والعِلْمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامِعَةً ... بينَ الخَميسَيْنِ لا في السَّبعَةِ الشُّهُبِ
أينَ الرِّوايَةُ أم أينَ النُّجومُ وما ... صاغُوهُ مِن زُخْرُفٍ منها ومِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصاً وأحاديثاً مُلَفَّقَةً ... ليسَتْ بنَبْعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ
عَجائباً زَعَمُوا الأيَّامَ تجعلُهُ ... عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأصْفارِ أو رَجَبِ
وخوَّفوا النَّاسَ مِنْ دَهْياءَ مُظلِمةٍ ... إذا بَدا الكوكبُ الغَرْبيُّ ذو الذَّنَبِ
وصيَّروا الأبْرُجَ العلياءَ مَرْتَبَةً ... ما كانَ مُنقلِباً أو غيرَ مُنْقَلِبِ
يَقْضونَ بالأمرِ عنها وهي غافلَةٌ ... ما دارَ في فَلَكٍ منها وفي قُطُبِ
لو ثَبَّتَتْ قطُّ أمراً قبلَ مَوْقعِهِ ... لم يَخْفَ ما حَلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

وهي في نحوٍ من سبعين بيتاً، أجيز على كل بيت منها بألف درهم.

٦- ومن ذلك اتفاقهم سنة اثنتين وتسعين ومئتين في قصة القرامطة على أن المكتفي بالله إن خرج لمقاتلتهم كان هو المغلوب الملزوم، وكان المسلمون قد لقوا منهم على توالي الأيام شراً عظيماً وخطباً جسيماً، فإنهم قتلوا النساء والأطفال، واستباحوا الحريم والأموال، وهدموا المساجد، وربطوا فيها خيولهم

ودوابهم، وقصدوا وفد الله، وزوّار بيته، فأوقعوا فيهم من القتل الذريع والفعل الشنيع، وأباحوا محارم الله، وعطّلوا شرائعه.

فعزم المكتفي على الخروج إليهم بنفسه، فجمع وزيره القاسم بن عبيدالله من قَدِرَ عليه من المنجمين - وفيهم زعيمهم أبو الحسن العاصمي - وكلهم أوجب عليه بأن يشير على الخليفة أن لا يخرج، فإنه إن خرج لم يرجع، وبخروجه تزول دولته، وبهذه تشهد النجوم التي يقضي بها طالع مولده، وأخافوا الوزير من الهلاك إن خرج معه، وقد كان المكتفي أمر الوزير بالخروج معه، فلم يجد بُدّاً من متابعته، فخرج وفي قلبه ما فيه، وأقام المكتفي بالرقة حتى أخذ أعداء الله جميعاً، وسُقيت جموعُهم بكأس السيف نجيعاً، ثم جاء الخبر من مصر بموت خُمارُوَيْه بن أحمد بن طولون، وكانوا به يستطيلون، فأرسل المكتفي من تسلّمها، واستحضر القُوّاد المصرية إلى حضرته، ثم لما عاد أمرَ القاسمَ بنَ عبيدالله الوزير بإحضار رئيس المنجمين، وصفعه الصفعَ الكثيرَ بعد أن وقفه ووبّخه على عظيم كذبه وافترائه، وتبرّأ منه ومن كل من يقول برأيه.

٧- ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة عندما أراد القائد جوهر العزيز بناء مدينة القاهرة، وقد كان سبق مولاه الملقّب بالمعز إلى دخول الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة، وأمره إذا دخلها أن يبني بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة، ويكون بطالع الكوكب القاهر، وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله.

فجمع القائد جوهر المنجمين بها، وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويُحْكِمَه، وأمر البنّائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم: ضعوه، وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع، حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليه أرصاد أولئك الجماعة، فوُضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر، وسمّوها بالقاهرة، إشارة بزعمهم الكاذب إلى الكوكب القاهر.

واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بُنيت فيه يقضي بدوام جدِّهم وسعادتهم ودولتهم، وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية، فلما مَلَكها أسدُ الدين شيرْكُوه بن شاذي، ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبدالله بن يوسف - توهَم الجهّال أن ما قال المنجمون من قَبلُ حقٌّ، لتبدل اللسان، وحالُ الدعوة مستبقىً، فلما رد صلاحُ الدين الدعوةَ إلى بني العباس انكشف الأمرُ، وزال الالتباس، وظهر كذبُ المنجمين، والحمد لله رب العالمين.

وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض دولة الملاحدة منها نحو مئة وثلاثة وتسعين عاماً، فنقض انقطاع دولتهم على المنجمين أحكامهم، وخرب ديارهم، وأهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وأجرى الله سبحانه تكذيبهم والطعنَ عليهم على لسان الخاص والعام، حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس» .

* * *

الزمرة الرابعة والعشرون

قصص الحجاج

تقديم:

كان الحجاج طاغية عصره، وكان جبّاراً سفاكاً للدماء، لم ينج من طغيانه بقية الصحابة الذين عاشوا في عصره، وسفك بعض دماء العلماء الصالحين ولكن الحجاج فيه جوانب خيِّرة، وأخلاق صالحة، وتؤثر فيه بعض الأحيان الكلمات الصادقة.

القصة الثانية والثلاثون ومائة

أريد فأساً أقطع بها شجرة التين التي عرفتني بك

حُكي أن بعضهم أهدى للحجاج تيناً قبل أوانه ليأخذ منه الجائزة، فلما قَرُبَ من دار الحجاج، وإذا بالشرطي قد أقبل ومعه طائفة من اللصوص، وقد هرب منهم واحد، فأخذ الشرطي صاحب التين عوضه، وقرنه معهم، فلما عرضهم على الحجاج أمر بضرب أعناقهم.

فلما قُدِّم صاحب التين صاح: أيها الأمير! لست منهم؛ فقال: ما شأنك؟ فقصّ عليه القصة ، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كاد الملعون يهلك ظلماً، ثم قال: ما تريد من الجائزة؟ فقال: أيها الأمير! أريد فأساً، قال: وما تصنع بها؟ قال: أقطع بها جذر شجرة التين التي عرّفت بيني وبينك؛ فضحك الحجاج، وأجازه جائزة سَنِيّة. [غذاء الأرواح:ص٤٢].

القصة الثالثة والثلاثون ومائة
لو أحبوك لأطاعوك

خطب الحجاج يوماً، فشكى سوء طاعة أهل العراق، فقال «جامع المحاربي» : أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك؛ على أنهم ما سبّوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات يدك، فدع ما يُباعدهم عنك إلى ما يقرّبهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تُعْطَها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك.

فقال الحجاج: والله، ما أراني أردّ بني اللكيعة إلا بالسيف، فقال: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

قال الحجاج: الخيار يومئذ لله، قال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله.

قال: يا هذا، إنك من «محارب» ، فقال جامع المحاربي هذا البيت:

وللحـــرب سُـــمِّينا وكنـــا محاربـــاً إذا ما الفتى أمسى من الطعن أحمـرا

فقال الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك، وأضرب به وجهك.

قال جامع: إن صدَّقْناك أغضبناك، وإن كذبْناك أغضبنا الله تعالى، وغضب الأمير أهون علينا من غضب الله عز وجل. [المختار من نوادر الأخبار:ص٧٥].

* * *

القصة الرابعة والثلاثون ومائة
ضحك الحجاج حتى كاد يسقط عن سريره

دخل أعرابي على الحجاج فسمعه يقول: لا تكْمُلُ النعمة على المرء حتى ينكحَ أربعَ نسوة يجتمعن عنده، فانصرف الأعرابيّ، فباع متاعَ بيته، وتزوّج أربعة نسوة، فلم توافقه منهن واحدة، خرجتْ واحدة حمقاء رَعْناء، والثانية متبرّجة، والثالثة فارك أو قال: فَرُوك، والرابعة مذكَّرة، فدخل على الحجاج فقال: أصلح الله الأمير، سمعتُ منك كلاماً أردت أن تتم لي به قرّة عين؛ فبعت جميع ما أملك، حتى تزوجت أربع نسوة، فلم توافقني منهن واحدة، وقد قلت فيهن شعراً، فاسمع مني، قال: قل. فقال:

تزوجتُ أبغي قُرَّةَ العينِ أربَعا … فيا ليتَ أني لم أكن أتزوَّجُ
ويا ليتني أعْمَى أصمُّ ولم أكُنْ … تزوجتُ بل يا ليت أني مُخَدَّجُ
فواحدةٌ ما تعرفُ اللهَ ربَّها … ولا ما التُّقَى تدري وَلا ما التَّحرُّجُ
وثانيةٌ ما إن تقرُّ ببيتها … مذكَّرة مشهورة تتبرَّجُ
وثالثةٌ حمقاءُ رَعْنا سخيفةٌ … فكل الذي تأتي من الأمر أعوجُ
ورابعةٌ مفروكةٌ ذات شِرَّةٍ … فليستْ بها نفسي مَدَى الدهر تُبْهَجُ
فهنَّ طلاقٌ كلُّهن بوائِنٌ … ثلاثاً ثلاثاً فاشهَدُوا لا تلجلجوا

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره، ثم قال له: كم مُهورهنّ؟ قال: أربعة آلاف درهم. فأمر له بثمانية آلاف درهم. [بهجة المجالس:٣/ ٣٤].

القصة الخامسة والثلاثون ومائة
يحشر الحجاج بين أبيك وأخيك فاجعله حيث أحببت

لما مات الوليد، وتولى أخوه سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم الثقفي، واستحضره، فرآه دميماً كبير البطن، قبيح الوجه، قال: لعن الله من أشركك في أمانته، وحكمك في دينه، فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل، فإنك رأيتني والأمور مدبرة عني، ولو رأيتني وهي مقبلة علي، لاستعظمت ما استصغرت، ولاستجللت ما احتقرت، فقال سليمان: قاتله الله ما أشد عقله، وأعذب لسانه.

ثم قال سليمان: يا يزيد أترى صاحبك الحجاج يهوي بعد في نار جهنم أم قد استقر في قعرها؟ فقال: لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن الحجاج عادى عدوكم ووالى وليكم، وبذل مهجته لكم، فهو في يوم القيامة عن يمين عبدالملك، وعن يسار الوليد، فاجعله حيث أحببت. وفي رواية أخرى: يحشر بين اثنين أبيك وأخيك، فضعهما حيث شئت. قال سليمان: قاتله الله أوفى لصاحبه، إذا اصطنعت الرجال فلتصطنع مثل هذا؟ فقال: بعض الحاضرين: اقتله يا أمير المؤمنين، فقال يزيد: من هذا؟ قالوا فلان ابن فلان، فقال: والله لقد بلغني أن أمه ما كان يواري شعرها أذنيها، فما تمالك سليمان أن ضحك وأمر بتخليته.

ثم كشف عنه سليمان فلم يجد له خيانة في دينار ولا درهم، فهم باستكتابه، فقال له عمر بن عبدالعزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحيي ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه، فأعلمه سليمان أنه لم يخن قط في دينار ولا درهم، فأجابه عمر بأن إبليس لم يخن فيهما، وقد أهلك هذا الخلق، فتركه سليمان. [مرآة الجنان:١/ ١٦٩].

القصة السادسة والثلاثون ومائة
ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك

خطب الحجاج يوماً، فقال في أثناء كلامه: أيها الناس إن الصبر عن محارم الله أهون من الصبر على عذاب الله، فقام له رجل، وقال: ويحك يا حجاج، ما أصفق وجهك، وأقل حياؤك، فأمر به فحبس، فلما نزل عن المنبر دعا به، فقال له: اجترأت عليّ، فقال له: أتجترئ على الله فلا ننكره، ونجترئ عليك فتنكره؟! فخلي سبيله. [مرآة الجنان:ص١٥٤].

❊ ❊ ❊

القصة السابعة والثلاثون ومائة
وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة

قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه، ولم يسلطه الله بعده على قتل أحد.

وذكر بعضهم أنه لما أراد أن يقتله قال له: ما اسمك؟ قال: سعيد، قال: ابن من؟ قال: ابن جبير، قال الحجاج: بل أنت شقي بن كُسَير، قال: الله أعلم بي إذ خلقني، قال: وجهوا به القبلة واقتلوه، فلما فعلوا به ذلك، قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]. قال: حولوا وجهه عن القبلة فحولوه، فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

ولما قتله سال منه دم كثير، فاستدعى الحجاج الأطباء وسألهم عن ذلك، وعمن كان قبله، فإنهم كان يسيل منه دم قليل، فقالوا: لأن هذا قتلته ونفسه معه، والدم تبع النفس، وغيره قتلتهم وأنفسهم ذاهبة من الخوف، فلذلك دمهم قليل.

وقيل: إن الحجاج لما حضرته الوفاة كان يغيب ثم يفيق، ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ وإنه قيل له في النوم بعد موته: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: قتلني بكل قتيل قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة، فإنه كان في مدة مرضه إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذاً بمجامع ثوبه، يقول: يا عدو الله، فبم قتلتني؟ فيستيقظ مذعوراً، ويقول: ما لي ولسعيد؟ كان عُمرُ ابنِ جبير تسعاً وأربعين سنة، وقبره يزار في واسط، ﷺ . [مرآة الجنان:١/١٥٦].

الزمرة الخامسة والعشرون

قصص معن بن زائدة

تقديم:

معن بن زائدة الشيباني أحد الولاة الأجواد، عمل والياً في عهد بني أمية، ثم اختفى إلى أن التحق بجيش المنصور العباسي، فأبلى في القتال بلاءً حسناً، فلما عرفه المنصور عفا عنه، وجعله من خواصه، وولاه.

القصة الثامنة والثلاثون ومائة

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد ولن تنالا

عن مروان بن أبي حفصة قال: أخبرني معن بن زائدة، وهو يومئذ متولي بلاد اليمن أن المنصور جدّ في طلبه، وجعل لمن يحمله إليه مالاً، قال: فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي، وخففت عارضي، ولبست جبة صوف، وركبت جملاً متوجهاً إلى البادية لأقيم بها، فلما خرجت من باب حرب، وهو أحد أبواب بغداد تبعني أسود متقلداً بسيف، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض على يدي، فقلت: ما لك؟ فقال: أنت طلبة أمير المؤمنين، فقلت: ومن أنا حتى أُطلب؟ قال: أنت معن بن زائدة، فقلت: يا هذا اتق الله عز وجل أين أنا من معن، فقال: دع هذا

فوالله إني لأعرف منك بك، قال: فلما رأيت منه الجد قلت له: هذا عقد جواهر قد حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يأتيه بي فخذه، ولا تكن سبباً في سفك دمي، قال: هاته فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط؟ قلت: لا قال: فنصفه؟ قلت: لا. قال: فثلثه؟ قلت: لا حتى بلغ العشر، فاستحييت، وقلت: أظن أني قد فعلت هذا.

فقال: ما ذاك بعظيم، أنا والله رجل رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحتقر بعد ذلك كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري، وترك خطام البعير، وولى منصرفاً، فقلت له: يا هذا قد والله نصحتني، ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته لك، فإني عنه غني، فضحك، وقال: أردت أن تكذبني في مقالتي هذه، فوالله لا آخذ به، ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً ومضى لسبيله.

قال: فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته، وإنما كان معن خائفاً من المنصور، لأنه كان في أيام بني أمية منتقلاً في ولايتهم موالياً لابن هبيرة، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس قاتل معن مع ابن هبيرة المنصور، فلما قتل ابن هبيرة خاف معن من المنصور، فاستتر عنه.

قال الراوي: ولم يزل معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية، وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور، ووثبوا عليه. وجرت مقتلة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية التي بناها السفاح بالقرب من الكوفة، في سنة

إحدى وأربعين، وكان معن متوارياً بالقرب منهم، فخرج متنكراً معتماً ملثماً، وتقدم إلى القوم وقاتل قتالاً بان فيه عن نجدة وشهامة، وفرقهم، فلما أفرج عن المنصور، قال له: من أنت ويحك، فكشف لثامه وقال: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، فأمّنه المنصور، وأكرمه وحباه وكساه وزيّنه، أو قال: ورتبه وصار من خواصه. [مرآة الجنان:١/ ٢٤٦].

* * *

القصة التاسعة والثلاثون ومائة
معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان

دخل معن على الخليفة المنصور في بعض الأيام، فلما نظر إليه قال: هيه يا معن، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زيدت به   شرفاً على شرفٍ بنو شيبان

فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، إنا أعطيته على قوله في هذه القصيدة:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعتَ حوزته وكنت وقايةً   من وقع كلِّ مناهل وسنان

فقال: أحسنت يا معن.

قال له يوماً: يا معن، ما أكثر وقوع الناس في قومك؟ فقال يا أمير المؤمنين:

إنّ العراقين تلقاها محسدة   ولا ترى للئام الناس حسادا

ودخل عليه يوماً قد أسن، فقال له: لقد كبرت يا معن، قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. فقال: إنك لجلد. فقال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. فقال: وفيك بقية. فقال: هي لك يا أمير المؤمنين.

حكى الأصمعي، قال: وفد أعرابي على معن بن زائدة فمدحه، وطال مقامه على بابه، ولم تحصل له جائزة، فعزم على الرحيل، فخرج معن راكباً إليه، فقام وأمسك عنان دابته، فقال:

وما في يديك الخير يا معن كله ... وفي الناس معروف وعنك مذاهب

ستدرين بنات العم ما قد أتيته ... إذا فتشت عند الإياب الحقائب

فأمر معن بإحضار خمس من كرام إبله، وأوقرهن له ميرة وبراً وثياباً، وقال: انصرف يا ابن أخي في حفظ الله إلى بنات عمك، فلئن فتشن الحقائب، لتجدن فيها ما يسترهن، فقال: صدقت. [مرآة الجنان: ١/ ٢٤٧].

* * *

القصة الأربعون ومائة
أتعرف إذ قميصك جلد شاة

ومما يحكى عن معن بن زائدة أنه كان ذات يوم من الأيام جالساً على سرير مملكته، وحوله الوزراء والأمراء والحرفاء والكُتّاب والمذاكرون في النوادر والغرائب، إذ أقبل أعرابي يتخطى الصفوف صفاً صفاً حتى وقف بين يديه، وقال:

أتعـرف إذ قميـصك جلـد كـبش ... وإذ نعـــلاك مـــن جلـــد الـــبعير

قال: نعم أعرف ذلك. قال:

فـــسبحان الـــذي أعطـــاك ملكـــاً ... وعلمـك الجلـوس علـى الـسرير

قال: ذاك بحمد الله لا بحمدك، قال:

فَلَـسْتُ مـسلماً لـو عـشْتُ دهـراً ... علـــى معـــنٍ بتـــسليم الأمـــير

قال: إذن والله لا أبالي بك، قال:

ولا آتـــي بـــلاداً أنـــت فيهـــا ... ولـو جـار الزمـان علـى الفقـير

قال: أفتعلم لك موضعاً تختفي فيه؟ قال:

فمـــر لـــي يـــا بـــن زائـــدة بمـــال ... وزاد إذ عزمْـــتُ علـــى المـــسير

قال: يا غلام أعطه ألف درهم، قال:

قليـــل مـــا أمـــرتَ بـــه وإنـــيَ لأطمـــعُ منـــك بالـــشيءِ الكـــثيرِ

قال: يا غلامُ زيادة ألف درهم.

كأنـــك إذ ملكْـــت الملـــك زرْنـــا بـــلا عقـــلٍ ولا جـــاهٍ خطـــير

قال: يا غلام زدْهُ ألف درهم، قال:

ملكـــتَ الجـــود والأفـــضال جميعـــاً فبـــذلُ يـــديك كـــالبحر الغزيـــر

[مرآة الجنان:١/ ١٥٠].

* * *

القصة الحادية والأربعون ومائة
لو كنت تحت قدمي هذه ما حركتك

ومما يدل على حلم معن وسماحته: ما حكي أنه لما طلب أبو جعفر المنصور الإمام سفيان الثوري لينتقم منه بزعمه، لما كان سفيان ينكر عليه، ويغلظ له القول، سافر إلى أرض اليمن متغيباً عن شرّه، فلم يزل ينتقل في اليمن من بلد إلى بلد، ومن قرية إلى قرية، وكان يقرأ عليهم حديث الضيافة ليضيفوه، ويسلم من سوء الهم، فلما آوى بعض القرى ذات ليلة سرق فيها لبعض الناس شيء، فاتهموا سفيان لكونه غريباً عندهم، وأتوا به إلى معن بن زائدة، وقالوا له: أصلح الله الأمير، هذا سرق متاعنا وأنكر، فقال له معن: ما تقول؟ قال ما أخذت لهم شيئاً. فقال لمن حوله: فقوموا فلي معه كلام، فلما بعدوا عنه قال ما اسمك؟ قال: أنا عبدالله، قال: ابن من؟ قال: ابن عبدالله.

قال: قد علمت أن الناس كلهم عبدالله وأبناء عبيدالله، قال: ما اسمك الذي سمتك به أمك؟ قال: سفيان، قال: ابن من؟ قال ابن سعيد، قال: الثوري، قال: أبغية أمير المؤمنين؟ قال: فنكت بعود بيده في الأرض ساعة، ثم رفع رأسه لي، وقال: اذهب حيث شئت، فلو كنت تحت قدمي هذه ما حركتك.

[مرآة الجنان: ١/ ٢٤٨].

* * *

القصة الثانية والأربعون ومائة
وكان الناس كلهم لمعن

قال عبدالله بن المعتز في كتاب طبقات الشعراء: أدخل مروان بن أبي حفصة على جعفر البرمكي، فقال له: ويحك أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة. فقال: بل أنشدك مدحي فيك، فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في معن، فأنشأ يقول القصيدة المشهورة إلى أن قال:

وكـــان النـــاس كلـــهم لمعـــن ... إلى أن زار حفرتـــــه عيـــــالا

واستمر حتى فرغ منها، وجعفر يرسل دموعه على خديه، فلما فرغ قال له: هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله شيئاً؟ قال: لا. قال: فلو كان معن حياً، ثم سمعها كم كان يثيبك عليها؟ قال: أصلح الله الوزير أربع مائة دينار. قال جعفر: فإنا نظن أنه كان لا يرضى لك بذلك، قد أمرنا لك عن معن رحمه الله الضعف بما ظننت، وزدناك مثل ذلك، فاقبض من الحارث ألفاً وست مائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمع به عن معن:

نفحــتَ مكافيــاً عــن قــبر معــن ... لنــا ممــا تجــودُ بــه ســجالا

فعجّلــتَ العطيــة يــا بــن يحيــى ... لراثيـــه ولم تـــردِ المطـــالا

فكــأني عــن صــداء معــن جــواد ... بــأجودِ راحــةٍ بــذل النــوالا

بنـى لـك خالـد وأبـوك يحيـى بنـاءً في المكـارم لـن تنـالا
كـأن البرمكـي بكـل مـال يجـود بـه نـداه يفيـد مـالا

ثم قبض المال وانصرف.

وحكى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني عن محمد البيذق النديم: أنه دخل على هارون الرشيد قال له: أنشدني مرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة، فأنشده بعضها فبكى الرشيد، ويقال: إن مروان بعد هذه المرثية لم ينتفع بشعره، فإنه كان إذا مدح خليفة أو من دونه قال له: أنت قلت مرثيتك:

وقلنـا أيـن نرحـل بعـد معـن وقـد ذهـب النـوال فـلا نـوالا

فلا يعطيه الممدوح شيئاً، ولا يسمعُ ما يقوله فيه من المدح. [مرآة الجنان:١/ ٢٤٥].

* * *

القصة الثالثة والأربعون ومائة
تجير عليّ يا معن

كانت بين المهدي وأخيه جعفر بن أبي جعفر عداوةٌ في أيام المنصور، وكان مصقلة بن حبيب ينقل عنه إلى جعفر ما يكره، ولا يُمكن المهديّ أن يسطو على مصقلة ولا يمسه بسوء، فلما تولى الخلافة نذر دمه، فاختفى.

فحدثني مصقلة أنه نَبَا به موضعه الذي كان به، فخرج مستتراً يريد غيره، فلحقه رجل من أعدائه وصاح في أصحاب الأرباع، «هذا بغية أمير المؤمنين!» ، فتسرّع إليّ الشُّرَط، ورأيت الموت عياناً.

فبينا أنا في أيديهم، اجتاز بي معن بن زائدة، فصحت به: «يا سيدي! يا أبا المنذر! أجرني أجارك الله!» ، فقال للشُّرَط والرجل المتشبِّث بي: «خلوا عنه»، فقال الرجل: «ماذا أقول لأمير المؤمنين؟»، قال: «تقول له: إنه عندي»، ثم أمر بحملي على جنيبة من جنائبه، وسار بي إلى منزله، وقُدِّم طعامه، فأكلت معه ومع ولده.

فلما فرغنا من الطعام قيل له: «وافِ رسول أمير المؤمنين!» ، فقال لولده: «اقضوا حقي عليكم بألا تسلِّموا مصقلة، فقد استجار بي!» . فحلفوا له على ذلك، وركب.

فلما رآه المهدي قال: «تجير عليّ يا معن؟» ، قال: «نعم يا أمير المؤمنين!» ، قال: «ونعم أيضاً؟» ، قال: «يا أمير المؤمنين! قتلت في دولتك زهاء ثلاثين ألف عدوٍّ، ولا أستحق أن أجير فيها عدواً واحداً!» ، قال: «نعم تستحق ذلك، قد

وهبناك دمه» ، فقال: «يا أمير المؤمنين! ليس هكذا يُنعم مثلك بالحياة! إذا تصدَّقت على أحد بحياته، فاجعلها في خفض عيش من نعمتك» قال: «يُعطى ألف دينار» ، قال: يا أمير المؤمنين! لا تستوي جائزتك وجائزة عبدك معن! هذا ما سمحت له به» ، فقال: «ادفعوا إلى جار معنٍ ألفي دينار» . فحُملت معي إلى منزلي ثلاثة آلاف دينار، وأمنت على نفسي» [المكافاة وحُسْن العقبى:ص١١٩].

* * *

الزمرة السادسة والعشرون

قصص المنذر بن سعيد عالِم الأندلس

تقديم:

المنذر بن سعيد (٢٧٣-٣٥٥هـ) الذي نفرد هذه الزمرة لذكر بعض قصصه، هو منذر بن سعيد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن قاسم بن عبدالملك بن نجيح النفزي، ثم الكُزني. كان عالِم الأندلس في عصره، وقاضي قضاتها، وخطيبها الذي لا يبارى، وكان شاعراً أديباً.

القصة الرابعة والأربعون ومائة

ابتدع المنذر خطبة من غير تحضير في مجمع حافل

أول الأسباب في معرفة منذر بن سعيد بالخليفة الناصر وزلفاه لديه أن الناصر لدين الله لما احتفل في الجلوس لدخول رسول ملك الروم الأعظم، صاحب القسطنطينية عليه، بقصر قرطبة، الاحتفال الذي شهد ذكره في الناس، أحب أن يقيم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلالة مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليِّ عهده بإعداد مَن يقول بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعته الفقيه محمد بن عبدالبر الكسنيانيّ بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة، يقوم بها بين يدي الخليفة.

وكان يدّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسعه، وحضر المجلس السلطانيّ، فلما قام يحاول التكلم بما روّاه، بهره هول المقام وأبّهة الخلافة؛ فلم يهتد إلى لفظة، بل غُشي عليه، وسقط إلى الأرض، فقيل لأبي عليّ البغدادي إسماعيل بن القاسم، صنيعة الخليفة وأمير الكلام: «قم! فارقَعْ هذا الوهي!» فقام؛ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلّى على نبيّه محمد ﷺ ثم انقطع به القول؛ فوقف ساكتاً، مفكّراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أُريد منه.

فلما رأى ذلك منذر بن سعيد (وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء)، قام من ذاته؛ فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام عجيب، وفصْل مصيب، يسحّه سحّاً، كأنما يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو عليّ البغدادي.

فقال: «أما بعد حمدِ الله، والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم؛ فاصغوا إليّ – معشر الملأ! بأسماعكم، وأيقنوا عني بأفئدتكم.

إن من الحق أن يقال للمحقّ: صدقتَ؛ وللمبطل: كذبتَ! وإن الجليل – تعالى في سمائه، وتقدّس بصفاته وأسمائه – أمر كليمه موسى عليه السلام وعلى جميع أنبيائه أن يذكّر قومه بأيام الله عندهم؛ وفيه وفي رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة.

وإني أذكّركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لَمّت شعثكم، بعد أن كنتم قليلاً، فكثّركم؛ ومستضعفين، فقواكم؛ ومستذلين، فنصركم! ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سُرادِقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعُلُ النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير،

بضيق الحال، ونكد العيش والتقتير! فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء.

أنشدكم الله – معاشر الملأ – ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها! والسبل مخوفة فأمّنها! والأموال منتهبة فأحرزها وحصّنها! .

ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها! وثغور المسلمين مهتضمة فحماها وزهّرها! فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتأليفه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوِّكم بعد أن كان بأسكم بينكم! .

ناشدتكم الله! ألم تكن خلافته قيد الخلافة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلافَ صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكِلْ ذلك إلى القوّاد والأجناد، حتى باشره بالمهجة والأولاد؟ واعتزل النسوان وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابّة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجدٌّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل منشور، متحمّلاً للنَّصَب، مستقبلاً لما نابه في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدّتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حِدّتها، ولم يبقَ لها غاربٌ إلا جبّه، ولا نَجَمَ لأهلها قرنٌ إلا جدّه! .

فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلمِّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائكم أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب البركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فجّ عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل منه ومنكم جملةً وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم يُخلِف الله وعده، ولهذا

الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وغيبها عاتم؛ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور:٥٥] الآية؛ وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب! .

فاحمدوا الله، أيها الناس، على آلائه، واسألوا المزيد من نعمائه! فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعظمة والسداد، وألهمه محاضر التوفيق إلى سبيل الرشاد! - أحسن الناس حالاً، وانعمهم بالاً، وأعزّهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً، وأجلَهم صُنْعاً، لا تهاجون ولا تواذون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم، بالنصيحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في فرقة الجماعة، ومرق من الدين، فقد ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

وقد علمتم أن في التعلّق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، وصحّت الأحكام، وبها سدّ الله الخلل، وآمن السبل، ووطّأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار؛ فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به؛ فإنه - تبارك وتعالى - يقول: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩] الآية.

وقد علمتم - معشر المسلمين - ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين، الساعين في شقّ عصاكم، وتفريق ملتكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيّكم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين ! - أقول هذا، وأختمه بالحمد لله رب العالمين! وأستغفر الله الغفور الرحيم: فهو خير الغافرين!» .

فخرج الناس يتحدثون عن مقام مُنْذر، وثبات جنانه، وبلاغة منطقه.

وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدّهم تعجباً منه، فأقبل على ولده الأمير الحكم يسائله عنه، ولم يكن يثبت معرفة عينه، وقد سمع باسمه، فقال له الحكم: «هو منذر بن سعيد البلوطي» . فقال له: «لقد أحسن ما شاء! فلئن كان حبَّر خطبته هذه وأعدّها، مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهي، إنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته، إنه لأعجب وأغرب!» فكان ذلك سبب اتصاله به، واستعماله.

وذكر ابن أصبغ الهمداني عن منذر القاضي أنه خطب يوماً وأراد التواضع؛ فكان من فصول خطبته أن قال: «حتى متى؟ وإلى متى؟ فكم الذي أعظ ولا أتّعظ؛ وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيماً مع الحائرين! كلا إن هذا لهو الضلال المبين! ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. اللهم! فرغني لما خلقتني له! ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك! ولا تعذبني وأنا أستغفرك! يا أرحم الراحمين» [تاريخ قضاة الأندلس:ص٦٩].

* * *

القصة الخامسة والأربعون ومائة
فهاج الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء

قحط الناس آخر مدة الناصر لدين الله عبدالرحمن بن محمد، فأمر القاضي منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس فتأهب لذلك، وصام بين يديه أياماً، تنفلاً، وإنابةً، ورهبةً، واجتمع له الناس في مصلّى الرّبض بقرطبة، بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم، وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر، ليشارف الناس، ويشاركهم في الخروج إلى الله، والضراعة له، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس، وغصّت بهم ساحة المصلى، ثم خرج نحوهم ماشياً، متضرعاً، مخبتاً، متخشعاً؛ وقام ليخطب، فلما رأى بدارَ الناس إلى ارتقابه، واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهالهم إليه، رقّت نفسه، وغلبته عيناه؛ فاستغفر، وبكى حيناً؛ ثم افتتح خطبته بأن قال: «سلام عليكم!» ثم سكت، ووقف شبه الحَصِر، ولم يكن من عادته، فنظر الناس بعضهم ببعض، لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد قوله، ثم اندفع تالياً بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] استغفروا ربكم، وتوبوا إليه، وتزلّفوا بالأعمال الصالحات لديه!» قال: فهاج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته؛ فقرع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره؛ فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روى الثرى، وطرد المَحْل، وسكّن الأزل، والله لطيف بعباده! .

وكان له في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب؛ ومنه أن قال يوماً، وقد سرّح طرفه في ملأ الناس، عندما شخصوا إليه بأبصارهم؛ فهتف بهم كالمنادي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ - وكرَّرها عليهم، مشيراً بيده في نواحيهم - أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٥-١٧] فاشتد وجل الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى في خطبته. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٧٠].

❊ ❊ ❊

القصة السادسة والأربعون ومائة
وجد الخليفة على المنذر بن سعيد لغلظ ما قرعه به

كان الخليفة الناصر لدين الله الحاكم بالأندلس كَلِفاً بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزّ السلطان؛ فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء، البناء الذي شاع ذكره، استفرغ وسْعه في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فانهمك في ذلك حتى عطّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جُمَع متوالية؛ فأراد القاضي منذر أن يغضّ منه بما تناوله من الموعظة بفضل الخطاب والحكمة والتذكرة بالإنابة والرجعة؛ فأدخل في خطبته فصْلاً مبتدئاً بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣٥]، ولا تقولوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦]. فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى! وهي دار القرار، ومكان الجزاء!» ووصل ذلك بكلام جَزْل، وقول فَصْل، ومضى في ذمّ تشييد البنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه؛ فجرى طلقاً؛ وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة:١٠٩] إلى آخر الآية.

وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجاءته، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية، والحضّ على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها؛ والإقصار عن طلب اللذات، ونهى النفوس عن اتباع هواها، فأسهب في ذلك كله، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والآثار ما يشاكله، حتى اذكر من حضره الناس وخشعوا، ورقّوا، واعترفوا، وبكوا، وضجّوا، ودعوا، وأعلنوا في التضرع إلى الله في التوبة، والابتهال في المغفرة.

وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به؛ فبكى، وندم على ما سلف له، واستعاذ بالله من سخطه، إلا أنه وجد على منذر بن سعيد لغلْظ ما تقرّعه به؛ فشكا ذلك لولده الأمير الحَكَم بعد انصرافه، وقال: «والله! لقد تعمّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري! فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يُحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني!» واستشاط غيظاً عليه؛ فأقسم أن لا يُصلّي خلفه صلاة الجمعة خاصة؛ فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مُطرِّف صاحب الصلاة بقرطبة، ويُجانب الصلاة بالزهراء.

فقال له الحكم: «فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك، والاستبدال منه إذ كرهته؟» فزجره وانتهره، وقال له: «أمِثْلُ منذر بن سعيد في فضله وعمله وخيره؟ لا أمَّ لك! يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق! هذا مما لا يكون! وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه! ولكنه أحرجني، فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفّارة يميني، بل يُصلّي بالناس حياته وحياتنا، إن شاء الله!» [تاريخ قضاة الأندلس:ص٦٩].

* * *

القصة السابعة والأربعون ومائة

إنكار المنذر على الملك الناصر الإسراف في البناء

ومن أخباره المحفوظة مع الخليفة عبدالرحمن، في إنكاره عليه الإسراف في البناء أن الناصر كان قد اتخذ لسقف القبَيْبة (المصغرة الاسم للخصوصية) التي كانت مماثلة على الصرح المُمرَّد شأنه بقصر الزهراء، قراميد مغشاةً ذهباً وفضة، أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرْمد سقفها بها، تُشتِّت الأبصار بأشعة أنوارها. وجلس فيها يوماً، إثر تمامها، لأهل مملكته، فقال لقرابته منهم من الوزراء وأهل الخدمة، مفتخراً بما صنعه من ذلك: «هل رأيتم، أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مِثل فعلي هذا أو قدر عليه؟» فقالوا: «لا! يا أمير المؤمنين! وإنك لواحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره!» .

فأبهجه قولهم وسرّه، وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد، واجِماً ناكس الرأس؛ فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب، واقتداره على إبداعه؛ فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: «والله! يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان – لعنه الله – يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قِبَلك هذا التمكين، مع ما أتاك الله من فضله ونعمته، وفضّلك به على العالمين، حتى يُنزلك منازل الكافرين!» قال: فانفعل عبدالرحمن لقوله، وقال له: «انظر ما تقول! وكيف أنزلتني منزلتهم؟» فقال له: «نعم! أليس الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف:٣٣]

فوجم الخليفة، وأطرق مليّاً، ودموعه تتساقط خشوعاً لله سبحانه، ثم أقبل على منذر وقال له: «جزاك الله، يا قاضي! عنا وعن نفسك خيراً! وعن الدين والمسلمين أجلّ جزائه! وكثّر في الناس أمثالك! فالذي قلت هو الحق!» وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنقض سقف القبّة، وأعاد قرمودها تراباً على صفة غيرها. [تاريخ قضاة الأندلس:ص٧١].

* * *

الزمرة السابعة والشعرون

قصص الأصمعي

تقديم:

الأصمعي (١٢٢-٢١٦هـ) هو العلاّمة أبو سعيد عبدالملك بن قُرَيب الباهلي اللغوي الأخباري البصري المشبه بنغمات بلبل الألفاظ المطربة على فنن بوجه فنون النوادر المعجمة، وكانت الخلفاء تجالسه وتحبّ منادمته، وله عدة مصنفات، وكان إماماً في اللغة والأخبار والنوادر والمُلَح والغرائب والأشعار، وهو من أهل البصرة، ثم قَدِم بغداد في أيام هارون الرشيد.

قيل لأبي نواس: قد حضر أبو عبيدة والأصمعي عند الرشيد، فقال: أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه من سِفرِه قرأ عليهم علم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته، وعن الأصمعي أنه قال: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، ويروى: أربعة عشر ألف أرجوزة، منها المائة والمائتان.

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: ما عبّر أحد من العرب بأحسن من عبارة الأصمعي، وقال إسحاق الموصلي: لم أرَ الأصمعي يدّعي شيئاً من العلم، فيكون أحد أعلم به منه.

وقال أبو أحمد العكبري: لقد حرّض المأمون على الأصمعي، وهو بالبصرة أن يصير إليه، فلم يفعل، واحتجّ بضعفه وكِبَره، وكان المأمون يجمع المشكل من المسائل، ويشير ذلك إليه، فيجيب عنه. [مرآة الجنان:٢/٤٨].

القصة الثامنة والأربعون ومائة
إن بالحضرة رجلاً يزعم أنه ما نسي شيئاً

١- ذكر في كتاب المقتبس عن ابن دريد أو أبي حاتم قال: كنا عند الحسن ابن سهل، وبالحضرة جماعة من أهل العلم، منهم جرير بن حازم، ومعمر بن المثنى، والأصمعي، والهيثم بن عدي، في جماعة من هذا السن، وحاجب الحسن يعرض عليه قصصاً، وهو يوقّع في كل قصة ما ينبغي لها، حتى مرّ بخمسين قصة، فلما نفض ما بين يديه أقبل علينا، فقال: قد فعلنا في يومنا خيراً كثيراً، ورفعنا في هذه القصص بما فيه فرح لأهلها، ونرجو أن نكون في كل ذلك مثابين مشكورين، فأفيضوا بنا في حق أنفسنا نتذاكر العلم.

فتكلم أبو عبيدة والأصمعي والهيثم إلى أن بلغوا من ذكر ألفاظ من أصحاب الحديث، فأخذوا في الزهري والشعبي وقتادة وشعبة وسفيان، فقال أبو عبيدة: وما الحاجة إلى ذكر هؤلاء الجلّة؟ وما ندري: أصدق الخبر عنهم أم كذب؟ إن بالحضرة رجلاً يزعم أنه ما نسِي شيئاً، وأنه ما يحتاج أن يُعيد نظره في دفتر، إنما هي نظرة، ثم قد حفظ ما فيه، (يقصد الأصمعي).

فقال الحسن: نعم يا أبا سعيد، تخبر من هذا إنما ينكر جداً.

فقال الأصمعي: نعم أصلحك الله ما أحتاج أن أعيد النظر في دفتر، وما أنسيت شيئاً قط، فقال الحسن: نحن نجرّب هذا القول بواحدة، يا غلام، هاتِ الدفتر الفلاني، فإنه يجمع كثيراً مما قد أنشدتناه، وحدثتناه، قال: فأدبر الغلام ليأتي بالدفتر، فقال الأصمعي: أعزك الله، وما الحاجة إلى هذا؟ أنا أريك ما هو

أعجب منه، أنا أعيد القصص التي مرّت وأسماء أصحابها وتوقيعاتها كلها، فامتحن ذلك بالنظر إليها، وقد كان الحسن قد عارض تلك التوقيعات، وأثبتها في دفتر البيت، قال: فأكبر ذلك من حضر، وعجبوا واستضحكوا.

فقال الحسن: يا غلام؛ اردُد القصص، فردّت وقد شُدّت في خيط كي تحفظ، فابتدأ الأصمعي، فقال: القصة الأولى لفلان ابن فلان قصة كذا وكذا، ووقعت - أعزك الله - بكذا وبكذا، حتى أنفذ على هذا السبيل سبعاً وأربعين قصة.

فقال الحسن بن سهل: يا هذا حسبُك الساعة، والله أقبلك بعين، يعني أصبتك بعيني، يا غلام؛ أحضِر خمسين ألفاً، فأحضرها بدراً، ثم قال: يا غلمان، احملوا معه إلى منزله، قال: فتبادر الغلمان بحملها، فقال: أصلحك الله، تنعم بالحامل كما أنعمت بالمحمول؟ قال: هم لك، ولست منتفعاً بهم، واشتريتهم منك بعشرة آلاف درهم، احمل يا غلام مع أبي سعيد ستين ألفاً.

قال: فحملت معه، وانصرف الباقون بالخيبة. [مرآة اجنان:٢/ ٤٩].

* * *

القصة التاسعة والأربعون ومائة
ويحك ما رأيت مثل هذا قط

ذكر في (المقتبس) أنه لما قدم الرشيد البصرة قال جعفر بن يحيى بن عبدالعزيز: قد عزم أمير المؤمنين على الركوب في زُلال (نوع من الزوارق) في نهر الأبلّة، ثم يخرج إلى دجلة، ويرجع في نهر معقل، وأحب أن يكون معه رجل عالِم بالقصور والأنهار والقطائع، ليصفها له، فقال: لا أعرف من يفي بهذا، ويصلح له غير الأصمعي.

قال: فأتني، فأتيته فتحدث بين يدي جعفر، فأضحكه وأعجبه، فأدخله إلى الرشيد، فركب معه، فجعل لا يمرّ بنهر ولا أرض إلا أخبر بأصلها وفرعها، وسمّى الأنهار، ونسب القطائع، فقال الرشيد لجعفر: ويحك؛ ما رأيت مثل هذا قط، من أين غُصتَ عليه؟ فلما قارب البصرة، قال للرشيد: يا أمير المؤمنين؛ والذي شرفني بخطابك، إن لي من كل ما مررت به موضع قدم، فضحك الرشيد، وقال: اشترِ يا جعفر أرضاً، فاشترى له بنهر الأبُلّة أربعة عشر جريباً بألف وأربع مائة دينار، وكان جعفر قد نهاه عن سؤاله، ووعده بكل ما يريد، فقال له: أما نهيتك عن سؤاله؟ قال: انتهزت الفرصة، فأخبرته خبري فكرُم.

[مرآة الجنان: ٢/ ٤٩].

❊ ❊ ❊

القصة الخمسون ومائة
إنا لله وإنا إليه راجعون وعند الله أحتسب عقيلاً

قال الأصمعي: كنت بالبادية أكتب كل شيء أسمعه، فقال أعرابي منهم: أنت كمثل الحفظة، تكتب اللفظة، فكتبه أيضاً، قال: خرجت مع صديق لي بالبادية، فبينا نحن نسير، إذ ضللنا الطريق، ثم نزلنا فإذا خيمة، فقصدناها فسلَّمنا، فإذا امرأة ترد علينا السلام، وقالت: ما أنتم؟ قلنا: قومٌ مارّون أضللنا الطريق، فرأيناكم، فأنِسْنا بكم.

فقالت: ولوا وجوهكم حتى أقضي من ذمامكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فطرحت لنا مسحاً وقالت: اجلسا حتى يجيء ابني، فيقوم بما يصلحُكم، فجلسنا، فجعلت ترفع طرف الخيمة وتنظر، إلى أن نظرت، فقال: أسألك الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فجاء الراكب حتى وقف عليها، فقال: يا أم عُقَيل؛ عظم أجرك في عقيل، قالت: ويحك؛ أمات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت الإبل على ابنك، فرمت به في البير، قالت: انزل، فاقض ذمام القوم، فنزل فذبح لنا كبشاً وأصلحه مع ملح، وقرّبه إلينا، فأكلنا ونحن نتعجب من صبرها.

فلما فرغنا خرجت إلينا فقالت: يا هؤلاء: هل فيكم أحد يحسن من كتاب الله عز وجل شيئاً؟ قال: قلت: نعم، فقالت: فاقرأ عليّ آيات من كتاب الله أتعزّى بها قال: فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

فقال: الله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: الله!! إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: فالسلام عليك، ثم قامت فصفت قدميها، ثم صلت ركعتين، ورفعت يديها، وهي تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله أحتسبُ عُقيلاً، تقول ذلك ثلاثاً، ثم قالت: اللهم إني قد فعلت ما أمرتني، فأجزل ما وعدتني. [مرآة الجنان: ١/ ٤٩].

* * *

القصة الحادية والخمسون ومائة
فاعتزى أسدياً من بني ثعلبة

قال الأصمعي: سهرت ليلة بالبادية، وأنا نازل على رجل من بني الصيد، وكان واسع الرحل كريم المحل، وأصبحت وقد عزمت على الرجوع إلى العراق، فأتيت أنا مثواي، فقلت له: إني قد هلعت من طول الغربة، واشتقت أهلي، ولم تفدني قَدْمَتي هذه إليكم كبير علم، وإنما كنت أفتقر وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة.

فقال: فاظهر توجّعاً، ثم أبرز غداءً له، فتغديت معه، وأمر بناقة له مهرية، كأنها سبيكة لُجَين، فارتحلها واكتفلها، ثم ركب وأردفني وأقبلها مطلع الشمس، فما سرنا كثير مسير حتى لقينا شيخ على حمار، ذو جمّة قد نعمها بالورس (أي: خضبها بالورس، وهو نبت أصفر) كأنها (قُنَّبيطَة) - بالقاف المضمومة ثم النون المشددة ثم الموحدة ثم المثناة من تحت الطاء المهملة - وهو يترنم، فسلم صاحبي عليه، وسأله عن نسبه، فاعتزى أسدياً من بني ثعلبة، فقال له: يا ابن عم؛ أتنشد أم تقول؟ فقال: كُلاًّ، قال: فأين تنزل؟ فأشار إلى ماء قريب، فأناخ الشيخ وقال لي: خذ بيد ابن عمّك، فأنزِله عن حماره، ففعله فألقى له كساءً كان اكتفل به بعيره.

فقال له: أنشدنا رحمك الله، وتصدّق على هذا الغريب بأبيات يعيهنّ عنك، ويذكرك بهن فأنشد:

لقد طال يا سوداءُ منك المواعد ودون الجدا المأمول منك الفوائدُ

تمنَيتهـــا غـــدواً وغـــيمُكم غـــدا ... أصاب فلا صحواً ولا الغيم جامـدُ
إذا أنت أُعطيـتَ الغنـى ثـم لم تجُـد ... بفضل الغِنى ألقيت مـا لـك حامـدُ
وقـــل غنـــاءً عنـــك مـــالٌ جمعتَـــه ... إذا صـــار ميراثـــاً وواراك لاحِـــدُ
إذا أنتَ لم يعـزل بجنبـك بعـض مـا ... تربت مـن الأدنـى وربّـاك الأباعـدُ
إذا العزم لم يفرج لك الشكّ لم تـزل ... حبيبـاً كمـا اسـتبلى لجيـشه فائـدُ
إذا أنـــت لم تـــترك طعامـــاً تحبّـــه ... ولا مقعـد أُنـدعى إليـه الـسوائدُ
تجللـــت عـــاداً لا يـــزالُ بـــسبّه ... ســبابَ رجــال نثـرهم والقـصائدُ

قال الأصمعي: فنمت، والله وقد أنسيت أهلي، وهانت عليّ الغربة، وشظف العيش (يعني خشونته) سروراً بما سمعته. [مرآة الجنان:٢/ ٥١].

* * *

القصة الثانية والخمسون ومائة
والله ما بنيت المنازل إلا لتدخل ولا وضع الطعام إلا ليؤكل

قال الأصمعي: رأيت بالبادية شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه، فسألته عن سنِّه، فقال: مائة وعشرون سنة، فقلت: أرى فيك بقية، فقال: تركت الحسد، فبقيَ عليّ الجسد، فقلت له: هل قلت شيئاً؟ فقال: بيتين في إخواني فاستنشدته، فقال:

ألا أيّها الموتُ الذي ليس تارِكي ... أرحني فقد أفنيتَ كلَّ خليلِ
أراكَ بصيراً بالذين تبيدُهم ... كأنّكَ تنحو نحوهم بدَليلِ

وقال: وكان بالبصرة أعرابي من بني تميم، يطفُل أو قال: يتطفل على الناس، فعاتبته على ذلك، فقال: والله ما بُنيت المنازل إلا لتدخل، ولا وُضِع الطعام إلا ليؤكل، وما قُدِّمت هدية إلا لتُقبل، فأتوقع رسولاً، وما أكره أن أكون ثقلاً ثقيلاً على من أراه شحيحاً بخيلاً، وأقتحم عليه مستأنساً، وأضحك إن رأيته عابساً، وآكل برغمه، وأودّعه بغمّه، فما أعدّ للهواتِ طعام أطيب من طعام لا يُنفق عليه درهم، ولا يُعنى فيه خادم، ثم أنشأ يقول:

كلّ يوماً دور في عرصة الحيّ ... اسم القتار ثم ألف باب
فإذا ما رأيت آثار عرس ... وختان ومجمع للصحاب
لم أودع دون التقحم لا ... أرهب دفعاً ونكرت البواب

مع أبيات أخرى.

وقال عمرو بن الحارث الحمصي: ما رأى الأصمعي مثل نفسه قط، لقد قال الرشيد يوماً: أنشدونا أحسن ما قيل في العقاب، فعذر القوم، ولم يأتوا بشيء، فقال الأصمعي من أحسنه:

باتت بورقها في وكرها شعب   وناهض مخلص الأقرات من فيها
ثم استمرّ بها عزم فحذرها   كأنما الريح هبّت من خوافيها
ما كان إلا كرجْع الطرفِ أو رجعت   فلا تمطرنَ ممّا في أسافيها

ثم قال: وهذا امرؤ القيس يقول:

كأنّ قلوبَ الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي

فقال الرشيد: لله درّك ما من شيء إلا وجدتُ عندك فيه شيئاً. [مرآة الجنان: ٢/ ٥٢].

* * *

القصة الثالثة والخمسون ومائة
فكذبها بما ذكرت وكذبه بما ذكرا

قال عمرو: دخل العباس بن أحنف على الرشيد وعنده الأصمعي، فقال له: أنشدنا من مكحل العربية، فأنشده:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يعجب الناسا   فصور هاهنا فوراً صور ثـمَّ عباسا
ودع بينهما شبراً فإن زدت فلا بأسا   وإن لم يدنُوا حتى ترى رأسَيهما رأسا
فكذبها وكذبه بما قاست وما قاسا

قال: فلما خرج، قال الأصمعي: يا أمير المؤمنين، مسروق من العرب أو العجم؟ فقال لي: ما كان من العرب؟ فقلت: رجل يقال له عمر، هوى جاريةً يقال لها قمراء:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يُعجب السرا   فصور هاهنا قمراً وصورها هنا عُمَرا
فإن لم يدنوا حتى ترى بشريهما بشراً   فكذّبها بما ذكرت وكذّبه بما ذكرا

وقال: فما كان من العجم؟

قلت: رجل يقال له فَلْق (بسكون اللام بين الفاء المفتوحة والقاف) هَوَى جارية يقال لها روف، فقال:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يعجبُ الخلقا   فصور هاهنا روفاً وصوّرها هنا فَلْقا
فإن لم يدنوا حتى ترى خلقيهما خلقاً   فكذبها بما لقيت وكذبه بما يلقى

قال: فبينا نحن كذلك إذ دخل الحاجب، فقال: عباس بالباب، فقال: ائذن له، فدخلت فقال: يا عباس؛ تسرق معاني الشعر، وتدّعيه؟ فقال: ما سبقني إليه أحد، فقال: هذا الأصمعي يحكيه عن العرب والعجم، ثم قال: يا غلام؛ ادفع الجائزة إلى الأصمعي، قال: فلما خرجنا قال العباس: كذّبتني، وأبطلت جائزتي، فقلت: أتذكر يوم كذا، ثم أنشأت أقول:

إذا وددتَ امرأ فاحذر عداوته   من يزرع الشوك لا يحصُد به عنبا

[مرآة الجنان: ٢/ ٥٣].

* * *

القصة الرابعة والخمسون ومائة
وثب مزرد على ما في بيتها فأكله

قال الأصمعي: قال هارون الرشيد ليلة وهو يسير في قبّة: يا أصمعي؛ حدثني، قلت: يا أمير المؤمنين، إن مزرد بن مرار كان شاعراً مليحاً ظريفاً، وإن أمّه كانت تبخل عليه بزادها، وإنها غابت عن بيتها يوماً، فوثب مزرد على ما في بيتها فأكله، وقال:

لَمّـا غــدت أمــي تــزورُ بناتهــا ... أغرتُ على العِلْم الذي كـان يُمنَـعُ
خلطتُ بصاعي حنطة صاع عجـوة ... إلى صــاع سمــنٍ فوقــه يــتردع
ودلــت بأمثــال الأثــافي كأنهــا ... رؤوس نقبــاً ذرّفــت لا تُجَمــع
وقلــت ليــتني لــسر اليــوم أنــه ... حَمــى أمّنــا ممّــا يُفيــد ويجمــع
فــإن كنــت مــصفوراً فهــذا دواؤه ... وإن كنــت غرثانــاً فــذا يــوم يــشبع

قال: فضحك الرشيد، وقال: الدنيا ليس فيها مثلك حسنٌ، قال: فدعوت له وفضلته على الملوك بحبه العِلم وإحسانه أهله (قوله عِلم بكسر العين هو نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها).

وكان الرشيد يحب الوحدة، وكان إذا ركب عاد له الفضل بن الربيع، وكان الأصمعي يسير قريباً منه بحيث يحادثه، وإسحاق الموصلي يسير قريباً من

الفضل، وكان الأصمعي لا يحدّث الرشيد شيئاً إلا وسرّ به وضحك، فحسده إسحاق، فقال إسحاق للفضل، كلّ ما يقوله كذبٌ، فقال الرشيد: أي شيء قال؟ فأخبره، فغضب الرشيد، فقال: والله إن كان ما يقوله كذباً إنه لأظرف الناس، وإن كان حقاً إنه لأعلم الناس. [مرآة الجنان:٥٣/ ٢].

* * *

القصة الخامسة والخمسون ومائة
لقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني

قال الأصمعي: كنت مع الرشيد في بعض أسفاره، فعطش، وقد تقدّمته حمولة الثلج، فأتي بماء من ماء الرحل، فلما صار في فمه، مجّه فقال له أبو البختري: يا أمير المؤمنين إني كنت ألتمس موضعاً لوعظِك، فلا أقدر عليه، وقد وجدته، أفتأذن يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين؛ لو أكلت الطيب والخبيث، وشربت الحار والقارّ، ولبست اللين والخشن، لكان أصلح لك، فإنك لا تدري ما يكون من صروف الزمان، قال: فانتفخ في ثوبه حتى خلتُه سمعتُ أرغته، ثم سكن فقال: يا أبا البختري؛ أما تلبس من هذه النعمة ما لبسنا؟ فإذا - أعوذ بالله - زالت عنا رجعنا إلى عودٍ غير حوار.

وسأل الرشيد يوماً أهل مجلسه عن صدر هذا البيت:

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه.

فلم يعرفه أحد، فقال إسحاق الموصلي: الأصمعي عليل، وأنا أمضي إليه وأسأله عنه، فال الرشيد، احملوا إليه ألف دينار لنفقته، قال: فجاءت رقعة الأصمعي، وفيها أنشد في خلف الأحمر لأبي نسناس النهشلي:

وسائلته أين الرحيل وساءَلَ ... ومَن يسألِ الصعلوك أين مذاهِبُه؟
ودوابه يخشى بها الريّ سَرَتْ ... بأبي النسناس فيها ركائبه
ليدرك ناراً أو ليكسب مغنماً ... جزيلاً وهذا الدهر جمّ عجائبه

وذكر القصيدة كلها.

وقال الأصمعي: بينما أنا مع الرشيد بمكة، إذ عارضه العمري، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني أريد أن أكلمك بكلام غليظ، احتمله لله عز وجل، فقال: لا أفعل، فوالله لقد بعث الله تعالى من هو خير منك إلى من هو شرّ مني، فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه:٤٤]. [مرآة الجنان:٢/ ٥٤].

* * *

القصة السادسة والخمسون ومائة

عبد من عبيدك أنت أولى بأدبه

قال الأصمعي: كنت عند الرشيد بالرقة، فبعث إليّ فقمت وأنا وجل، فدخلت فإذا هو جالس على بسط، وإذا كرسي خيزران إلى جانبه، وجويرية جالسة على ذلك، فسلمت فلم يردّ عليّ، وجعل ينكت في الأرض، فأيست من الحياة، فقال: يا أصمعي؛ ألم ترَ هذا الكذاب عبدَ بني حنيفة يقول لمعن بن زائدة، وإنما هو عبد عبيدي:

أقمنـــا باليمامـــة إذ يئـــسنا ... مقامـــاً لا يزيـــد بـــه وبـــالا

وقلنـــا أيـــن نـــذهب بعـــد مَعْـــنٍ ... وقـــد ذهـــب النـــوالُ فـــلا نـــوالا

وكـــان النـــاسُ كلّهـــم لمعـــنٍ ... إلى أنْ زار حُفرئـــــه عَيـــــالا

فجعلني وحشمي عيالاً لمعن، وقال: إن النوال قد ذهب، فما تصنع بنا؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ عبد من عبيدك، أنت أولى بأدبه، وهو بالباب، فقال عليّ به، فأُدخل، فقال: السياط، فأخذ الخدم يضربونه، فضُرب أكثر من ثلاثمائة سوط، وهو يصيح ويقول: يا أمير المؤمنين؛ استبقني، واذكر قولي فيك وفي أبيك، قال: وما قلت فينا؟ فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

مـــا تطفئـــون مـــن الـــسماء نجومهـــا ... أو تمحقـــون مـــن الـــسماء هلالهـــا

أم ترفعـــون مقالـــة عـــن ربـــه ... جبريـــل بلغهـــا الـــنبي فقالهـــا

شـــهدت مـــن الأنفـــال أحزابـــه أن أتهـــم فـــأرَتمو إبطالهـــــا
فـدعوا الأسـودَ خـوادراً في غيلـها ألا تولـــغُ دمـــاءَكم أشـــبالها

وقال: فأمر له بثلاثين ألف درهم وخلاّه.

فلما خرج قال لي: يا أصمعي من هذه؟ قلت: لا أدري، قال: هذه مواسية بنت أمير المؤمنين، قم فقبّل رأسها، فقلت: أفلتّ من واحدة، ووقعت في أخرى، إن فعلت أدركته الغيرة فقتلني، فقمت، وما أعقل، فوضعت كمّي على رأسها وفمي على كمي، فقال لي: والله لو أخطأتها لقتلتك، قلت: يعني لو أخطأت هذه الفِعلة التي فعلتُها بهذه الصفة، قال: ثم قال: أعطوه عشرة آلاف درهم.

وقال الأصمعي: حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع، فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت: مجلد واحد، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال: خمسون مجلداً، فقال له: قم إلى هذا الفرس، وأمسكه عضواً عضواً منه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته من العرب، فقال لي: قم يا أصمعي، وافعل ذلك، فقمت وأمسكت ناصيته، وشرعت أذكر عضواً عضواً، وأضع يدي عليه، وأنشده ما قالت العرب فيه إلى أن فرغتُ منه، فقال: خذه، فأخذته، وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه. [مرآة الجنان:٢/ ٤٨-٥٦].

* * *

القصة السابعة والخمسون ومائة
يا عبدالملك قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين

قال الأصمعي: كنت بالبصرة، أطلب العلم، وأنا مقلّ، وكان على باب زقاقنا بقّال، إذا خرجت باكراً، يقول لي: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المحدّث، وإذا عدت مساء، يقول لي: من أين فأقول: من عند فلان الأخباري، أو اللغوي.

فيقول: يا هذا، اقبل وصيّتي، أنت شاب، فلا تضيع نفسك، واطلب معاشاً، يعود عليك نفعه، وأعطني جميع ما عندك من الكتب، حتى أطرحها في الدن، وأصب عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبّذه، وأنظر ما يكون منه، والله، لو طلبت مني، بجميع كتبك، جرزة بقل، ما أعطيتك.

فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام، حتى كنت أخرج من بيتي ليلاً، وأدخله ليلاً، وحالي - في خلال ذلك - تزداد ضيقاً، حتى أفضيت إلى بيع آجر أساسات داري، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري، وأخلق ثوبي، واتّسخ بدني.

فأنا كذلك، متحيّراً في أمري، إذ جاءني خادم للأمير محمد بن سليمان الهاشمي، فقال: أجب الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟

فلما رأى سوء حالي، وقبح منظري، رجع فأخبر محمد بن سليمان بخبري، وعاد إليّ، ومعه تخوت ثياب، ودرج فيه بخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قد أمرني الأمير، أن أدخلك الحمّام، وألبسك من هذه الثياب، وأدع باقيها عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الأطعمة، وأبخّرك، لترجع إليك نفسك، ثم أحملك إليه.

فسررت سروراً شديداً، ودعوت له، وعملت ما قال، ومضيت معه، حتى دخلت على محمد بن سليمان، فسلّمت عليه، فقرّبني، ورفعني.

ثم قال: يا عبدالملك، قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

فشكرته، ودعوت له، وقلت: سمعاً وطاعة، سأخرج شيئاً من كتبي وأتوجّه.

فقال: ودّعني، وكن على الطريق غداً.

فقبّلت يده، وقمت، فأخذت ما احتجت إليه من كتبي، وجعلت باقيها في بيت، وسددت بابه، وأقعدت في الدار عجوزاً من أهلنا، تحفظها.

وباكرني رسول الأمير محمد بن سليمان، وأخذني، وجاء بي إلى زلاّل قد اتخذ لي، وفيه جميع ما أحتاج إليه، وجلس معي، ينفق عليّ، حتى وصلت إلى بغداد.

ودخلت على أمير المؤمنين الرشيد، فسلّمت عليه، فردّ علي السلام.

وقال: أنت عبدالملك بن قريب الأصمعي.

قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين بن قريب الأصمعي.

قال: اعلم، أن ولد الرجل مهجة قلبه، وثمرة فؤاده، وهو ذا أسلم إليك ابني محمّداً بأمانة الله، فلا تعلّمه ما يفسد عليه دينه، فلعله أن يكون للمسلمين إماماً.

قلت: السمع والطاعة.

فأخرجه إليّ، وحوّلت معه إلى دار، قد أخليت لتأديبه، وأخدم فيها من أصناف الخدم، والفرش، وأجرى علي في كل شهر عشرة آلاف درهم، وأمر أن تخرج إليَ في كل يوم مائدة، فلزمته.

وكنت مع ذلك، أقضي حوائج الناس، وآخذ عليها الرغائب، وأنفذ جميع ما يجتمع لي، أولاً، فاولاً، إلى البصرة، فأبني داري، وأشتري عقاراً، وضياعاً.

فأقمت معه، حتى قرأ القرآن، وتفقّه في الدين، وروى الشعر واللغة، وعلم أيام الناس وأخبارهم.

واستعرضه الرشيد، فأعجب به، وقال: يا عبدالملك، أريد أن يصلي بالناس، في يوم الجمعة، فاختر له خطبة، فحفّظه إياها.

فحفظته عشراً، وخرج، فصلّى بالناس، وأنا معه، فأعجب الرشيد به، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصة والعامة، وأتتني الجوائز والصلات من كل ناحية، فجمعت مالاً عظيماً. [الفرج بعد الضيق:٢/ ١٩٨].

ثم استدعاني الرشيد، فقال: يا عبدالملك، قد أحسنت الخدمة، فتمنّ.

قلت: ما عسى أن أتمنّى، وقد حزت أمانيّ.

فأمر لي بمال عظيم، وكسوة كثيرة، وطيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظهر، وفرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أن يأذن لي في الإلمام بالبصرة، والكتاب إلى عامله بها، أن يطالب الخاصة والعامة، بالسلام علي ثلاثة أيام، وإكرامي بعد ذلك.

فكتب إليه بما أردت، وانحدرت إلى البصرة، وداري قد عُمِّرت، وضياعي قد كثرت، ونعمتي قد فشت، فما تأخر عني أحد.

فلما كان في اليوم الثالث، تأمّلت أصاغر من جاءني، فإذا البقال، وعليه عمامة وسخة، ورداء لطيف، وجبة قصيرة، وقميص طويل، وفي رجله جرموقان، وهو بلا سراويل.

فقال: كيف أنت يا عبدالملك؟

فاستضحكت من حماقته، وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرشيد.

قلت: بخير، وقد قبلت وصيّتك، وجمعت ما عندي من الكتب، وطرحتها في الدن، كما أمرت، وصببت عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى.

ثم أحسنت إليه بعد ذلك، وجعلته وكيلي. [الفرج بعد الشدة:٢/ ١٩٨].

* * *

الزمرة الثامنة والعشرون

قصص أبي دلامة

تقديم:

كان أبو دلامة بن زند بن الجون صاحب نوادر وحكايات وأدب، وكان يدخل على الخلفاء، ويراسل الولاة، ويقول الشعر.

القصة الثامنة والخمسون ومائة

نماذج من قصص أبي دلامة

١- ذكر ابن الجوزي أنه توفيت لأبي جعفر المنصور ابنةُ عم، فحضر جنازتها وهو متألم لفقدها كئيب، فأقبل أبو دلامة وجلس قريباً، فقال له المنصور: ويحك ما أعددت لهذا المكان؟ وأشار إلى القبر، فقال: ابنةُ عم أمير المؤمنين، فضحك المنصور حتى استلقى، ثم قال له: ويحك فضحتنا بين الناس.

٢- ولما قدم المهدي بن منصور من الري إلى بغداد، دخل عليه أبو دلامة للسلام والتهنئة بقدومه، فقال له المهدي: كيف أنت يا أبا دلامة؟ فأنشد:

إنــي حلفْــتُ لــئن رأيْتــك ســالماً   بقــرى العــراق وأنــتَ ذو وفــرِ

لتــصلّين علــى الرســول محمــدٍ   ولــتملأنَّ دراهمـــاً حجـــري

فقال له المهدي: أما الأولى فنعم، وأما الثانية فلا، فقال: جعلني الله فداك، إنهما كلمتان لا تفرق بينهما، فقال: يُملأ حجر أبي دلامة دراهم، فقعدُ وبسط حجره فملأه دراهم، وقال له: قم الآن يا أبا دلامة، فقال: ينخرق قميصي يا أمير المؤمنين، فردَها إلى الأكياس، ثم قام.

٣- ومن أخباره: أنه مرض ولده فاستدعى طبيباً ليداويه، وشرط له جعلاً معلوماً، فلما برأ قال له: والله ما عندنا شيء نعطيك، ولكن ادّعِ على فلان اليهودي، وكان ذا مال كثير بمقدار الجعل، وأنا وولدي نشهد بذلك، فمضى الطبيب إلى القاضي يومئذ، وحُمل اليهودي إليه، وادعى عليه بذلك المبلغ، فأنكر اليهودي، فقال: إن لي عليه بينة، وخرج لإحضار البينة، فأحضر أبا دلامة وولده، فدخلا إلى المجلس، وخاف أبو دلامة أن يطالبه القاضي بالتزكية، فأنشد في الدهليز قبل دخوله إلى القاضي بحيث يسمع القاضي:

إنِ النـاسُ غطَّـوني تغطيـت عـنهم ... وإن بحثـوا عنِّـي ففـيهم مباحـث

وإن حفـروا بـيري حفـرت بيـارهم ... لـيعلم قـومٌ كيـف تلـك النبائـث

ثم حضر بين يدي القاضي وأدّيا الشهادة، فقال له القاضي: كلامك مسموع، وشهادتك مقبولة، ثم غرم القاضي المبلغ من عنده، وأطلق اليهودي، وما أمكنه أن يرد شهادتهما خوفاً من لسانه، فجمع بين المصلحتين بتحمل الغرم من ماله، وكان القاضي محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وقيل: عبدالله بن شبرمة.

٤- في كتاب أخبار البصرة أن أبا دلامة كتب إلى سعيد بن دعلج، وكان يومئذ يتولى الأحداث بالبصرة، وأرسل الكتاب من بغداد مع ابن عم له:

إذا جئـت الأمـير فقـل سـلام ... عليـك ورحمـة الله الـرحيم

وأمـا بعـد ذاك فلـي غـريم ... مـن الأعـراب قـبح مـن غـريم

لـه ألـف علـي ونـصف أخـرى ونـصف النـصف في صـكٍ قـديم
دراهـم مـا انتفعـت بهـا ولكـن وصـلت بهـا شـيوخ بـني تمـيم

فسير له دعلج ما طلب.

٥- وكان روح بن حاتم المهلبي والياً على البصرة، فخرج إلى حرب الجيوش الخراسانية ومعه أبو دلامة، فخرج من صف العدو مبارز فخرج إليه جماعة، فقتلهم واحداً بعد واحد، فتقدم روح إلى أبي دلامة لمبارزته، فامتنع، فألزمه ذلك، فاستعفاه، فلم يعفه، فأنشد:

إنـي أعـوذ بـروح أن يقـدمني إلى القتـال فيخـزى بـي بنـو أسـد
إن المهلـب حـب المـوت أورثكـم ولم أورث قط حب الموت من أحـد
إن الـدنو إلى الأعـداء أعلمـه ممـا يفـرق بـين الـروح والجـسد

فأقسم عليه ليخرجن، وقال: لماذا تأخذ رزق السلطان؟ قال: لأقاتل عنه. قال: فما بالك الآن لا تبرز إلى العدو؟ فقال: أيها الأمير إن خرجت إليه لحقت بمن مضى، وما الشرط أن أقتل عن السلطان بل أقاتل عنه، فحلف روح لتخرجن إليه، فتقتله أو تأسره أو تقتل دون ذلك، فلما رأى أبو دلامة الجدّ منه، قال: أيها الأمير تعلم أن هذا أول يوم من أيام الآخرة، ولابد فيه من الزوادة، فأمر له بذلك، فأخذ رغيفاً على دجاجة ولحم وسطيحة من شراب وشيئاً من بقل، وشهر سيفه وحمل.

وكان تحته فرس جواد، فأقبل يجول، ويلعب بالرمح، وكان مليحاً في الميدان، والفارس لا يلحظه، ويطلب منه غرة حتى إذا وجدها حمل عليه، والغبار كالليل، فأغمد أبو دلامة سيفه، وقال للرجل: لا تعجل، واسمع مني

عافاك الله كلمات ألقيهن إليك، فإنما أتيتك في مهم، فوقف مقابله، وقال: ما هو المهم؟ قال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أبو دلامة. قال: قد سمعت بك، حياك الله، فكيف برزت إليّ، طمعت فيّ بعد من قتلتُ من أصحابك ممن رأيت؟ قال: ما خرجت لأقتلك ولا أقاتلك، ولكني رأيت لياقتك وشهامتك، فاشتهيت أن تكون لي صديقاً، وإني لأدلك على ما هو أحسن من قتالنا، قال: قل على بركة الله تعالى.

قال: أراك قد تعبت وأنت سقيان ظمآن، قال: كذلك هو، قال: فما علينا من خراسان والعراق، إن معي خبزاً ولحماً وشراباً وبقلاً كما يتمنى المتمني، وهذا غدير ماء نمير بالقرب منا، فهلم بنا إليه نصطبح، وأترنم إليك بشيء من إحدى الأعراب، فقال: هذا غاية أملي، قال: فها أنا أنتظر ذلك، فاتبعني حتى نخرج من حلقة النضال، ففعلا وروح يتطلب صاحبه فلا يجده، والخراسانية تتطلب فارسها فلا تجده، فلما طابت نفس الخراساني، قال له أبو دلامة: إن روحاً كما علمت من أبناء الكرام، وحسبك بابن المهلب جوداً، وأنه يبذل لك خلعة فاخرة، وفرساً جواداً، ومركباً مفضضاً، وسيفاً محداً ورمحاً طويلاً، وجارية بربرية، وأنه ينزلك في أكبر العطاء، وهذا خاتمه معي لك بذلك.

فقال: ويحك، وما أصنع بأهلي وعيالي، قال: استخر الله تعالى وأسرع معي، ودع أهلك فالكل يخلف عليك، فقال: سر بنا على بركة الله تعالى، فسارا حتى قدما من وراء العسكر.

فهجما على روح، فقال يا أبا دلامة، أين كنت؟ قال في حاجتك، أما قتل الرجل فما أطيقه، وأما سفك دمي فما طبت به نفساً، وأما الرجوع خائباً فلم أقدم عليه، وقد تلطفت وأتيتك بالرجل أسير كرمك، وقد بذلت له عنك كيت وكيت، فقال: يمضي إذا وثق لي. قال بماذا؟ قال: ينقل أهله، فقال الرجل: أهلي على بعد، ولا يمكنني نقلهم الآن، ولكن امدد يديك أصافحك وأحلف لك

متبرعاً بطلاق الزوجة أني لا أخونك، فإن لم أف إذا حلفت بطلاقها لم ينفعك نقلها، قال: صدقت، فحلف له، وعاهده، ووفى بما ضمنه أبو دلامة وزاد عليه، وانقلب الخراساني معهم يقاتل الخراسانية، وينكأ فيهم أشد نكاية، وكان أكثر أسباب ظفر روح.

وكان المنصور قد أمر بهدم دور كثيرة منها دار أبي دلامة، فكتب إلى المنصور:

يـا ابـن عـم الـنبي دعـوة شـيخ   قـد دنـا هـدم داره وبـواره
فهـو كالمـاخض الـذي اعتادهـا   الطلـق ومـا تقـر قـراره
لكـم الأرض كلـها فـأعيروا   عبـدكم مـا احتـوى عليـه جـداره

[مرآة الجنان: ١/ ٢٦٦].

* * *

الزمرة التاسعة والعشرون

قصص في فضل الكلاب

تقديم:

في هذه الزمرة سبع قصص أخذتها من كتاب واحد، هو كتاب «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» للعلاّمة محمد بن خلف بن المرزبان.

وهذه القصص السبع كلها تقصد مقصداً واحداً، وهو ذكر ما نفعت به الكلاب أصحابها، إما بإنجائهم من الموت، أو إنجائهم من مكروه وشر.

ولاشك أنّ في الكلاب التي ترافق العباد طباع حسنة، وإن كنّا نهينا عن مصاحبة الكلاب إلا كلب الحراسة أو الصيد.

القصة التاسعة والخمسون ومائة
هرب عنه أحباؤه وأنقذه كلبه

قال أبو عبيدة: خرج رجل من أهل البصرة، إلى الجبانة (المقبرة) ينتظر ركابه، فاتبعه كلب له، فطرده وضربه، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر فأدماه، فأبى الكلب إلا أن يتبعه، فلما صار إلى الموضع، وثب به قوم كانت لهم عنده طائلة، وكان معه جار له وأخ، فهربا عنه، وتركاه وأسلماه، فجرح جراحات كثيرة،

ورُمي به في بئر، وحثوْا عليه التراب، حتى وارَوْهُ، ولم يشُكُّوا في موته، والكلب مع هذا يهرّ عليهم، وهم يرجمونه.

فلما انصرفوا أتى الكلب إلى رأس البئر، لم يزل يعوي ويبحث بالتراب بمخاليبه، حتى أظهر رأس صاحبه، وفيه نفس يتردد، وقد كان أشرف على التلف، ولم يبق فيه إلا حُشاشة نفسه، ووصل إليه الروح، فبينما هو كذلك إذ مرّ أناس، فأنكروا مكان الكلب، ورأوه كأنه يحفر قبراً، فجاؤوا فإذا هم بالرجل على تلك الحال، فاستخرجوه حياً وحملوه إلى أهله.

فزعم أبو عبيدة: أن ذلك الموضع يُدعى: بئر الكلب.

وقال أحد الشعراء في هذه الواقعة:

يُعَـــوِّدُ عنـــه جـــاره وشـــقيقه ويرغـب فيـه كلبـه وهـو ضـاربه

وهذا الأمر يدل على وفاء طبعي، وإلفٍ غريزي، ومحاماة شديدة، وعلى معرفة وصبر، وعلى كرم وشكر، ووفاء عجيب، ومنفعة تفوق المنافع، لأن ذلك كله من الكلب من غير تكلف، ولا تصنع. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرّ الثياب:ص٧٨].

* * *

القصة الستون ومائة

فدى سيده بنفسه

قدم رجل على بعض السلاطين، وكان معه حاكم أرمينية منصرفاً إلى منزله، فمر في طريقه بمقبرة، فإذا قبر عليه قبة مبنية مكتوب عليها: هذا قبر الكلب، فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا فإن فيها من يخبره.

فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها، فقصدها وسأل أهلها فدلوه على شيخ، فبعث إليه وأحضره، وإذا شيخ قد جاوز المائة سنة، فسأله فقال: نعم كان في هذه الناحية ملك عظيم الشأن، وكان مشهوراً بالنزهة والصيد والسفر، وكان له كلب قد رباه، وسماه باسم، وكان لا يفارقه حيث كان، فإذ كان وقت غدائه وعشائه أطعمه مما يأكل.

فخرج يوماً إلى بعض منتزهاته، وأمر بربط الكلب لئلا يذهب معه، وقال لبعض غلمانه: قل للطباخ يصلح لنا ثريدة لبن، فقد اشتهيتها فأصلحوها، ومضى إلى منتزهاته، فتوجه الطباخ وجاء بلبن وصنع له ثريدة عظيمة، ونسي أن يغطيها بشيء، واشتغل بطبخ شيء آخر، فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت من ذلك اللبن ومجته في الثريدة من سمها، والكلب رابض مربوط يرى ذلك كله، ولو كان له في الأفعى حيلة لمنعها ولكن لا حيلة له فيها.

وكان عند الملك جارية خرساء زمناء قد رأت ما صنع الأفعى، ووافى الملك من الصيد في آخر النهار، فقال: يا غلمان أول ما تقدمون إليّ الثريدة، ولما وضعت بين يديه، أومأت الخرساء إليهم، فلم يفهموا ما تقول، ونبح الكلب

وصاح، فلم يلتفتوا إليه، وألح في الصياح، فلم يعلم مراده فيه، ثم رُمي إليه بما كان يُرمى إليه في كل يوم فلم يقربه، ولجّ في الصياح.

فقال لغلمانه: نحّوه عنّا، فإن له قصة، وفك رباطه، ومد يده إلى اللبن، فلما رآه الكلب يريد أن يأكل وثب إلى وسط المائدة، فأدخل رأسه في اللبن، وكرع منه فسقط ميتاً وتناثر لحمه.

وبقي الملك متعجباً منه ومن فعله، فأومأت الخرساء إليهم، فعرفوا مرادها بما صنع الكلب، فقال الملك لندمائه وحاشيته: إن من قد فداني بنفسه لحقيق بالمكافأة، وما يحمله ويدفنه غيري، ودفنه بين أبيه وأمه، وبنى عليه قبة، وكتب عليها ما قرأت، وهذا ما كان من خبره. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرّ الثياب:ص٨٢].

* * *

القصة الحادية والستون ومائة
خانه صاحبه وأنقذه كلبه

تولى محمد بن الحسين بن شداد مدينة نيسابور، قال: فقصدت عليّ بن أحمد الراسبي الوالي على دور الراسبيين، قال:

فنزلت في بعض منازلها، فوجدت في جواره جندياً من أصحابه يعرف بـ: نسيم، كان غلاماً وسيماً نظيفاً، وإذا كلب له يخرج بخروجه، ويدخل بدخوله، وإذا جلس على بابه قربه وغطاه بدواج كان عليه.

فسألت الراسبي عن محل الغلام، وكيف يقنع الأمير منه بدخول الكلب عليه، ويرضى منه بذلك، وليس بكلب صيد؟ قال أبو الوليد: سله عن حديثه فإنه يخبرك بشأنه، فأحضرت الغلام، وسألته عن السبب الذي استحق به هذه المنزلة منه؟

فقال: هذا خلصني – بعد الله عز وجل – من أمر عظيم، فاستبشعت هذا القول منه، وأنكرته عليه؟! فقال لي: اسمع حديثه، فإنك تعذرني، قد كان يصحبني رجل من أهل البصرة يقال له: محمد بن بكر لا يفارقني، يؤاكلني ويعاشرني على النبيذ وغيره منذ سنين.

فخرجنا نغزو إلى الدينور، فلما رجعنا وقربنا من منازلنا، كان في وسطي هميان فيه جملة دنانير، ومعي متاع كثير أخذته من الغنيمة قد وقف عليه بأسره.

فنزلنا إلى موضع فأكلنا وشربنا، فلما عمل الشراب، عمد إليّ فشد يديّ إلى رجلي، وأوثقني كتافاً ورمى بي في وادٍ، وأخذ كل ما معي، وتركني ومضى، وآيست من الحياة، وقعد هذا الكلب معي، ثم تركني ومضى، فما كان بأسرع

من أن وافاني ومعه رغيف، فطرحه بين يدي فأكلته، ولم أزل أحبو إلى موضع فيه ماء فشربت منه، ولم يزل الكلب معي باقي ليلي يعوي، إلى أن أصبحت، وفقدت الكلب، فما كان بأسرع من أن وافاني ومعه رغيف فأكلت، وفعلت فعلي في اليوم الأول، فلما كان في اليوم الثالث غاب عني، فقلت: مضى يجيئني بالرغيف، فلم ألبث إلا أن جاء ومعه الرغيف، فرمى به إليّ، فما استتمَمْتُ أكله، إلا وابني على راسي يبكي، فقال: وما تصنع هاهنا، وما هي قصتك؟ ونزل فحل كتافي وأخرجني، فقلت له: من أين علمت بمكاني، ومن دلّك عليّ؟؟ .

فقال: كان الكلب يأتينا في كل يوم، فنطرح له الرغيف على رسمه فلا يأكله، وقد كان معك، فأنكرنا رجوعه، ولست أنت معه، فكان يحمل الرغيف بفيه، ولا يذوقه، ويخرج يعدو، فأنكرنا أمره، فاتبعته حتى وقفت عليك، فهذا ما كان من خبري وخبر الكلب، فهو عندي أعظم مقداراً من الأهل والقرابة.

فقال: ورأيت أثر الكتاف في يده، قد أثر أثراً قبيحاً.

فكان الرجل بعد ذلك يقرب هذا الكلب، ويجلسه إلى جنبه ويغطيه، ويدخل بدخوله، ويخرج بخروجه. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرُ الثياب:ص٩٠].

* * *

القصة الثانية والستون ومائة
وثب الكلب عليَّ وثبة الأسد وصاح

حدثني لص تائب قال: دخلت مدينة قد ذكرها لي، فجعلت أطلب شيئاً أسرقه فلم أصب، ووقعت عيني على صيرفي موسر، فما زلت أحتال، حتى سرقت كيساً له، وانسللت، فما جزت غير بعيد إذا بعجوز معها كلب قد وقعت على صدري تبوسني وتلزمني، وتقول: يا بنيّ فديتك، والكلب يبصبص، ويلوذ بي.

ووقف الناس ينظرون إلينا، وجعلت المرأة تقول: بالله انظروا إلى الكلب كيف قد عرفه، فعجب الناس من ذلك، وشككت أنا في نفسي، وقلت: لعلها أرضعتني، وأنا لا أعرفها، وقالت: سر معي إلى البيت أقم عندي اليوم، فلم تفارقني حتى مضيت معها إلى بيتها.

وإذا عندها جماعة أحداث يشربون، وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين، فرحبوا بي، وقربوني، وأجلسوني معهم، ورأيت لهم بزة حسنة، فوضعت عيني عليها، وجعلت أسقيهم ويشربون، وأرفق بنفسي إلى أن ناموا، ونام كل من في الدار، فقمت وكورت ما عندهم، وذهبت أخرج فوثب عليّ الكلب وثبة الأسد، وصاح وجعل يتراجع وينبح، إلى أن انتبه من كان نائماً، فخجلت واستحيت.

فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم أمس، وفعلت أنا أيضاً بهم مثل ذلك، وجعلت أوقع الحيلة في أمر الكلب إلى الليل، فما أمكنني فيه حيلة، فلما ناموا

رمت الذي رمته، فإذا الكلب قد عارضني مثل ما عارضني، به، فجعلت أحتال ثلاث ليال، فلما آيست طلبت الخلاص منهم بإذنهم.

وقلت: أتأذنون لي أعزكم الله، فإني على وفز.

فقالوا: الأمر إلى العجوز، فاستأذنتها فقالت: هات ما معك الذي أخذته من الصيرفي، وامض حيث شئت، لا تقم في هذه المدينة، لأنه لا يتهيأ لأحد أن يعمل معي عملاً، فأخذت الكيس وأخرجتني، ووجدت أنا أيضاً مناي أن أسلم من يدها، فكان قصاراي أن طلبت منها نفقة، فدفعت إليّ نفقة، وخرجت معي حتى أخرجتني عن المدينة والكلب معها حتى جزت حدود المدينة ووقفت، ومضيت والكلب يتبعني، حتى بعدتُ، ثم تراجع ينظر إليّ، ويلتفت، وانظر إليه حتى غاب عن عيني. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرُ الثياب:ص٩٥].

* * *

القصة الثالثة والستون ومائة
أفسد الصديق حرمته فقام الكلب بنصرته

عن أبي الحسن المدائني يرفعه، إلى عمرو بن أبي شمر، قال: كان للحارث ابن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فبعث أحدهم لزوجته فراسلها، وكان للحارث كلب ربّاه، فخرج الحارث في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه، وتخلف عنه ذلك الرجل، فلما بَعُدَ الحارث عن منزله جاء نديمه إلى زوجته، فأقام عندها يأكل ويشرب، فلما سكرا وأراد أن يخلو بها، ورأى الكلب ذلك، وثب الكلب عليهما فقتلهما.

فلما رجع الحارث إلى منزله ونظر إليهما، ووجدهما قتيلين، عرف القصة، ووقف ندماؤه على ذلك، وأنشأ يقول:

وَمَـا زالَ يَرْعَـى ذِمَّـتي ويحـوطُني ... ويَحْفَـظُ عِرسـي والخليـلُ يخـونُ
فـوا عجبـاً للخِـلِّ يهتِـكُ حُـرْمَتي ... ويَـا عَجَبـاً للكَلْـبِ كَيْـفَ يَـصُونُ

قال: وهجر من كان يعاشره، واتخذه كلبه نديماً وصاحباً، فتحدث به العرب. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرّ الثياب:ص١٠٥].

* * *

القصة الرابعة والستون ومائة
وثب الكلبان في حال واحدة فأمسكا رأس الأفعى وذنبها

خرج رجل من أهل البصرة كانت له صحبة مع أهلي إلى بساتين أعلى البصرة، ومعه كلب، وكان الجوّ حاراً، فدخل إحدى قباب البصرة التي يتخذها فلاحو البصرة سكناً، قال: فنمت بالقبة وكانت حارة جداً، وتنبهت بعد العصر، وقد انصرف الذين يجمعون القصب، فاستوحشت للوحدة، وعملت على القيام، فإذا بأفعى في غلظ الساق أو الساعد متدورة على باب القبة كالطبق العظيم.

فلم أجد للخروج سبيلاً، ويئست من نفسي، وجزعت جزعاً شديداً، وأخذت في التشهد والتضرع إلى الله عز وجل.

وبينما أنا كذلك، وإذا بالكلب أقبل من بعيد، فلما رأى الأفعى وقف برهة بعيداً عنها، ثم رجع من حيث أتى، وأنا لا أستطيع رفع صوتي منادياً له، وما إن غاب قليلاً حتى رجع ثانية ومعه كلب آخر أكبر منه، فوقف الواحد عن يمين باب القبة والآخر عن يسارها، وصار الواحد عند رأس الأفعى، والآخر عند ذنبها، ثم وثبا في حالٍ واحدة، وإذا رأس الأفعى وذنبها في فم كل واحدٍ منهما.

ولم تستطع الإفلات منهما، وجرّاها بعيداً عن مكاني، فخرجت مسروراً، وبعد ذلك لحق بي الكلب الذي نجاني الله بحيلته. [تفضيل الكلاب على كثير ممن جرّ الثياب: ص١١٣].

الزمرة المتممة للثلاثين

قصص في موضوعات شتى

تقديم:

هذه القصص المجموعة في هذه الزمرة، لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط، فهي في موضوعات شتى، وهي لا تدخل في واحد من الموضوعات السابقة، ولكن في كل واحدة منها شيء من العجب والطرافة

القصة الخامسة والستون ومائة

لماذا يرفع الأوربيون قبعاتهم عند التحية

كانت القبعة في العصور الوسطى في أوروبا وقفاً على الأحرار من الناس، أما العبيد فكانوا يسيرون مكشوفي الرؤوس علامة على أنهم لا يزالون عبيداً، ولذلك كان الرجل إذا حيا آخر، وأراد أن يظهر له مدى تقديره، رفع قبعته، وكأنه يقول له: إنه تحت تصرفه وفي خدمته.

أما رفع القبعة عند دخول البيوت فيرجع إلى عصر الفروسية، يوم كان الرجال والشبان يضعون على رؤوسهم خوذات حديدية، وعلى أجسامهم دروعاً تقيهم طعنات الأعداء عند الحروب.

فكانوا إذا دخل أحدهم منزلاً خلع قبعته، وفي هذا اعتراف منه بأن أهل المنزل أصدقاء له، لا يخشَى منهم سوءاً..، وقد زال عصر الفروسية، وبقيت تلك العادة حتى الآن.

القصة السادسة والستون ومائة
بذخ الحكام والأثرياء

عندما تسود أمة من الأمم، ويصلب عودها، ويكثر الخير في ديارها، يظهر عليها مظاهر البذخ، وخاصة في المناسبات السارة، وقد ظهر هذا على مرّ التاريخ الإسلامي، وسجل لنا التاريخ من ذلك ما يبهر العقول، فمن ذلك ما أنفق في زواج المأمون على بوران بنت سهل.

يقول ابن كثير [البداية والنهاية:١١/٤٩] «عقد المأمون على بوران بفم الصلح سنة ست ومائتين، ولها عشر سنين، ونثر عليها أبوها يومئذ وعلى الناس بنادق المسك، مكتوب في ورقة وسط كل بندقة اسم قرية أو ملك جارية أو غلام أو فرس، فمن وصل إليه من ذلك شيء ملكه، ونثر ذلك على عامة الناس، ونثر الدنانير ونوافج المسك وبيض العنبر. وأنفق على المأمون وعسكره مدة إقامته تلك الأيام الخمس ألف ألف درهم. فلما ترحل المأمون عنه أطلق له عشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه فم الصلح، وبنى بها في سنة عشر، فلما جلس المأمون فرشوا له حصراً من ذهب، ونثروا على قدميه ألف حبة جوهر، وهناك تور من ذهب فيه شمعة من عنبر زنة أربعين مناً من عنبر، فقال: هذا سرف، ونظر إلى ذلك الحب على الحصر يضيء، فقال: قاتل الله أبا نواس حيث يقول في صفة الخمر:

كأن صغرى وكُبرى مِنْ فَقاقِعِها   حَصْباءُ درٍ على أرْضٍ مِن الذّهبِ

ثم أمر بالدر فجمع، فجعل في حجر العروس،وقال: هذا نحلة مني لك، وسلي حاجتك. فقالت لها جدتها: سلي سيدك فقد استنطقك، فقالت: أسأل أمير المؤمنين أن يرضى عن إبراهيم بن المهدي فرضي عنه، ثم أراد الاجتماع بها فإذا هي حائض، وكان ذلك في شهر رمضان.

ويظهر الثراء وكثرة المال في الميراث الذي يتركه الأثرياء، فمن ذلك ميراث سبكتكين الحاجب، مولى المعز الديلمي، وترك من المال شيئاً كثيراً جداً، ومن ذلك ألف ألف دينار، وعشرة آلاف ألف درهم، وصندوقان من جوهر، وخمسة عشر صندوقاً من البلور، وخمسة وأربعين صندوقاً من آنية الذهب، ومائة وثلاثون كوكباً من ذهب، منها خمسون وزن كل واحد ألف دينار، وستمائة مركب من فضة وأربعة آلاف ثوب من ديباج، وعشرة آلاف دبيقي وعتابى، وثلاثمائة عدل معكومة من الفرش، وثلاثة آلاف فرس وألف جمل وثلاثمائة غلام وأربعون خادماً، وذلك غير ما أودع عند أبي بكر البزار. وكان صاحبه.

* * *

القصة السابعة والستون ومائة
اشتملت خزانة الكتب على ألفي ألف مجلد

كان الحكام العبيديون أكثر الحكام جمعاً للمال على مدار التاريخ الإسلامي، وعندما قضى صلاح الدين الأيوبي على دولتهم، وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة الإسلامية، استعرض حواصل القصرين اللذين كانا مقر الحكام العبيديين فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة والآلات والملابس والمفارش شيئاً باهراً، وأمراً هائلاً، من ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر، وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر، وسمكه نحو الإبهام، وحبل من ياقوت، وإبريق عظيم من الحجر المانع، وطبل للقولنج إذا ضرب عليه أحد، فيه ريح غليظة أو غيرها خرج منه ذلك الريح من دبر، وينصرف عنه ما يجده من القولنج، فاتفق أن بعض أمراء الأكراد أخذه في يده، ولم يدر ما شأنه، فضرب عليه فحبق - أي ضرط - فألقاه من يده على الأرض فكسره، فبطل أمره.

وأما القضيب الزمرد فإن صلاح الدين كسره ثلاث فلق فقسمه بين نسائه، وقسم بين الأمراء شيئاً كثيراً من قطع البلخش والياقوت والذهب والفضة والأثاث والأمتعة وغير ذلك، ثم باع ما فضل عن ذلك، وجمع عليه أعيان التجار، فاستمر البيع فيما بقى هنالك من الأثاث والأمتعة نحواً من عشر سنين.

وأرسل إلى الخليفة ببغداد من ذلك هدايا سنية نفيسة، وكذلك إلى الملك نور الدين، أرسل إليه من ذلك جانباً كثيراً صالحاً، ولم يدخر لنفسه شيئاً مما حصل له من الأموال، بل كان يعطي ذلك من حوله من الأمراء وغيرهم.

فكان مما أرسله إلى نور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة إحدى وثلاثون مثقالاً، والأخرى ثمانية عشر مثقالاً، والثالثة عشرة مثاقيل، وقيل أكثر مع لآلئ كثيرة، وستون ألف دينار، وعطر لم يسمع بمثله، ومن ذلك حمارة وفيل عظيم جداً، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة في جملة هدايا.

قال ابن أبي طي: ووجد خزانة كتب ليس لها في مدائن الإسلام نظير، تشتمل على ألفي ألف مجلد، قال ومن عجائب ذلك أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، وكذا قال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبة من مائة وعشرين ألف مجلد. وقال ابن الأثير: كان فيها من الكتب بالخطوط المنسوبة بمائة ألف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، فأخذ منها شيئاً كثيراً مما اختاره وانتخبه، قال: وقسم القصر الشمالي بين الأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب في قصر عظيم على الخليج، يقال له اللؤلؤة.
[البداية والنهاية:١١/ ٢٦٦].

* * *

القصة الثامنة والستون ومائة
هذه ألف دينار ثمرة صبرك

قال أحمد بن يوسف الكاتب: حدثني أحمد بن وليد، قال: «ودعت إسحاق ابن نُصير العبادي في بعض خَرَجَاتي إلى بغداد، فأخرج إليّ ثلاثة آلاف دينار، وقال: «إذا دخلت بغداد، فادفع ألف دينار إلى ثعلب، وألف دينار إلى المبرد، وصِرْ إلى قصر وضّاح، فانظر إلى أول دكان للوراقين، فإنك تجد صاحبها - إن كان حياً لم يمت - قد شاخ، فاجلس إليه، وقل له: إسحاق بن نصير يقرأ عليك السلام، وهو الغلام الذي كان يقصدك كل عشية راجلاً من دار الروميين بدُرّاعة وعمامة ونعل رقيقة، فيستعير منك الكتاب بعد الكتاب، فإذا اقتضيته كِراء ما نسخ منه قال: «اصبر عليّ إلى الصُّنع» . فإذا استقرّت معرفتي في نفسه دفعت إليه هذه الألف الدينار، وقلت له: «هذه ثمرة صبرك عليّ» .

قال لي أحمد بن وليد: فلما دخلت بغداد، ودفعت الألفي دينار إلى ثعلب والمبرّد، مضيت إلى قصر وضّاح، فألفيت الدكان التي وصف لي قفراً ليس فيه كتاب، ورأيت فيها الشيخ الذي وصفه لي في حال رثة، وثياب خلقة، وقد أفضى به الأمر إلى التوريق للناس.

فجلست إليه، وسألته عن حاله، فقال: «يا أخي! ما ظنك بحال: ما تتأمله فيّ أحسن ما فيها؟» .

ثم خرجنا إلى المسألة إلى أشياء كان فيها خبر إسحاق بن نصير، فقال: «قد كان يجيئني من دار الروميين غلام ووصفه، فأسمح له بالنسخة بعد النسخة،

يقال له: «إسحاق» ، وكان يعدني في كل شيء يأخذه إلى الصنع، وأخبرت أنه وقع بنواحي مصر، وما حصل لي منه شيء!؟» فأخرجت الألف الدينار، وقلت له: يقول لك: «هذه ثمرة صبرك» ، فكاد والله يموت فرحاً، فقلت له: «ليست دراهم، وهي دنانير!» وانصرفت عنه، وهو أحسن من في سوقه حالاً.

قال لي أحمد بن وليد: واجتزت بعد ذلك، فرأيت دُكّانه معمورة، وهو متصدر فيها على أحسن حالٍ وأوفاها» [المكافأة وحُسْن العقبى:ص١٦].

* * *

القصة التاسعة والستون ومائة
تعالوا ندع الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسنة بالنار

نظر أبو حازم بن دينار إلى امرأة حسناء ترمي الجمار أو تطوف بالبيت، وقد شغلت الناس بالنظر إليها لبراعة حسنها، فقال لها: أمة الله! خمِّري وجهك، فقد فتنت الناس، فهذا موضع رغبةٍ ورهبة، فقالت له: إحرامي في وجهي أصلحك الله يا أبا حازم، وأنا من اللواتي قال فيهن العرْجي:

من الّلاءِ لم يَحْجُجْـنَ يـبغين حِـسْبَةً ولكــنْ ليقْــتُلْن التَّقِــيَّ الُمغفَــلا

فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله ألا يعذب هذه الصورة الحسنة بالنار، فقيل له: أفتنتك يا أبا حازم: فقال: لا، ولكن الُحسْنَ مرحوم.

وذكر المدائني عن عبدالله بن عمر العُمَري، قال: خرجت حاجّاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفثت فيه، فأدنيت ناقتي منها، وقلت: يا أمة الله! ألست حاجَّة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حُسْناً، ثم قالت: تأمل يا عمري، فإني ممن عناه العرْجي بقوله:

أماطت كِساءَ الخزّ عن حُـرٍّ وجههـا وأدنت علـى الخـدين بُـرْداً مُهلـهلا
من الّـلاءِ لم يحججـن يـبغين حِـسْبَةً ولكــنْ ليقــتُلْنَ الــبريءَ المغفَــلاَ
وترمــي بعينيهــا القلــوبَ ولحظِهــا إذا مــا رَمَــتْ لم تُخـطِ مـنهنّ مَقْـتَلاَ

قال: فقلت: فأنا أسأل الله ألا يعذِّب هذا الوجهَ بالنار. [بهجة المجالس:٣/ ١٩].

القصة السبعون ومائة
أسألك أن تحكم بيني وبين عبدالملك بن مروان

ضرب عبدالملك بن مروان بعثاً إلى اليمن، فأقاموا سنين، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق، قال: والله لأعُسَّنَّ الليلة مدينة دمشق، ولأسمعنّ ما يقول الناس في البعث الذي غرّبت فيه رجالهم، وغرمت فيه أموالهم، فبينما هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلّي، فتسمّع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحُجُب، ويا منزّل الكتب، ويا معطي الرُّغَب، ويا مؤدي الغُرَب، أسألك أن ترد غائبي، فتكشف به همي، وتُصفي به لذتي، وتقرّ به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبدالملك بن مروان الذي فعل بي هذا، فقد صيّر الرجل نازحاً عن وطنه، والمرأة مُقلقةً على فراشها، ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا الليل فالعين تدمعُ ... وأرّقني حُزني وقلبيَ مُوجَعُ
فبتَ أقاسي الليلَ أرعَى نجومَهُ ... وباتَ فؤادي هامداً يتفزّعُ
إذا غابَ منها كوكبٌ في مغيبهِ ... لمحتُ بعيني آخَراً حين يطلعُ
إذ ما تذكرتُ الذي كان بيننا ... وجدتُ فؤادي للهوَى يتقطّعُ
وكلُّ حبيبٍ ذاكرٌ لحبيبهِ ... يرَجِّي لِقاهُ كلّ يومٍ ويطمعُ
فذا العرش فرّج ما ترى من صَبابتي ... فأنت الذي ترعى أموري وتسمعُ
دعوتُك في السّراءِ والضُرّ دعوةً ... على غُلة بين الشراسيف تلْذَعُ

فقال عبدالملك لحاجبه: تعرف لمن هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل زيد بن سِنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر ألاّ يمكث العسكر أكثر من ثلاثة أشهر. [بهجة المجالس:٣/ ٤٦].

* * *

القصة الحادية والسبعون ومائة
كنز طروادة

لا يزال الناس وهم يحفرون الأرض التي نعيش عليها يعثرون على كنوز من مخلفات السابقين من البشر، وبعض الناس يقصد الحفر بنفسه أو بأناس يستأجرهم للعثور على الكنوز الغابرة.

ومن هذه الكنوز «كنز طروادة» الذي عثر عليه باحث ألماني في تركيا في عام (١٨٧٣م) ثم اختفى هذا الكنز في مخبأ في قبو روسي.

وقد نقلت بعض وكالات الأنباء في ١٩٩٧/٤/٧ نبأ العثور على هذا الكنز بعد أن فُقد لمدة خمسين عاماً، وإليك الخبر كما نُشر في جريدة الرأي الكويتية: «استوكهولم - قدس برس - منذ خمسين عاماً و «كنز طروادة» الذي يعتبر من أجمل كنوز العصور القديمة مخبأ في قبو روسي لا يعلم به أحد. ولكن أصبح بإمكان علماء الآثار مؤخراً دراسة هذا الكنز من جديد. وقبل اكتشاف هذا الكنز في النصف الثاني من القرن الماضي على يد هاوٍ للبحث عن الآثار اعتقد الجميع أن مدينة «طروادة» من وحي الأساطير.

وكان علماء الآثار قد فقدوا الأمل في رؤية هذا الكنز الباهر إثر اختفائه في ظروف غامضة في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. ولكن الكنز ظهر من جديد مؤخراً وبعد مرور نصف قرن من الزمان مما يجعل العلماء يقفون حائرين أمام لغزه الكبير مرة أخرى.

وفي الواقع لا يعلم أحد من صاحب هذا الكنز.. ولكن باحث الآثار الألماني الهاوي هانيريخ شليمان الذي عثر على الكنز عام ١٨٧٣ مدفوناً في تل في تركيا كان واثقاً بأن هذا الكنز هو كنز مدينة طروادة التي وردت في ملحمتي هوميروس الشعرية «الإلياذة» و«الأوذيسة» ، والتي تعد رمز الوحدة والبطولة عند الهلينيتين. والأساس الذي قامت عليه التربية اليونانية طوال العصر الكلاسيكي.

إن أكثر قطعة مثيرة للدهشة في هذا الكنز هو تاج من الذهب الخالص الذي يتألف من ١٦ ألف قطعة منفردة بأقل تقدير، ومع هذا لا يزن أكثر من ١٩٣,٤٧ غراماً وهو مصنوع من وريقات من الذهب الخالص لا تزيد سماكة الواحدة منها عن نصف ميليمتر.

ويوجد بين محتويات الكنز أيضاً ٦١ خاتماً من الذهب تم شبكها بسلسلة، وعند النظرة الأولى إليها يتهيأ للمرء بأنها سلسلة عنق أو سوار، ولكنها في الواقع ليست سوى سلسلة لحفظ الخواتم في مكان واحد حيث من الممكن اختيار خاتم ما من هذه السلسلة، ومن ثم إقفالها مرة أخرى.

ولم يكن سكان طروادة يستخدمون الأزرار في ملابسهم، وإنما الأحزمة والدبابيس بأحجام مختلفة، ولعل إحدى أبرز القطع الذهبية الموجودة في الكنز دبوس كبير مزين بستة زهريات صغيرة بمقبضين وحلقات من خيوط ذهبية.

ولا يقتصر الكنز على هذه الحلي الجميلة فحسب، ولكنه يشمل أيضاً قارورة ذهبية يعتقد بأنها كانت تستخدم لحفظ العطور، وبما أن وزنها لا يقل عن ٤٠٠ غرام فلا بد أن يكون صاحبها من وجهاء طروادة.

وهناك كذلك قطعة ذهبية أخرى تسمى «وعاء الصلصة»، وقد أطلق عليها هذا الاسم، لأنها بالفعل تشبه وعاء الصلصة، ولكن لا أحد يعلم ما إذا كانت هذه القطعة قد استخدمت على مائدة أحد الملوك أو في مراسيم دينية.

وهناك بعض السلاسل الذهبية في المجموعة من اللآلئ الذهبية قام مكتشف الكنز بنفسه بتركيبها، وأحكم إغلاقها، ولكن علماء الآثار الذين جاؤوا بعده تمنوا لو لم يفعل ذلك، فهم لا يعلمون اليوم إن كان قد عثر على هذه اللآلئ في مكان واحد أو أكثر.

وما زال التردد في طريقة استخدام هذه القطع وأصلها قائماً حتى يومنا هذا،فلا أحد يعلم أين عثر على هذه القطع الذهبية أو كيف ومتى وفي أي طبقة من الأرض، وهذا أمر جعل من الصعب على علماء الآثار إجراء تقويم كامل لها ما داموا لا يعلمون فيما إذا كانت قد وجدت داخل سور المدينة أم خارجه على سبيل المثال، وإذا كان قد عثر عليها في مكان واحد أم أنها كان منتشرة.

كما لا يعلم أحد من هو صاحب هذا الكنز، والأمر الوحيد المؤكد هو أن مدينة «طروادة» كانت آنذاك مجتمعاً تجارياً حديثاً خرجت لتوها من العصر الحجري.

تنفس علماء الآثار في العالم الصعداء عند ظهور الكنز الذي اعتقد الجميع بأنه فُقد إلى الأبد، ولكن السعادة سرعان ما تحولت إلى أزمات دبلوماسية، فهناك عدة دول تدّعي أحقيتها في هذا الكنز، حيث تطالب ألمانيا الحكومة الروسية باستعادة الكنز وفقاً للاتفاقية المبرمة حول غنائم الحرب الثقافية.

كما تطالب تركيا من جانبها بأحقيتها في الكنز كونه عُثر عليه في أراضيها، في حين تطالب إنجلترا باستعادة الكنز بما أنه عُثر عليه في أرض كان يملكها آنذاك مواطن بريطاني، وكذلك فعلت اليونان بما أن المنطقة كانت مأهولة باليونانيين خلال هذه الحقبة من الزمن.

وليس غريباً أن يكون اكتشاف الكنز قد أثار دهشة العالم كله عام ١٨٧٣، فما زال هذا الكنز وبالرغم من مرور ١٢٣ عاماً على اكتشافه يثير البلبلة على

المستوى الدولي.. مما يثير تساؤلاً مفاده «هل تتسبب طروادة في نشوب حرب جديدة»؟ .

الرحلة الطويلة للبحث عن الذهب:

عام ١٨٧٠: بدأ هانيريخ شليمان حفرياته بحثاً عن كنز طروادة دون تصريح من الحكومة التركية.

عام ١٨٧٣: عثر شليمان على الذهب وقام بتصوير زوجته وهي ترتدي التاج المصنوع من وريقات من الذهب ليرى العالم هذه التحفة الفنية.

عام ١٨٧٤: قام شليمان بتهريب الكنز إلى أثينا، وكان عليه أن يسدد آنذاك ١٢٥ ألف فرنكاً لتركيا بغية شراء الذهب.

عام ١٨٨١: نزولاً عند رغبة القيصر الألماني «فيلهم الأول» قام شليمان بالتبرع بالكنز إلى ألمانيا، مقابل أن يصبح مواطناً فخرياً في برلين.

عام ١٩٤٥: في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية استولى الروس على الذهب الذي كان مخبأ في برلين، وقاموا بنقله إلى روسيا دون أن يعلم أحد بذلك.

عام ١٩٩١: بعد ٤٦ عاماً من الصمت يكشف اثنان من مؤرخي الفن في روسيا أن كنز طروادة موجود في أحد الأقبية في موسكو.

* * *

القصة الثانية والسبعون ومائة
ابن القِرية: أيوب بن زيد الهلالي

كان أيوب بن زيد الهلالي المعروف بابن القِرِّيَّة بكسر القاف وبالراء والمثناة من تحت، وتشديدهما في آخرها اسم جدته، كان أعرابياً أمياً، وهو معدود من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، وكان عامل الحجاج يُغَدّي كل يوم ويُعَشّي، فوقف ابن القرية ببابه، فرأى الناس يدخلون، فقال أين يدخل هؤلاء؟ فقالوا: إلى طعام الأمير، فدخل فتغدى، وقال: أكل يوم يصنع الأمير ما أرى؟ فقيل: نعم، فكان كل يوم يأتيه للغداء والعشاء، إلى أن ورد كتاب من الحجاج على العامل، وهو عربي غريب لا يدري ما هو، فأمر لذلك بمنع طعامه، فجاء ابن القرية، فلم ير العامل يتغدى، فقال: ما بال الأمير اليوم لا يأكل، ولا يطعم؟.

فقالوا: غَمٌّ لكتاب ورد عليه من الحجاج عربي غريب، لا يدري ما هو، فقال: ليريني الأمير الكتاب، وأنا أفسره إن شاء الله تعالى، وكان خطيباً لسناً بليغاً، فذكر ذلك للوالي فدعي به، فلما قُرئ عليه الكتاب عرف الكلام وفسّره للوالي، حتى عرف جميع ما فيه، فالتمس الوالي منه أن يكتب له الجواب، فقال: لست أقرأ ولا أكتب، ولكن أقعِدْ عندي كاتباً يكتب ما أمليه، ففعل فكتب جواب الكتاب، فلما قُرئ الكتاب على الحجاج رأى كلاماً غريباً، فعلم أنه ليس من كلام كتاب الخراج، فدعا برسائل عامله على اليمن، فنظر فيها فإذا هي ليست ككتاب ابن القرية، فكتب الحجاج إلى العامل.

أما بعد: فقد أتاني كتابك بعيداً من جوابك بمنطق غيرك، فإذا نظرت في كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث إليّ بالرجل الذي سطر لك الكتاب والسلام، فقرأ العامل الكتاب على ابن القرية، فقال له تتوجه نحوه، وقال لا بأس عليك، وأمر له بكسوة، ونفقة وحمله إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال ما اسمك؟ قال: أيوب. قال: اسم نبي، وأظنك أمياً تحاول البلاغة؟ ولا يستصعب عليك المقال، وأمر له بنزل ومنزل، فلم يزل يزداد به عجباً حتى أوفده على عبدالملك بن مروان.

فلما خلع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الطاعة بسجستان، وهي واقعة مشهورة، بعثه الحجاج إليه، فلما دخل عليه قال: لتقومن خطيباً، ولتخلعن عبدالملك، ولتشتمن الحجاج، أو لأضربن عنقك، قال: أيها الأمير إنما أنا رسول، قال: هو ما أقول لك فقام وخطب، وخلع عبدالملك وشتم الحجاج، وقام هناك، فلما انصرف ابن الأشعث منهزماً كتب الحجاج إلى عماله بالري وأصبهان وما يليها يأمرهم أن لا يمرّ بهم أحد من قيل أو قال من أصحاب ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيراً إليه.

وأخذ ابن القرية في من أخذ فلما دخل على الحجاج، قال: أخبرني عما أسألك عنه، قال: سلني عمن شئت، قال أخبرني عن أهل العراق؟ قال: أعلم الناس بحق وباطل. قال: فأهل الحجاز؟ قال: أسرع الناس إلى فتنة، وأعجزهم فيها، قال: فأهل الشام؟ قال أطوع الناس لخلفائهم.

قال: فأهل مصر؟ قال: عبيد من خلب، يعني من خدع. قال: فأهل البحرين؟ قال: نَبَط استعربوا، قال: فأهل عمان؟ قال: عرب استنبطوا.

قال: فأهل الموصل؟ قال: أشجع فرسان، وأقتل للأقران، قال: فأهل اليمن؟ قال: أهل أهواء أو قال: أهواء ونقاء، واصبر عند اللقاء. قال: فأهل اليمامة؟ قال: أهل جفاء واختلاف وريف كثير وقرى يسير.

قال: أخبرني عن العرب، قال: سلني. قال: قريش؟ قال: أعظمها أحلاماً وأكرمها مقاماً، قال: فبنو عامر بن صعصعة؟ قال: أطولها رماحاً وأكرمها صباحاً، قال: فبنو سليم؟ قال: أعظمها مجالس وأكرمها محاسن. قال: فثقيف؟ قال: أكرمها جدوداً وأكثرها وفوداً. قال: فبنو زيد؟ قال ألزمها للرايات وأدركها للثارات.

قال: فقضاعة؟ قال: أعظمها أخطاراً وأكرمها نجاراً وأبعدها آثاراً، يعني النجار بالنون والجيم والراء بعد الألف الأصل والحسب. قال: فالأنصار؟ قال: أثبتها مقاماً وأحسنها إسلاماً، وأكرمها أياماً. قال: فتميم؟ قال: أظهرها جلداً وأثراها عدداً. قال: فبكر بن وائل؟ قال: أثبتها صفوفاً وأحدُّها سيوفاً.. قال: فعبد القيس؟ قال: أسبقها إلى الغايات وأصبرها تحت الرايات. فقال: فبنو أسد؟ قال: أهل عدد وجلد وعز ونكد. قال: فلخم؟ قال: ملوك، وفيهم نوك، يعني بالنوك بفتح النون الحمق.

قال: فجذام؟ قال: يسعرون الحرب، ويوقدونها، ويلحقونها، ثم يمرونها. قال: فبنو الحارث؟ قال: رعاة للقديم حماة عن الحريم.

قال: فمك؟ قال: ليوث جاهدة في قلوب فاسدة. قال: فثعلب؟ قال: يصدقون إذ ألقوا ضرباً، ويسعرون الأعداء حرباً. قال: فغسان؟ قال أكرم العرب أحساباً وأبينها أنساباً.

وسأله أسئلة كثيرة أخرى، ثم قتله. [مرآة الجنان:١/ ١٣٧].

* * *

القصة الثالثة والسبعون ومائة
كيف سرق المال وكيف استرده صاحبه

عن محمد بن عمر بن شجاع المتكلم، ويلقّب بجنيد، قال: حدثني رجل من الدقاقين، في دار الزبير بالبصرة، قال: أورد عليّ رجل غريب، سفتجة بأجل، فكان يتردّد عليّ إلى أن حلّ ميعاد السفتجة.

ثم قال لي: دعها عندك حتى آخذها متفرّقة، فكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفدت، وصار بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من كيسي من صندوق لي، فأعطيه منه.

فقال لي يوماً، إن قفل الرجل، صاحبه في سفره، وأمينه في حضره، وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظنّة عن أهله وعياله، فإن لم يكن وثيقاً تطرّقت الحيل عليه، وأرى قفلك هذا وثيقاً، فقل لي ممن ابتعته، لأبتاع مثله.

فقلت: من فلان بن فلان الأقفاليّ، في جوار باب الصفّارين.

قال: فما شعرت يوماً، وقد جئت إلى دكّاني، فطلبت صندوقي لأخرج منه شيئاً من الدراهم، فحمله الغلام إليّ، ففتحته، فإذا ليس فيه شيء من الدراهم.

فقلت لغلامي وكان غير متهم عندي: هل أنكرت من الدرابات شيئاً؟

قال: لا.

فقلت: فتّش، هل ترى في الدكان نقباً؟

قال: لا.

فقلت: فمن السقف حيلة؟

قال: لا.

قلت: فاعلم أن الدراهم قد ذهبت.

فقلق الغلام، فسكّنته، وقمت لا أدري ما أصنع، وتأخر الرجل عني، فلما غاب اتهمته، وذكرت مسألته عن القفل.

فقلت للغلام: أخبرني كيف تفتح دكاني وتغلقه؟

قال: رسمي أن أدرب درابتين درابتين، والدرابات في المسجد، فأحملها في دفعات، اثنتين أو ثلاثاً، فأشرجها، ثم أقفل، وكذلك عندما أفتحها.

فقلت: البارحة، واليوم، فعلت ذلك؟

قال: نعم.

فقلت: فإذا مضيت لتردّ الدرابات، أو تحضرها، على من تدع الدكان؟

قال: خالياً.

قلت: فمن هنا دهيت.

ومضيت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت: جاءك إنسان منذ أيام، واشترى منك مثل هذا القفل؟ .

قال: نعم، رجل من صفته كيت وكيت، فأعطاني صفة صاحبي.

فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء، لما انصرفت أنا ومضى الغلام يحمل الدرابات، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه، ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه، والذي يقع على قفلي، وأنه أخذ الدراهم، وجلس طول ليلته خلف

الدرابات، فلما جاء الغلام، فتح درابتين، وحملهما ليرفعهما، خرج وأنه ما فعل ذلك، إلا وقد خرج إلى بغداد.

فسلّمت دكاني إلى الغلام، وقلت له: من سأل عني فعرّفه أني خرجت إلى ضيعتي.

قال: فخرجت، ومعي قفلي ومفتاحه، وقلت: أبتدئ بطلب الرجل بواسط.

فلما صعدت من السميريّة، طلبت خاناً من الكتبيّين بواسط، لأنزله، فأرشدت إليه، فصعدت، فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت.

فقلت لقيّم الخان: هذا البيت من ينزله؟

فقال: رجل قدم من البصرة أمس.

فقلت: أي شيء صفته؟

فوصف لي صفة صاحبي، فلم أشك أنه هو، وأن الدراهم في بيته.

فاكتريت بيتاً إلى جانبه، ورصدت البيت، حتى انصرف قيّم الخان، وقمت ففتحت القفل بمفتاحي، فحين دخلت البيت، وجدت كيسي بعينه، فأخذته، وخرجت وأقفلت الباب، ونزلت في الوقت إلى السفينة التي جئت فيها، وأرغبت الملاّح، وانحدرت إلى البصرة.

فما أقمت بواسط إلا ساعتين من نهار، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه.

[الفرج بعد الشدة:١/ ٩٩، نقلاً عن نشوار المحاضرة:٨/ ٩٧].

* * *

القصة الرابعة والسبعون ومائة
يريد أن يقتله بك ويقتلك به

لما حج المنصور، بعد تقليد المهدي العهد، وتقديمه فيه على عيسى بن موسى، دفع عمه عبدالله بن علي، إلى عيسى بن موسى، ليعتقله، وأمره سراً بقتله، وكان يونس بن أبي فروة يكتب لعيسى بن موسى.

فعزم عيسى على قتل عبدالله بن علي، ثم تعقّب الرأي، فدعا بيونس، فخبّره بالخبر، وشاوره.

فقال له يونس: نشدتك الله أن لا تفعل، فإنه يريد أن يقتله بك، ويقتلك به، لأنه أمرك بقتله سراً، ويجحدك ذلك في العلانية، ولكن استره حيث لا يطلع عليه أحد، فإن طلبه منك علانية، دفعته إليه، وإياك أن تردّه إليه سراً أبداً، بعد أن قد ظهر حصوله في يدك علانية، ففعل عيسى ذلك.

انصرف المنصور من حجّه، وعنده أن عيسى قد قتل عبدالله، فدسّ إلى عمومته، من يشير عليهم بمسألته في أخيهم عبدالله، فجاؤوه يسألونه ذلك، فدعا بعيسى بن موسى، وسأله عنه بحضرتهم.

فدنا منه عيسى بن موسى، وقال له: فيما بينه وبينه: ألم تأمرني بقتله؟

قال: معاذ الله، ما أمرتك بذلك، كذبت.

ثم أقبل على عمومته، فقال: هذا قد أقرّ بقتل عبدالله، وادّعى عليّ أني أمرته بذلك، وقد كذب، فشأنكم به.

قال: فوثبوا عليه ليقتلوه، فلما رأى صورة أمره، صَدَقَ أبا جعفر، وأحضر عبدالله، فسلّمه إليه بمحضر من الجماعة.

فكان عيسى يشكر ليونس بن أبي فروة ذلك، مدّة عمره. [الفرج بعد الشدة:٢/ ٢٧٣].

❊ ❊ ❊

القصة الخامسة والسبعون ومائة
إن لي نفساً تواقة ذواقة

قال السيد الجليل رجاء بن حيوة: بتُّ ليلة عند عمر بن عبدالعزيز، فهمّ السراج أن يطفأ فقمت إليه لأصلحه، فأقسم علي عمر أن أقعد، فقام هو وأصلحه، فقلت له: تقوم أنت يا أمير المؤمنين؟ فقال: قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

وقال: قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز وهو يخطب باثني عشر درهماً، كانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

وروي أنه كان يؤتي بالحلّة قبل أن يلي الخلافة بألف درهم، فيقول: ما أحسنها لولا خشونة فيها، ويؤتي بالحلة حين ولي الخلافة بأربعة أو خمسة دراهم، فيقول: ما أحسنها لولا نعومة فيها، فسئل عن ذلك فقال: إن لي نفساً ذواقة توّاقة، كلما ذاقت شيئاً تاقت إلى ما فوقه، فلم تزل تذوق وتتوق إلى أن ذاقت الخلافة، فتاقت إلى ما فوقها، ولم يكن في الدنيا شيء فوقها، فتاقت إلى ما عند الله تعالى في الدار الآخرة، وذلك لا يُنال إلا بترك الدنيا.

وروي أنه دخل عليه مسلمة بن عبدالملك وهو مريض فرأى ثوبه وسخاً، فقال لزوجته فاطمة بنت عبدالملك: اغسلوا ثوب أمير المؤمنين، فقالت: نفعل إن شاء الله تعالى، ثم كذلك لم يزل يدخل عليه والثوب على حاله، فخاصم أخته، فقالت له: إنه ليس له ثوب غيره، إذا غسلناه لم يجد ثوباً يلبسه.

وروي أن سليمان بن عبدالملك استشار في مرض موته السيد الجليل رجاء ابن حيوة فيمن يعهد إليه بأمر الخلافة بعده، فأشار إليه بعمر بن عبدالعزيز، فقال: كيف يمكن ذلك وأولاد عبدالملك لا يطيعون؟ فقال: افعل ما آمرك به، والأمر يتصلح إن شاء الله تعالى. فقال: ما تأمرني؟ فقال: اكتب كتاب العهد له واختمه، ففعل ذلك ثم قال له: مر منادياً فليناد بالناس يحضرون عندك، فإذا حضروا فمرهم فليبايعوا لمن عهدت له فيه، ففعل ذلك.

قال رجاء بن حيوة: فلما انصرفنا من عنده إذا بمركب خلفي فالتفت فإذا بهشام بن عبدالملك، فقال لي يا رجاء: أعلمني من صاحب العهد، فإن أكن أنا هو عرفت ذلك، وإلا تكلّمت قبل أن يفرط الأمر، قال: فأجبته بجواب أطمعته فيه من غير تصريح، فسكت وانصرف، ثم التفت: فإذا أنا بعمر بن عبدالعزيز، فقال لي: يا رجاء أعلمني لمن كتب هذا العهد، فإن كان لغيري سكت، وإن يكن لي تكلمت في صرفه عني ما دام في الأمر سعة.

قال: فأوهمته مراده، فلما توفي سليمان أمرت من عنده يكتم موته، وقلت: مروا منادياً فليناد بالناس ليبايعوا أمير المؤمنين ثانياً على السمع والطاعة لمن في الكتاب، ففعلوا ذلك، فلما حضوروا وبايعوا قلت: أعظم الله أجوركم في أمير المؤمنين، ثم فتح الكتاب فإذا صاحب العهد عمر بن عبدالعزيز.

فوجم لذلك بنو عبدالملك، ولم يقدروا يفعلون شيئاً، ثم أخرجت جنازته فخرج بنو عبدالملك ركباناً، وخرج عمر بن عبدالعزيز ماشياً، فلما رجعوا من دفنه أرسل عمر إلى نسائه رسولاً يقول لهن: من أرادت منكن الدنيا فلتلحق بأهلها، فإن عمر قد جاءه أمر يشغله، قال: فسمعت النوائح يومئذ في بيت عمر ابن عبدالعزيز، وعدله ﷺ وحُسْن سيرته الحسناء، وأوصافه الجميلة قد ملأت الوجود شهرة، رحمة الله تعالى ورضوانه عليه. [مرآة الجنان:١/١٦٦].

مراجع الكتاب

مرتبة على حروف المعجم

١- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد الرازي الجصاص، دار الفكر.

٢- أخبار الحمقى والمغفلين، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٣- الإشراف في منازل الأشراف، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، مكتبة الرشيد، الرياض، الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤- أعلام الموقعين، لابن القيم، دار ابن الجوزي، السعودية، الهفوف، الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥- إغاثة اللهفان، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت.

٦- الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي، لكاظم أحمد ناصر المشايخي، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٦٦م.

٧- بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الخير، دمشق وبيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٨- البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الثانية، ١٩٧٧م.

٩- بهجة المجالس، لأبي عمر يوسف بن عبدالبر، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠- تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النُباهي المالقي الأندلسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١١- تفضيل الكلاب على كثير ممن جرُ الثياب، محمد بن خلف بن المرزبان، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، دار الفرقان، عمان، الأردن، الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٣- دكانة الكتب، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٤- سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الأولى، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

١٥- الطرق الحكمية، لابن القيم، مكتبة المؤيد، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٦- عدة الصابرين، لابن القيم، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، الرابعة،١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٧- العدة على إحكام الأحكام للصنعاني، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٩هـ.

١٨- العفو والاعتذار، لأبي الحسن محمد بن عمران العبديّ. تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، دار البشير، عمان، الأردن، الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٩- عقلاء المجانين، لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠- غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح، مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٢١- الفكر السامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٢٢- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، لأحمد قدامة، دار النفائس، بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م.
٢٣- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٢٤- مجموعة الرسائل المنيرية، طبعة إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٦هـ
٢٥- المختار من نوادر الأخبار، محمد بن أحمد المقرّي، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٢٦- مدارج السالكين، لابن القيم، دار الجيل، بيروت.
٢٧- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لأبي محمد عبدالله بن أسعد اليافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٢٨- مطمح الأنفس ومسرح التأنس، محمد بن عبدالله بن خاقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٢٩- المعجم الوسيط، لإبراهيم أنيس وآخرين، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
٣٠- مفتاح دار السعادة، دار ابن عفان، السعودية، الخبر، الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٣١- المكافأة وحُسْن العقبى، أحمد بن يوسف الكاتب، تحقيق محمود محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٢- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٣٣- نصب الموائد لذكر الفتاوى والنوادر والفوائد، عبدالله التليدي، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٣٤- هدي الساري، لابن حجر العسقلاني، دار السلام، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

❊ ❊ ❊

فهرس